MY SUSPICIOUS GRANDMOTHER

جدتي المريبة

رواية

مها آدم

مكتبة عصير الكتب

فطر سعيد 2 ب

جدتي
المريبة

عصير الكتب
لتجارة الكتب

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- المؤلف: مها آدم
- تدقيق لغوي: د. محمد حماده جاد
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير 2022م
- رقم الإيداع: 2022/3237م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-96-1

مكتبة
t.me/soramnqraa
22 4 2023

MY SUSPICIOUS GRANDMOTHER

جدتي المريبة

مها آدم

رواية

عصير الكتب

مكتبة

إهداء

أهدي هذا العمل لكل شخص حاول وفشل،

ثم حاول وفشل، ثم استسلم، ثم عاد ليحاول ويفشل.

حتى أيقن أن محاولاته تلك هي النجاح في حد ذاته.

(حاول لتفشل مرة أخرى)

الفصل الأول

النهاية

مكتبة
t.me/soramnqraa

لا أعرف من أين أبدأ. هل علي ذكر اسمي وسني ومهنتي؟ كيف أعرف نفسي حقًّا؟ وهل تلك الأشياء مهمة؟ هل علي ذكر أين ولدت؟ وكيف نشأت؟ ربما البعض يحب أن يعرف، والبعض الآخر لا يهتم. من أين البداية؟ حسنًا، أعتقد أن البداية حيث انتهى كل شيء.

أو... ربما من الأفضل الإجابة عن كل تلك الأسئلة أولًا.

أدعى هبة سليم؛ أنا في الواحدة والثلاثين من عمري، أعمل مهندسة في إحدى الشركات الأجنبية بالقاهرة. أما عن بداية القصة؛ فهي في نهاية حياتي، أو للدقة: نهاية قصة حب حياتي.

حسنًا، دعني أشرح لك.

أنا ابنة وحيدة لأمي سامية، يتيمة الأب منذ الرابعة، وقليلة هي الأشياء التي أتذكرها عن أبي. تولى خالي رفاعي رعايتي منذ وفاة أبي. أنا أدين له بالكثير، ولكن لا أظنني أسامحه أبدًا على ما حدث بعد ذلك. ولكن دعوني أكمل. كما قلت؛ عشت حياتي كلها في شقة صغيرة، في نفس البناية التي يسكن بها خالي وعائلته. لم تكن حياتي مأسوية أو مضطربة كما يظن البعض، وماديًّا؛ لم أحتج يومًا إلى شيء ولم أجده أمامي، فكما أخبرتك؛ أنا أعمل بشركة أجنبية، فلا بد أنك خمنت أني درست بمدارس لغات، وفي مصر تلك ميزة يفتقر إليها الكثير. لكن عليك معرفة أن من تولى رعايتي ماديًّا هي جدتي من جهة أبي، وليس خالي كما يظن الجميع. نعم، جدتي، إنها لغز حقًّا. انتهت علاقتي بها منذ كنت في الخامسة عشرة؛ تعاركت مع أمي في إحدى زياراتها

القليلة لنا، وانتهى الأمر برحيلها عن حياتي. ومع ذلك ظلت تمدنا بالمال كل شهر، مال وفير يكفي لإطعام أسرة مكونة من خمسة أفراد. لم نعرف قط من أين تأتي بالمال؛ ربما ترث أرضًا زراعية تصب عليها المال الوفير، أو تعمل في تهريب المخدرات، أنا لا أعلم. كما قلت، لقد مثلت لغزًا كبيرًا في حياتي؛ فهي تسكن في مكان ناءٍ عن الجميع، ولا تحب استقبال أحد. ليست جدة حنونة كما تراها في الأفلام أو تسمع عنها في القصص، بل امرأة قاسية، لاذعة اللسان، ولذلك تركت كل شيء خلفي وذهبت للعيش معها.

كلا، لا تظلمني وتظن أني ذهبت من أجل المال! كلا، انتظر لتسمع قصتي.

منذ عامي الأول في الجامعة وأنا معه، لا أذكر موقفًا واحدًا أو ذكرى إلا وهو معي؛ أتذكر أول مرة وقعت عيناي عليه.. كلا، ليس حبًّا من النظرة الأولى، بل امتعاضًا. كنت أجلس في أول محاضرة لنا في أول عام في الجامعة، وإذا بشاب متأخر يجلس بجانبي يتصبب عرقًا. بدأ الدكتور في تعريفنا على مادته، فإذا بهذا الشخص يطلب مني ورقة وقلمًا. عندها أصابني الغضب، وقلت: «من يأتي إلى الجامعة دون دفتر محاضرات وقلم؟» أعطيته ما يريده على مضض، ثم ابتعدت قليلًا عنه؛ فقد كنت مصممة وقتها على بناء حياتي بنفسي. الأحمق ظن أني أفسح له المكان فاقترب أكثر.

بعد انتهاء المحاضرة اقترب مني وعرفني بنفسه، ثم بدأت العلاقة. لم تكن علاقة حب، لا. لم نعترف بالحب إلا بعد انتهاء عامنا الأخير. بدأت العلاقة كزمالة، ثم صداقة، ثم تطور الأمر وأصبح توأم روحي. كم تمنيت وقوف العلاقة عند هذا الحد؛ أخي الذي لم تنجبه أمي. ولكنه اعترف بحبه لي، وبكيت أنا كالحمقاء فرحًا وقتها. ولكن كما تقول أمي: «كل شيء نصيب».

على أي حال، تعاهدنا على بناء حياة مختلفة لنا، حياة ليس لها مثيل، حياة لن نتأفف لو تذكرناها بعد عشرة أعوام، أو حتى بعد عشرين عامًا. أردنا تأسيس حياة لأطفالنا تختلف، أردنا كل شيء. ولم أعرف وقتها أنه من المستحيل حدوث ذلك، ولكني تعلمت الدرس بالطريقة الصعبة.

بدأت رحلة كفاحنا معًا؛ من يعمل أولًا سيسحب الآخر، وقد كان. مر تسعة أعوام ونحن نقوم ببناء أنفسنا، ثم منزلنا، حجرًا فوق حجر كما يقولون، حساب في البنك، باسمي بالطبع. كنت أختار كل شيء له صلة بحياتنا، حتى

إنه اعتاد اقتطاع ثمن بنزين سيارته وإعطائي ما تبقى من راتبه الشهري دون سؤالي عما أفعله بالمال. وثق بي ثقة عمياء، وبادلته المثل، وربما هذا خطئي الأول. على أي حال، بنينا منزلنا معًا؛ فيلا صغيرة في إحدى المدن الجديدة الراقية. اخترنا حتى اسم المدرسة التي ننوي وضع طفلنا الأول بها، كل شيء حدد مسبقًا. ولكن حسنًا، النصيب.

متى بدأت المشكلات؟ العام الماضي، تحديدًا بعد تحديد موعد الزفاف. فجأة أصبحت فتاة متطلبة، كثيرة الكلام، دائمة المشكلات. ما اعتدت فعله طوال السنوات الماضية وأضحكه أصبح الآن يغضبه. بالطبع حاولت التحدث معه ومعرفة ما به، ولكن دائمًا ما ينتهي النقاش بهروبه وعدم التحدث معي لأيام. كنت بداخل كل تفاصيل حياته: أعرف متى يستيقظ، من يصادق، ومع من يتحدث، فلا تنسَ أني أعمل معه في نفس الشركة؛ أصدقاؤنا مشتركون، حياتنا كلها مشتركة. قديمًا، اعتاد المكوث معي طوال اليوم، والذهاب إلى منزله للنوم. وأحيانًا عندما يتأخر الوقت يصعد لينام بشقة خالي، مع ولده محمود.

مرت الأشهر ونحن على هذه الحال؛ نتعارك كل يوم. حتى –في يوم أسود– طلب مني خالي الصعود إلى شقته، لأجد أحمد جالسًا ووجهه محمر، وبجانبه جلست هنا، ابنة خالي الصغيرة، تبكي وترتعش. أمي تبكي أيضًا! اللعنة، لم الجميع يبكي؟

طلب خالي مني الجلوس وبدأ في سرد ما حدث. لا بد أن الأمر بدأ منذ بعض الوقت. كم كنت مغفلة! كم كنت عمياء! حسنًا، لا داعي لقول المزيد. أحمد تحركت مشاعره لهنا وأصبح يحبها، وهنا كذلك تحبه. كم فارق العمر بينهما؟ حسنًا، إنها في الثانية والعشرين، وهو في الثانية والثلاثين. متى حدث هذا؟ لا أعرف، ربما بدأ منذ شهر، أو منذ أعوام؛ عندما طلبت منه إيصالها إلى أحد المراكز التعليمية لما كانت طالبة في الثانوية العامة. لا أعرف متى بدأ بالتحديد، ولكنه بدأ على أي حال. أخبرني خالي أنني ابنته كهنا. حسنًا، فلم يطلب مني أنا الانسحاب؟ وليس العكس؟ هل يعرف كم بذلت من مجهود في تلك العلاقة؟ هل يعرف كم سهرت مع العمال أبني منزلي بنفسي؟ هل يعرف كم حرمت نفسي من الرفاهيات كي أوفر ثمن دهان الحوائط؟ أو يومية

السباك؟ هل يعرف؟ بالطبع يعرف. ولكن أحمد «عريس لقطة» كما لقبته زوجة خالي.

بالطبع ظننت في البداية أنها دعابة. في أي شهر نحن؟ هل هي كذبة أبريل؟ هل اليوم عيد ميلادي ويقوم الجميع بطرفة سمجة؟ لا أعرف، ولكن وجوه الجميع توحي بالجدية.

ارتعش قلبي بداخل صدري وصرخت. أنا لست من النوع الهادئ، لا، صرخت وحطمت ما أمامي. أمسكت حتى بشعرها الأصفر المصبوغ واقتلعته من رأسها. لم أنسَ رفس أحمد بقدمي في وجهه، فانفجرت الدماء من حاجبه، ولكني لم أهتم. استلزم الأمر تدخل محمود، وابن أحد الجيران حتى استطاعوا تثبيتي في الأرض وإخراجي من الشقة وأنا أصرخ وأركل. نعم، كانت فضيحة.

***

مرت أشهر ونحن نتجادل، أصبحت حياتي ساحة معركة طوال الوقت، وأنا مجبرة على الهجوم والدفاع. حياتي أصبحت لعنة؛ لعنة وأنا في المنزل لأن هنا تعيش معنا، ولعنة في العمل لأنه يعمل معي طوال الوقت. هنا لا بد من توضيح بعض الأمور؛ الجميع اتفق على أنها عاهرة لأنها سرقت زوجي، أو ما سيكون. الجميع لامها، والبعض لامني أنا. أنا أصبحت فجأة فتاة لا تهتم بأنوثتها، فتاة مهملة في شكلها وملابسها، وحتى طريقة تعاملي مع الرجال لم تسلم من الانتقاد. أنا امرأة مستقلة نعم، ولكني لم أكن يومًا فتاة مسترجلة، لطالما أتقنت التحدث معهم. أعرف حدودي؛ متى أكون مدللة، ومتى أظهر أنياب القط، متى أكون حنونة، ومتى أرتدي وجه الخشب. ظننت أني أتقن كل شيء، ولكني لم أعرف بالطرق الخلفية للنفس البشرية. حاولت جاهدة حل اللغز؛ لأعرف متى حدث هذا، وكيف حدث تحت أنفي مباشرة.

أمي تقول إنه النصيب. ولكن أليس النصيب شيئًا نصنعه؟ فلم يحاسبنا الله –عز وجل– في نهاية الزمان إذن؟ إن قدر لنا كل شيء، فنحن ليس لنا حق الاختيار حقًا. هل أصعد إلى شقة خالي وألقي هنا من الدور الخامس؟ وفي حالة موتها أقول: «هذا نصيب»؟

لا يمكن للمرء بناء أحلامه على دماء غيره وهو يقول: «نصيب». لو سقطت فوق رأسها الصغير قطعة قرميد وفلقته نصفين سنقول هذا نصيب، ولكن سرقة أحمد ليست نصيبًا.

صديقة لي أخبرتني أن حياتي مع أحمد واضحة وضوح الشمس. أنا أيضًا واضحة، والرجال يحبون الغموض، يحبون المخاطرة، يحبون فك ألغاز الأنثى المجهولة لهم. تفسير عميق، ولكنه ليس صحيحًا؛ فطوال تلك الأعوام معه قابل أحمد الكثير من النساء الغامضات، ولم يرمش له جفن، فلم هي إذن؟

اقتربت مديرتي في يوم من الأيام وطلبت مني البحث عن روحاني؛ ليرى احتمالية أن زوجة خالي صنعت عملًا له. فتحت فمي ولم أخرج صوتًا. مديرتي تلك في الأربعين من عمرها، قضت نصف حياتها في أمريكا، وتبدو كممثلة أجنبية. غريبة طريقة تفكيرها، لم أتوقع خروج تلك الكلمات من فمها. ولكنها جعلتني أشك في كثير من الأمور.

هناك الكثير من التفسيرات الجارحة بالطبع، ولكن ربما تكون هي الأقرب إلى الحقيقة. إحدى زميلاتي أخبرتني أن الأمر خطئي؛ لقد تأخر بي العمر وأنا أنتظر بناء حياتي معه، في حين أن فتاة في مقتبل العمر جميلة وذكية قامت بسرقته، لا يمكن لوم أحد إلا نفسي. في رأيها كان علي التعلق بأي رجل يأتي لخطبتي على انتظار شاب أحبه لبناء حياته. ربما هي محقة، لا أعرف؛ هذه الأيام أصبحت لا أعرف أي شيء.

من المؤلم رؤيته كل يوم. تحولت ملابسه البسيطة إلى بدلات باهظة الثمن. حسنًا، لا داعي لادخار المزيد من المال، لقد رتبت له ولها كل شيء. أعلمني خالي بانتهاء العلاقة بينهما، ولكني أراه يتحدث معها على الهاتف ويضحك. أتركه وأعود للمنزل لأسمع أصوات الفرحة تأتي من فوقي؛ إذن الأمر لم ينتهِ. الجميع أعلن رفضه لهذه الزيجة، الجميع تضامن معي؛ بعض الفتيات في العمل رفضن التعامل معه كنوع من أنواع العقاب، صديقه المقرب أعلن غضبه ورفضه. ولكن كل هذا زاده إصرارًا وتمسكًا بها.

لا أعرف متى توقفت عن الصراخ والركل، متى هدأت العاصفة بداخلي. لكن استغرق الأمر ستة أشهر حتى قررت الرحيل وترك كل شيء خلفي. لم أعرف إلى أين؛ في البداية فكرت في الهجرة، ولكني لم أشأ زيادة الاغتراب

بداخلي، عندها تذكرت العائلة. هل لدي أحد ألجأ إليه عند الحاجة؟ لطالما آمنت أن خالي هو أبي، حتى هذا اليوم المشؤوم. عرفت الآن أن الأب لا يعوض، لا أظن أنه يوجد أب يسمح بحدوث شيء كهذا لابنته، ربما لو كان أبي حيًّا لقتل أحمد. حسنًا، موقف أمي المتخاذل لم ينفعني كثيرًا، ولكن ماذا ستفعل؟ هل ستقطع علاقتها بأخيها الذي تولى رعايتها منذ وفاة زوجها من أجل هذا الموقف؟ ولكن هذا الموقف مَثَّل نصف حياتي التي ذهبت هباءً الآن. عندها فكرت في جدتي؛ جدتي المريبة. نعم، لأذهب وأعش معها بضعة أشهر، أو حتى زواج أحمد وهنا. ربما يمكنني بعدها العودة لحياتي والتفكير في الخطوة التالية، فأنا أبدو كلعبة نفدت بطاريتها، ألقيت على الأرض في انتظار قدم أحمق ما ليهشمها. الآن علي الانسحاب من حياة الجميع.

***

- سترحلين هكذا؟

قالتها أمي باكية.

- ماذا تريدين يا أمي؟ أجلس هنا حتى أرى زفافهما؟ هل تودين لي الموت قهرًا؟

- كلا، ولكن خالك رفاعي قال...

- خالي قال الكثير يا أمي، ولكن هنا اشترت فستان الزفاف أمس؛ أتوا به في الواحدة بعد منتصف الليل كي لا أراه.

- لكن...

- لا داعي للبكاء يا أمي؛ كل شيء انتهى، أو كما تحبين أن تذكريني دائمًا «إنه النصيب».

- ابنتي، لا أريدك حزينة؛ نصيبك موجود في السماء، وسيكون أحسن مئة مرة من أحمد.

ابتسمت بمرارة:

- لا تشغلي بالك يا أمي، أنا لا أريد أي شيء.

قلتها ثم حملت حقيبتي الضخمة ورحلت.

الساعة السادسة صباحًا. الآن أنا من يتخفى كي لا يراه أحد. خرجت من البناية لأجد محمود يستند إلى السيارة مبتسمًا لي.

- استسلمت؟

- انسحاب، وليس استسلامًا.

أمسك بالحقيبة من يدي، وقبل أن أتركها نظرت إلى عينيه وطرحت السؤال الأهم:

- منذ متى وأنت تعرف؟

تراخت قبضته على الحقيبة، ثم نزعها:

- كنت أعرف أنها على علاقة بأحدهم، ولكني لم أعرف أنه أحمد إلا...

- إلا؟

- إلا منذ عام تقريبًا؛ أمسكت بهاتفها بالصدفة، وعرفت أنه هو. هبة، أحمد لا يستحق كل هذا، صدقيني. فترة وستمر، وستبقى هنا عقابه الأبدي.

- هل أحببت بحق من قبل؟ أقصد أحببت واحدة لا ترى غيرها وسط مئة امرأة أخرى؟

أغلق محمود باب سيارته غاضبًا:

- كلا، لم أقع في الحب من قبل، ولن أفعلها. هل تعرفين متى قررت ذلك؟ عندما رأيتك كالمجنونة يوم أخبروك بالعلاقة.

ابتسمت:

- أنا كنت مثل المجنونة لأن حياتي دمرت؛ أمك وأختك دمرتا كل شيء.

- لو أحبك بحق ما خانك.

- ربما هذه هي الإجابة، أنه لم يحبني.

فتحت باب السيارة ثم جلست. تساقطت دموعها فمسحتها سريعًا كي لا يراها محمود. طوال الطريق وهو يحاول خلق حديث معها، ولكنه لم يجد كلمات مناسبة؛ إنه من الأعداء الآن. كم أحب الحديث معها قديمًا! ولكن وقتها

قسم بين العمل وأحمد. الآن لا يمتلك الجرأة للحديث، إنه لا يتحمل انفجارًا آخر منها.

***

مرت ساعتان أو أكثر، ثم توقفت السيارة أمام فيلا قديمة، فترجلت هبة منها متفحصة المكان المهمل. تساءلت: هل جدتها تعيش هنا حقًّا؟ اتصلت بها بالطبع وأخبرتها برغبتها في المكوث معها لبعض الوقت. ترددت جدتها ثم وافقت على مضض. لو لم تحتج إلى مكان لتبتعد عن الجميع لما ذهبت، خاصة بعد تلك المكالمة. ظنت جدتها ستطير من الفرح لسماع صوتها، أو رغبتها في زيارتها، ولكن قابلها صوتها البارد القاسي ليقضي على أي أمل لها في السعادة داخل تلك الجدران.

اقتربت هبة من المنزل، ثم ضغطت زر الجرس فسرت قشعريرة بجسدها.

قال محمود وهو يتفحص المنزل بخوف:

- هل أنت واثقة من وجود أحياء يعيشون في هذا المنزل؟

- نعم، بالطبع.

فتح الباب فجأة، فتراجعت هبة ومن خلفها محمود. المنزل مظلم بالداخل ولا أحد يظهر.

تبادلا النظرات، ثم صرخت هبة:

- جدتي! هل حضرتك بالداخل؟

قال محمود غاضبًا:

- جدتي من؟ هذا بيت أشباح.

بدأ الخوف يجتاحها:

- حسنًا، من فتح الباب؟ إذن.. أكيـ...

- ادخلي يا هبة!

خرج صوت جدتها البارد من خلف الباب، فارتعش جسدها. نظرت إلى محمود، ثم دخلت تتحسس طريقها في الظلام. أمسك بيدها وكأنه يستمد

شجاعته منها. أضحكها الأمر قليلًا، ونظرت إليه مبتسمة فأدرك الموقف، وترك يدها. وما إن دخل المنزل حتى ظهرت جدتها أمامه مقطبة الجبين.

- جدتي، كيف حالك؟

حاولت احتضانها، ولكن جدتها أبعدت يدها وقالت مخاطبة محمود:

- اخرج!

- جدتي، هذا محمـ...

- اخرج من بيتي!

ترك محمود الحقيبة تسقط من يده:

- وما زلت تريدين العيش معها؟!

- محمود، من فضلك! جدتي، هو ليس له ذنب في...

هز محمود رأسه، ولم يبعد عينيه عن جدتها حتى غادر المنزل. راقبته هبة، ثم التفت مبتسمة لجدتها، فتجاهلتها وذهبت لإغلاق الباب بقوة خلفه.

- كيف تتحدثين معه هكذا؟

- وما ذنبه؟

- ذنبه! ألم يكن يعرف بما تفعله أخته؟

- عرف، ولكن...

- من غير ولكن. هذا الشيء لن يدخل منزلي ثانية، هل تفهمين؟

- حسنًا، حسنًا. المهم الآن؛ كيف حالك؟

- بخير.

قالتها ثم بدأت صعود الدرج.

وقفت هبة داخل البهو المظلم لا تعرف ماذا تفعل؛ هل تتبع جدتها؟ أم تظل هنا؟ تفحصت المنزل بعينيها. منزل قديم، أو بالأحرى فيلا قديمة، موضة الخمسينيات تفوح من كل شيء حولها. المنزل شاسع، الكثير من الغرف حولها. هناك صوت يأتي من إحدى الغرف، فتتبعته ظنًّا منها أن جدتها بالداخل، بالرغم من أنها صعدت أمامها توًّا. ولكن شيئًا ما يجذبها إلى

تلك الغرفة. اقتربت أكثر، وقبل أن تفتح الباب مر شيء بسرعة من جانبها جعلها تجفل، لتصرخ جدتها فيها:

- أنت غبية! لم تقفين هنا؟

لم تعرف هبة بماذا تجيب، لقد شعرت وكأنها مسلوبة الإرادة لدقائق.

- آسفة، أنا فقط...

- أنت ماذا؟ أنت هنا في بيتي تنفذين أوامري أنا فقط، هل تسمعين؟

تعجبت من طريقة تعامل جدتها الغاضبة معها. لو أنها تملك مكانًا آخر تذهب إليه لما مكثت ثانية واحدة هنا، خاصة بعد تلك الطريقة الجافة.

ابتلعت الإهانة:

- حسنًا، أنا آسفة. ماذا أفعل؟

تراخى وجه جدتها واختفت تعابير الغضب وهي تحكم الشال حول كتفها:

- أحضري حقيبتك وتعالي خلفي!

أمسكت بحقيبتها الثقيلة وبدأت بجرها لتصعد درجات السلم وهي تتساءل: لم المنزل مظلم هكذا؟ الساعة تخطت التاسعة صباحًا، والشمس تنير كل شيء بالخارج.

أغلقت جدتها باب الغرفة خلفهما بالمزلاج، ثم توجهت إلى النافذة وفتحتها، لينير ضوء الشمس كل شيء. تعجبت هبة من فعلتها تلك، ولكنها تناستها سريعًا، خاصة أنها تتفحص الغرفة الملكية التي دخلتها توًّا.

بدت الغرفة وكأنها للملك فاروق؛ فراش ذو أعمدة نحاسية مزين بستائر بيضاء من التل، والأثاث مذهب ومنحوت بأشكال زخرفية.

وقفت تتأمل الغرفة عندما أيقظتها جدتها قائلة بحنان:

- هبة، اجلسي، علينا التحدث في بعض المواضيع المهمة.

أسرعت لتجلس على الفراش وهي تتحسس الشراشف الحريرية بيدها.

- هبة، أنا آسفة حقًّا لما حدث لك.

انتبهت فجأة وقد تذكرت كل ما حدث لها، فعاد شعور الضيق والحزن يخنقها:

- قضاء وقدر.

- لا يوجد شيء كهذا.

انتفضت هبة لكلماتها، فأسرعت مصححة كلامها:

- أقصد لا تتركيهم يخبرونك أن كل شيء قضاء وقدر؛ نحن لنا حرية الاختيار.

هزت هبة رأسها في استسلام، فكل تلك الأفكار قد مرت برأسها حتى لم يعد يتحمل عبور أي فكرة أخرى.

ساد الصمت للحظات، حتى قالت جدتها بطريقة غريبة:

- يمكنني أذيتها؛ هذه البنت، يمكنني جعل الكلب يتقزز من رؤيتها، وأستطيع أذيته هو أيضًا.

قالت هبة مسرعة:

- جدتي! لا أريد شيئًا من هذا، أريد إراحة أعصابي. لو أردت الأذية لهما لكنت فعلتها منذ وقت، أنا فقط...

- يمكنني أن آتي به راكعًا تحت قدمك.

- وبأي شيء سيفيد هذا؟ هو خانني على أي حال. مسألة رجوعه تحدثنا فيها قبل ذلك، وأنا رفضت.

ضيقت جدتها عينيها:

- أحسنت! الرجل الخائن سيظل طوال عمره خائنًا.

- لكن أحمد لم يكن خائنًا، أعني أنه... الله أعلم.

أحكمت جدتها الشال حول جسدها:

- حسنًا، أنت مثل أبيك، رحمة الله عليه.

- مثله! كيف؟

توقعت سماع المزيد عنه؛ فمنذ أن نضجت وهي تحاول معرفة معلومات عن أبيها، ولكن إجابات أمها المقتضبة أماتت كل الأسئلة بداخلها.

- حسنًا، دعينا نتحدث في الأمور المهمة؛ أول شيء: عديني برحمة أبيك ألا يدخل هذا الولد الذي جاء معك بيتي ثانية.

- محمود! ما ذنبه فيما فعلته أخته؟

قالت جدتها صارخة:

- لا تناقشيني! ولا أهتم بمن هو، هذا الولد لن يخطو داخل المنزل ثانية.

فوجئت هبة قليلًا من ارتفاع صوت جدتها، وحثت نفسها لتعتاد تقلباتها المزاجية.

- حسنًا، لن يدخله.

تراخت جدتها في جلستها قليلًا:

- الآن هناك بضعة أشياء عليك معرفتها لو أردت المكوث معي.

نظرت إلى جدتها ولم تعلق، بل عادت تتأمل أرضية الغرفة.

- أولًا: هذه الحجرة ملكك؛ افعلي فيها ما تشائين، أما باقي البيت فملكي أنا، وأقوم فيه بما أريده. هل تسمعينني؟

- طبعًا.

- توجد بضع خادمات مع الجنائني، وبعض العمال يدخلون البيت في الصباح للقيام بأعمالهم، هؤلاء يعملون لدي أنا فقط، بمعنى: لو أردت شيئًا افعليه بنفسك. هل تسمعينني؟

هزت رأسها في صمت، وتعجبت من أمر جدتها، ولكنها أضعف من الاعتراض أو حتى التساؤل.

- الإفطار في التاسعة، والغداء في الرابعة، والعشاء في الثامنة، وبعد ذلك ممنوع منعًا باتًا التجول في المنزل؛ أنا ضغطي مرتفع، وأي حركة تصدر صوتًا مزعجًا.

- وهل أنام في الثامنة؟

- تنامين في الثامنة، تنامين في الواحدة، تلك ليست مشكلتي. أهم شيء ألا تتحركي من حجرتك بعد التاسعة. هل تسمعينني؟

تنفست جدتها وكأنها تهدئ من نفسها، ثم أكملت:

- ولو أقمت صلاتك يفضل أن تصلي هنا، في حجرتك، هل تسمعينني؟

حاولت هبة التكلم، ولكن جدتها سارعت في التوجه إلى باب الغرفة، ثم التفت وكأنها تذكرت شيئًا أخيرًا:

- وهاتفك، أتمنى ألا يخرج من هنا؛ أنا لا أحب الأصوات المرتفعة. آه... وكما قلت من قبل: «هذا الولد لا يدخل بيتي أبدًا!» هل تسمعينني؟

ألقت تلك الكلمات ثم رحلت مسرعة. راقبتها هبة وقد قررت العودة لمنزلها؛ أزمتها مع أحمد وهنا تبدو طفيفة مقارنة بجدتها. نعم، يمكنها تحمل صوت الزفاف. اللعنة! بل سترقص في زفافهما إن استلزم الأمر. رن هاتفها فأخرجها من أفكارها.

- محمود!

قالتها متعجبة، لقد تركها منذ دقائق. وضعت الهاتف على أذنها وتذكرت تعليمات جدتها:

- محمود، خيرًا؟

- متى سنرحل؟

- نرحل؟

- نعم، ما زلت أنتظرك بجانب المنزل؛ توقعت ألا تكملي خمس دقائق في هذا المكان.

تعجبت كثيرًا؛ فمحمود شخص أناني لا يهتم بأحد غير نفسه، ولا يفهم إلا لغته الخاصة. الآن عرف ما تفكر به؟ بل ينتظرها في الخارج أيضًا!

- ولكن، أنا لن أعود.

- هل أنت متأكدة؟ أنا واثق أنك تودين العودة معي للمنزل.

- لا، لا يمكنني العودة.

قال محمود بثقة غريبة:

- توقفي عن هذا الجنون ودعينا نغادر!

- هذا هو مكاني يا محمود، أتمنى لو تحترم هذا.

- هل أنت جادة؟

- نعم، أنا جادة. ما حدث لم يكن هينًا، وأحتاج إلى المكوث بمفردي لبعض الوقت. وداعًا.

ألقت الهاتف على الفراش. لم تمر ثانية حتى اتصل ثانية، تلك المرة لم تجب، بل أغلقته وتمددت على الفراش تفكر في تعليمات جدتها المريبة. كل شيء يمكن تفسيره بأنها تعاني صداعًا مزمنًا، ولكن لم عليها الصلاة بغرفتها؟ فكرت في عرض محمود، ولكنها طردت الفكرة من رأسها وقامت لتفرغ حقيبتها، وكأنها بذلك تجبر نفسها على البقاء.

مرت الساعات وهي تنتظر. الملل يخنقها؛ إنها ليست معتادة الجلوس هكذا دون حراك، لذلك قررت الخروج من الغرفة. إنها الواحدة ظهرًا؛ ما زال الوقت مبكرًا.

فتحت الباب وتأملت الممر أمامها.. مظلم حتى في وضح النهار. شعرت بالخوف، وفكرت في العودة، ولكنها تشجعت وخرجت محاولة الاستكشاف. مرت على أرضية الممر فخرج صوت صرير من تحت قدمها. جدتها لم تكذب؛ المنزل بالفعل يصدر صوتًا مزعجًا. سارت بخفة معتقدة أنها ستتجنب الأصوات، ولكنها مخطئة. وصلت أخيرًا الدرج، فألقت نظرة على الممر وتساءلت: أيهما غرفة جدتها؟ ثم نزلت وهي تتحسس طريقها. المكان مظلم باستثناء ضوء ضعيف يدخل من إحدى النوافذ التي لم تغلق جيدًا. بضع درجات ثم وصلت إلى الصالة الواسعة أمام باب المنزل؛ الكثير من الغرف. تمشت قليلًا وهي تتفحص غرفة تلو الأخرى، حتى وصلت إلى تلك الغرفة بجانب الباب. تطلعت إليها من الخارج، فسرت قشعريرة باردة في أوصالها. تعجبت من حجم المنزل؛ فهو يبدو صغيرًا من الخارج. همت بدخولها، ولكن شيئًا ما أوقفها. لم تكن من نوع النساء الذي يخاف من الظلام، ولكنها ترددت بشأن الدخول. تراجعت قليلًا وهي تشعر بعدم الأمان لإعطاء ظهرها للظلام، وتحركت نحو ضوء المطبخ؛ الشيء الوحيد المضيء بالمنزل. مطبخ واسع قديم، يبدو من أواخر العصر الملكي بالزخارف الذهبية التي تملأ كل الأواني. بضع لوحات من الحرير لما يبدو روميو وجولييت، وأوعية زجاجية محفوظة بها أشياء مبهمة الملامح.

أحبت المطبخ، خاصة أنه المكان الوحيد الذي تدخله أشعة الشمس. فتشت أدراج المطبخ وكأنها تبحث عن شيء ما، ولكن كل ما وجدته الأواني الفضية المذهبة، والتي تبدو باهظة الثمن. توجهت إلى النافذة وألقت نظرة على الخارج، ولكنها تجمدت. جدتها تقف بالخارج تنظر إليها بشرود. همت بالاقتراب منها، ولكن امرأة ما سبقتها وبدأت في الهمس بجانب أذنها. اختبأت هبة خلف إفريز النافذة وهي تراقب تلك المرأة، التي تبدو وكأنها خادمة بسبب فستانها الأسود القصير، والمريلة البيضاء فوقه. قالت لها شيئًا فغضبت جدتها، وتوجهت نحوها مباشرة. تراجعت هبة، ليتحرك باب لم تلاحظ وجوده من قبل، لتدخل جدتها وقد تعجبت هي أيضًا من وجودها.

- ماذا تفعلين هنا؟

- لا شيء، شعرت بالعطش.

- حسنًا، اشربي وارجعي إلى حجرتك.

- لماذا؟

قالتها بتحدٍّ. ربما لم تعارض جدتها في البداية لأنها كانت منهكة القوى، أما الآن فهي مستعدة للمعركة.

تطلعت إليها جدتها غاضبة:

- حسنًا، ابقي في المطبخ.

- أريد رؤية المنزل.

توقفت جدتها وقد تملكها الغضب أكثر، ثم تنفست لتهدأ:

- حسنًا، ولكن خذي فوزية معك.

ثم أشارت إلى المرأة لتتبعها.

أسرعت فوزية تمشي خلفها. لم تفتها يد جدتها المرتعشة وهي تحاول إشعال لفافة تبغ. لم هي متوترة هكذا؟ ربما هي مريضة.

هبة: «من أين سنبدأ؟»

لم تعلق الخادمة، ولكنها بدأت بدخول الغرف واحدة تلو الأخرى. تنير المصابيح، ثم تخرج وتنتظرها بالخارج. تكرر المشهد أكثر من مرة، حتى

وصلت إلى الغرفة المخيفة. ترددت فوزية للحظات، ولم تدخلها إلا بعد إضاءة المصباح أولًا.

تفحصتها هبة بعينيها دون الدخول إليها، لم تكن غرفة، ولكنها قاعة شاسعة؛ بها بيانو ضخم في أحد أطرافها، والكثير من المقاعد الوثيرة، وعلى بعد خطوات هناك مسرح صغير تقبع فوقه بعض الآلات الموسيقية، وعصا ميكروفون تتوسط المكان.

- ماذا تفعلون هنا؟

لم تتلقَّ إجابة، واستمرت الخادمة في التحرك من غرفة لأخرى، وهبة خلفها تتعجب من حجم المنزل. لم تستطع منع نفسها من التساؤل حول تلك الغرف الغريبة، ولم تبدو قديمة هكذا؟

انتقلت الخادمة إلى الدور الثاني، متوجهة مباشرة إلى الغرفة الثالثة بعد الدرج. تطلعت هبة إلى الغرفتين السابقتين:

- وتلك؟ أريد رؤيتهما.

نظرت إليها الخادمة:

- الهانم وحدها من تملك مفاتيحهما، يمكنك الرجوع لها.

استمرت في معالجة قفل الغرفة؛ غرفة صغيرة، بها مكتب صغير وفراش، ومكتبة معلقة على الحائط بها الكثير من الكتب. لم تكن فخمة كباقي غرف المنزل، ولكن لسبب ما أحبتها. همت الخادمة بإغلاق الباب، ولكنها أمسكت بيدها لتمنعها، فوجدتها باردة كالثلج. أبعدت الخادمة يدها بسرعة، وارتعش جسد هبة.

- بعد إذنك؛ أنا مشغولة بالكثير من العمل.

رحلت مسرعة وهي تشد كم فستانها وكأنها تنظف يدها. تأملت هبة يدها وسبتها في سرها، وتوجهت إلى غرفتها. أمسكت بهاتفها وقامت بفتحه. لم تمر ثوان حتى تلقت اتصالًا آخر من محمود. سبته هو الآخر وهي تضع الهاتف على أذنها:

- ماذا تريد؟

- ماذا أريد؟ يا له من أسلوب!

- ستتحدث؟ أم أغلق الهاتف؟

- أنت مجنونة؟ علي الطلاق ثلاثًا أنت مجنونة.

حاولت هبة تهدئة نفسها، وقالت بصوت منخفض:

- محمود، أنا مشغولة حاليًا. هلا تقول ماذا تريد!

- حقًّا؟ أنت ستصيبينني بالجنون. أنت مصابة بالفصام، أليس كذلك؟ قابلتني منذ دقيقة، وملابسك، وحديثك لي!

- أنا قابلتك؟ أنت مجنون؟ تركتك منذ التاسعة صباحًا.

- ولكن أنا عدت ثانية.

- عدت؟ إلى أين؟

- البيت. بعد ساعة كنت أدور بالسيارة في الشوارع المحيطة بالمنزل، وأنت أغلقت هاتفك. لذلك عدت إلى المنزل ورننت الجرس، ففتح الباب ولم يجبني أحد. دخلت وأنا أنادي اسمك، لأجدك عند الدرج تقفين.. و...

- وماذا؟

ضحك محمود:

- لا، أبدًا. لم أعرف أن جسدك جميل هكذا. أنت مثيرة.

نظرت هبة إلى الهاتف كي تتأكد من رقم المتصل، ثم قالت بهدوء:

- محمود! عيب عليك ما تقوله. هل جننت؟ أم إنك دخنت شيئًا ما؟ أغلق الهاتف بدلًا من أن أسبك وأتصل بخالي ليعنفك هو الآخر.

- مجنونة، ولكن مثيرة.

- أنت حيوان وسافل.

صوت ضحكاته تتعالى:

- حسنًا، حسنًا، لن أقول إنك مثيرة ثانية. ولكنك تغيرت سريعًا.

- محمود، أنا لا أعرف عن ماذا تتحدث، ولا أريد أن أعرف.

- حقًّا؟ والقبلة؟

تسارعت ضربات قلبها:

- قبلة ماذا؟ هل أنت منتشٍ أم ماذا؟

- ألم أقل؟ أنت مجنونة. عندما رأيتني داخل المنزل خفت، ودفعتني للخارج وقلت: «لو أنك تحبني لا تأتِ إلى هنا ثانية». ثم بعد ذلك عانقتني وقبلتني بقوة.

- حسنًا، تأكد من أن الغطاء يصل إلى نصفك السفلي وأنت نائم.

أغلقت الهاتف سريعًا وهي تسبه، ثم عادت وفصلته. لا تتحمل مزاجه الرائق وغباءه. ولكن هذا لم يمنعها من التساؤل عما حدث حقًّا. هل هو مجنون؟ أم تحت تأثير مخدر ما؟

أغلقت عينيها لتنام قليلًا، ثم سمعت صوت خطوات بالخارج. طرق بسيط على بابها. اعتدلت سريعًا:

- ادخل!

أطلت جدتها برأسها مبتسمة:

- هل أعجبك البيت؟

- جميل، وضخم. هل عاش أبي هنا؟

اختفت ابتسامة جدتها وقالت بحدة:

- عندما كان صغيرًا، ثم بعثته إلى الإسكندرية عند عمه؛ ليدرس ويعمل.

- لماذا؟

- من غير لماذا؟ بدأ يكبر؛ ولا بد من رجل ليراعيه. لم كلما تحدثت معك عصبتني؟

- أنا من يعصبك؟ أنت متعصبة طوال الوقت.

- «أنت»؟!

قالتها جدتها وحاجباها مرفوعان.

- آسفة، أقصد، حضرتك.. حضرتك دائمًا متضايقة ومتعصبة، وكلما سألتك عن شيء تعصبت أكثر.

- لأنك لا تعرفين متى تسألين، وكأنك جاموسة تنطح فقط.

نظرت هبة إلى جدتها، وتذكرت بعضًا من كلام أحمد لها، أو بالأحرى قائمة المواصفات السيئة التي كتبها ليعدد أسباب انفصالهما.

لاحظت جدتها تغير ملامحها:

- أأحزنتك؟

- لا، أبدًا، ولكنك محقة؛ أحيانًا أكون مثل الجاموسة، لست أول شخص يقولها لي.

- من؟ من قال لك ذلك؟

- أحمد.

- إنه حيوان خائن، لا تهتمي به.

ابتسمت هبة وأراحت ظهرها على الفراش. ودت لو طلبت من جدتها المغادرة لتبكي، ولكنها خجلت من أن تفعل ذلك.

- إنه الخاسر...

- ماذا؟

- الولد الذي تركك، هو الخاسر، أنت تقدرين بالذهب.

ابتسمت هبة:

- شكرًا.

- لم تقولينها هكذا؟ أنت بالفعل تقدرين بالذهب.

- حسنًا.

- لم أنت مستسلمة هكذا؟ أنت حتى لا تسبينه!

- وما الذي سيفيد؟ لقد انتهى كل شيء.

- ما الذي انتهى؟ النهاية دائمًا ما تكون بداية لشيء آخر، أنت فقط لا ترين هذا الآن.

- سيمر كل شيء.

- أهم شيء ألا تسمحي له بالمرور فوق روحك. هيا بنا نأكل، فوزية تصنع طعامًا رائعًا سيعجبك.

- فوزية! من تقززت عندما لمستها؟

توقفت جدتها عن التحرك، وقالت مقطبة الجبين:

- ولم لمستها؟

- شيء عادي، تلامست أيدينا.

قالت جدتها ضاحكة:

- لا تهتمي بها؛ إنها شخصية خجولة بعض الشيء. هيا بنا لنأكل.

تعجبت من طريقة جدتها؛ تارة باردة وحادة في كلامها، وتارة دافئة ومبتسمة، تتغير في لحظات دون مقدمات كطقس نوفمبر.

جلست جدتها في المطبخ تتحدث عن مدى مهارة فوزية في الطبخ، ومن أين أحضرتها، وأين عملت قبل هنا. استوقفتها بعض الجمل الغريبة، مثل: «قصر الأميرة»، و«طعامها أعجب الملك»، و«كانت في جروبي». جمل غريبة بعض الشيء، ولكنها أكملت غداءها، ثم استأذنت بأدب وغادرت. تحتاج إلى النوم. نعم، ستنام لساعتين أو أكثر، ثم تستيقظ لتواجه جدتها بالأسئلة، لتنكرها الأخيرة.

صعدت الدرج متثاقلة حتى وصلت غرفتها. الممر مظلم كالعادة. فتحت باب الغرفة فأضاء الممر قليلًا، عندها تحرك شيء من خلفها بسرعة جعلها تجفل. استدارت سريعًا وقلبها يوشك على القفز من صدرها. الضوء من غرفتها يضيء جزءًا بسيطًا من الممر، أما بدايته ونهايته فمظلمتان كالليل.

- من هناك؟

فكرت كم هي سخيفة جملتها تلك. بضع لحظات ثم تحرك شيء في الظلام، فصرخت. الشيء لم يكن آدميًا؛ لا في طريقة تحركه ولا في سرعته الغريبة.

أسرعت جدتها إليها ومعها فوزية الخادمة.

- ماذا حدث؟ ولم تصرخين؟

- يوجد شيء ما يتحرك هناك.

قالتها هبة وهي تشير إلى نهاية الممر.

تراخت جدتها:

- حسنًا، ربما يكون العم زغلول.

- زغلول من؟ لقد تحرك بطريقة غريبة!

اعتدلت الخادمة وذهبت لإضاءة المصابيح واحدًا تلو الآخر، حتى أضاءت الممر، ثم ذهبت لتتفحص شيئًا ما. حدقت هبة إلى الممر وهي ما تزال ممسكة بباب غرفتها.

- كل تلك المصابيح، لم تتركون المكان في الظلام الأسود؟

- أصاب بالصداع من النور.

- والله!

- احترمي نفسك يا بنت!

تنفست هبة لتهدئ من نفسها:

- آسفة، ولكن هذا الشيء تحرك بطريقة غريبة وكأنه ليس آدميًّا.

- عفريت مثلًا؟ أنت فقط متعبة، ادخلي لتنامي قليلًا.

تفحصت الممر للمرة الأخيرة:

- حسنًا، لا يطفئن أحد المصابيح، من فضلك!

ربتت جدتها على كتفها بحنان:

- اذهبي لتنامي الآن.

دخلت غرفتها ووضعت رأسها على الوسادة وهي تقاوم تعبًا شديدًا أصابها فجأة، لتسقط في النوم. ولكن خيل إليها سماع جدتها تتحدث مع رجل ما.

***

فتح باب غرفتها ببطء شديد، وأطلت رأس جدتها تتفحصها، ثم أغلقت الباب.

- نائمة، أخيرًا.

قالت فوزية وهي تطفئ المصابيح:

- جيد.

- اتركي القريب من غرفتها مُضاءً.

- تلك الفتاة ستسبب لنا المشكلات.

- تلك الفتاة هي حفيدتي؛ اعرفي حدودك!

- آسفة يا سوسن هانم، لم أقصد. لكن منذ أن خطت قدمها والبيت ليس على ما يرام.

- تخاريف، بيت من الذي ليس على ما يرام؟ هذا فقط لأننا في ذروة الموسم.

تنفست فوزية وبدت وكأنها اقتنعت بوجهة نظرها، ثم ابتعدت لتكمل أعمال المنزل، فأسرعت سوسن:

- البيه الصغير، ألم يظهر بعد؟

- لم أره حتى الآن؟

هزت سوسن رأسها وأشارت إلى فوزية لترحل، ثم قالت هامسة:

- بالتأكيد لن يظهر اليوم. يا رب لتمر هذه الأيام على خير.

ثم فتحت الباب لتطمئن على هبة ثانية.

****

ممر مظلم تقف فيه وحيدة، تشعر بالبرد والجوع. مشاعر غريبة اجتاحتها، مع سماعها لأصوات مريبة يقشعر لها جسدها. رياح قوية تعصف بها، وهي تتعجب من قميص النوم الخليع الذي ترتديه. حاولت تغطية جسدها، ولكن دون فائدة. من بعيد سمعت أصوات حوافر لحيوان ضخم يقترب، فحاولت الهرب. الأصوات تتعالى، وهي تهرول مبتعدة. ثم جاءت السقطة لتوقظها من نومها العميق.

استغرق الأمر بضع دقائق كي تتذكر أين هي، وما تلك الغرفة الغريبة التي تنام بها. تنفست، ثم تذكرت كل شيء. مسحت العرق عن جبينها، وتعجبت من ملابسها المبتلة. بحثت عن هاتفها وتذكرت أنها أغلقته. مرت ثوان، ثم عرفت أنها السادسة والنصف.

- حسنًا، نمت لثلاث ساعات.

قالتها وهي تغير ملابسها. وقفت أمام المرآة تمشط شعرها الأسود القصير، ثم فجأة تذكرت الحلم. ما زالت تشعر بالخجل من ملابسها، وإحساس أنها أذنبت يخنقها. تساءلت عن سبب كل تلك المشاعر، ثم تذكرت محمود، الأحمق. جلست على طرف الفراش تسترجع المكالمة؛ لقد قال إنه عاد إلى المنزل ليقنعها بالرجوع معه، ثم وجدها ترتدي فستانًا قصيرًا، وقامت بتقبيله. وقفت مسرعة لتطرد تلك الفكرة من رأسها. تقبل محمود؟ كلا، إنه لا يروق لها حتى. إنها لم تكرهه يومًا، ولكن هي أيضًا لم تحترمه؛ مدلل، على عكسها، لا يحب تحمل مسؤولية شيء، ولا يحترم أي شيء، يطارد الفتيات ويدخن السجائر في الخفاء منذ كان صغيرًا، لم يكن يومًا طموحًا أو لديه أي نوع من الأهداف يسعى لتحقيقها. انتهى به الأمر في معهد خاص، ثم خرج ليقف في محل الذهب الخاص بأبيه. لا يمكنها التفكير في حياة أسوأ من تلك؛ أن يعيش الإنسان ويموت دون هدف، دون خطة. تذكرت نفسها وحياتها؛ هي حظيت بهدف وخطة، ولكن أخذ منها كل شيء. إذن في النهاية المحصلة واحدة، في النهاية هي لا تختلف كثيرًا عنه.

عادت لتتأمل نفسها في المرآة. «تي شيرت» أسود على بنطال من الجينز الأزرق، وشعرها الأسود القصير. حسنًا، لو رآها أحد من الخلف لظن أنها فتى صغير الحجم. ابتسمت ابتسامة باهتة وتذكرت هنا؛ بجسدها الملفوف، وشعرها الأصفر الطويل، ووجهها الملطخ بالألوان. اشتعل الغضب بداخل صدرها. حاولت التنفس، ولكنها انهارت باكية. لعبت دور القوية لوقت طويل، ولكنها لن تكمله الآن. ربما هذا هو السبب الأساسي لرحيلها؛ الوقوع باكية كلما أرادت دون مراقبة أمها. نعم، ستصرخ، وتسب، وتلعن بصوت مرتفع هنا، ولن يهتم أحد بها.

استغرق الأمر بعض الوقت حتى هدأت تمامًا وقررت النزول لترى جدتها. فتحت شباك الشرفة، ثم طالعت السماء. لم الشمس قوية إلى هذا الحد؟ إنها السابعة مساءً، وليـ...

تحركت في الغرفة لتمسك بهاتفها، ثم قطبت جبينها وهي ترى الساعة. لقد أخطأت؛ إنها السابعة صباحًا، وليست مساءً.

- هل يعقل؟ نمت كل هذا الوقت؟

ذهبت إلى الشرفة ثانية وتطلعت إلى السماء. كيف نامت من الثالثة عصرًا حتى السادسة اليوم التالي؟ أصدرت معدتها بعض الأصوات، فعرفت أن موعد ملء الخزان قد حان.

غادرت غرفتها، ولكنها توقفت في منتصف الدرج لتحملق إلى الممر المظلم، وتذكرت أمس. ارتعش جسدها، فأسرعت بالنزول. عليها تعود الظلام في هذا المنزل. اتجهت مباشرة إلى المطبخ، وفتحت الثلاجة قديمة الطراز متعجبة من أن جدتها تملك واحدة من هذا النوع، ثم بدأت في صنع الطعام لنفسها. انتهت وجلست تأكل، عندما لاحظته واقفًا يتأملها مستندًا إلى إفريز الباب. نظرت حولها، ثم عادت لتنظر إليه وهي تفتح فمها. ابتسم قائلًا بعربية ضعيفة:

- صباح شريف!

تركت هبة الطعام يسقط في الصحن:

- من حضرتك؟

اقترب الشاب الأسمر منها:

- فاخير.

أشار إلى صدره وكرر:

- أنا فاخير.

- ألست مصريًّا؟

ابتسم الشاب بركن فمه وهز رأسه بالنفي.

- ولكنك تفهم العربية.

- القليل.

ابتسمت هبة من طريقة كلامه، وأشارت إلى نفسها:

- هبة.

اقترب فاخير أكثر، وجلس على المقعد أمامها:

- فاخير.. هبة.

أشارت إلى الطعام:

- هل أنت جائع؟ أتحب أن تأكل؟

اختفت ابتسامته، لتمتلئ عيناه بالحزن، ثم هز رأسه بالنفي.

تطلعت إليه وهو ينظر إليها وكأنه يشاهد فقرة الساحر في السيرك:

- ما هي جنسيتك؟

- «إنديا».

- الهند، أنت من الهند؟ هذا غريب. ماذا تفعل هنا؟

هم فاخير بقول شيء ما، ولكن صوت صراخ من خلفه جعله ينتفض.

فوزية: «فاخير بيه! ماذا تفعل هنا؟»

ظهرت ملامح الخوف عليه:

- أحب أن أمشي.

- من فضلك، عد إلى جناحك؛ سوسن هانم ستغضب منك، هيا إلى غرفتك!

قالت هبة مسرعة:

- لا يصح أن تتحدثي معه هكذا.

لم تلتفت فوزية إليها، ولكنها وقفت أمامه ليخرج من المطبخ. ابتسم فاخير وهز رأسه لهبة، ثم أسرع في الخروج.

- أنت معدومة الذوق.

لم تعلق فوزية، ولكنها تحركت في المطبخ لتعيد ترتيبه.

- أنا أتحدث إليك.

- آنسة هبة، تلك أوامر سوسن هانم. إن لم تعجبك فتحدثي معها.

- سأتحدث معها، ولكنك حقًّا قليلة الذوق.

أسرعت في الخروج من المطبخ، ولكنها ألقت نظرة أخيرة على فوزية فوجدتها تبتسم في غرور:

- سوسن هانم لا تستيقظ قبل الواحدة ظهرًا.

أرادت العودة لتمزق وجهها، ولكنها تماسكت وصعدت إلى غرفتها. لم يخبرها أحد أن المنزل به ضيوف من الهند. الشاب مهذب ووسيم، ملابسه منمقة، ورائحة عطره ملأت المكان حتى بعد رحيله، ومسحة الحزن زادت من وسامته. من هو؟ وماذا يفعل؟ ولم أخبرتها جدتها أن وجبة الإفطار تقدم في التاسعة إن كانت تستيقظ في منتصف اليوم؟

وقفت تتفقد الممر المظلم، ثم هرولت إلى غرفتها كي لا يأكلها الوحش. تفحصت هاتفها فوجدت الكثير من الرسائل الغريبة من محمود، والتي تحمل كلمات مثل: «سنفتح صفحة جديدة»، و «لو أردت أن نكون أصدقاء من هذا النوع»، و «أنا أيضًا أردت ذلك».

حذفت التطبيق بأكمله، ثم قامت بحذف باقي التطبيقات؛ ستعيش دون وسائل تواصل اجتماعي. لتنفرد بنفسها لبعض الوقت، فهي تحتاج إلى ترتيب أولوياتها بعد أحمد. عادت وتذكرت محمود، فابتسمت وتساءلت عن نوع الحشيش الذي يتناوله، بالتأكيد نوعية جيدة. تذكرت ليلة أمس، وكيف نامت كل هذا الوقت. شيء غريب حقًا؛ إنها من الأشخاص الذين ينامون أربع أو خمس ساعات في اليوم، ليس أكثر من نصف يوم كامل.

نظرت إلى الساعة، لقد قاربت الواحدة. ارتدت ملابسها ثم خرجت من غرفتها تبحث عن جدتها، فوجدتها في الحديقة تجلس واضعة نظارة الشمس على وجهها وتشرب من فنجان القهوة.

- صباح الخير.

- ششش! لا تصدري صوتًا، تحدثي دون صوت.

قالتها جدتها بصوت أقرب إلى الفحيح، وكأن أحبال صوتها قد نزعت. دعك من جملة التكلم دون صوت، التي أوقفت هبة عن التحرك.

قالت هبة بصوت هادئ:

- هل أحضر لك مسكنًا؟

عدلت جدتها من نظارتها، وقالت وهي تمسك برأسها:

- كلا.

تفحصت الحديقة؛ فجدتها ليست مستعدة لأي حوار، وهي في غنى عن نوبة غضب أخرى منها، لذلك تأملت النباتات والأشجار الميتة. لقد شهدت تلك الحديقة أيامًا أفضل، كل شيء هنا قد ذبل ومات. ألقت نظرة أخرى على جدتها واستأذنت بهدوء. لم تفتها ابتسامة التشفي على ثغر فوزية. يمكنها العودة والتعارك معها، أو قول أي كلمة لتسترد كرامتها، ولكنها منهكة القوى؛ لذلك صعدت إلى غرفتها مباشرة.

جلست على فراشها متأملة سقف غرفتها. سمعت صوتًا بالخارج، فأسرعت تفتح باب غرفتها متوقعة رؤية جدتها، ولكنها وجدت الممر فارغًا. مرت لحظات، ولكن لا شيء. لذلك أسرعت وأشعلت المصابيح الصغيرة التي تزين حائط الممر واحدًا تلو الآخر. أضيء الممر بالكامل، وإن لم تُمحَ عنه الظلمة الكئيبة والمقلقة. لو أن للأماكن أرواحًا فروح الممر خبيثة ومظلمة.

عادت لتطفئ المصابيح حتى وصلت إلى غرفتها، وقبل أن تمس مقبض الباب استطاعت سماع صوت خطوات خلفها؛ بالتحديد صوت كعب عالٍ وكأن امرأة تسير في الممر بخطى ثابتة. التفت سريعًا وحدقت إلى الظلام وهي تنتظر ظهور شخص ما، ولكن لم يظهر أحد. سرت قشعريرة في جسدها، وبيد مرتعشة أضاءت أقرب مصباح لها.. لا شيء. هل تعود وتضيء المصابيح ثانية؟ أم تحبس نفسها داخل غرفتها؟ ولكن إلى متى؟ إنها الواحدة ظهرًا، وهي خائفة كطفلة صغيرة. قررت دخول غرفتها، فربما أحد ما يعبث معها، ولكن ما إن فتحت باب غرفتها حتى دفعها شيء ما من ساقيها وهرب مسرعًا وهو يضحك، فوقعت أرضًا وهي تصرخ.

بضع ثوانٍ والتف حولها كل من بالمنزل. أسرعت جدتها تطمئنها وتدخلها مع فوزية، التي لم يختلف حالها كثيرًا عنها؛ فملامح الفزع تملأ وجهها وهي تنظر حولها في تشكك.

- حسنًا، اهدئي، اهدئي، لا يوجد شيء.

- أهدأ! كيف؟ هناك شيء ما دفعني.

تبادلت جدتها والخادمة النظرات المتشككة، ثم قالت مبتسمة:

- إنه حفيد العم زغلول، الجنائني. لا تقلقي؛ إنه يلعب.

قالت هبة صارخة:

- حقًا؟ حفيده؟ وهل سأصدقك؟ هذا البيت به شيء مريب. ومن هؤلاء الذين أسمع خطواتهم في الممر وإذا فتحت الباب لا أجدهم؟ ما الشيء المفزع الذي رأيته أمس وأرعبك أنت وخادمتك؟ من الشاب الذي رأيته صباحًا؟ ومنذ متى وهو يمكث في البيت؟

توقفت هبة عن الحديث وكأنها تبحث عن شيء ما غريب حدث وقد نسيت ذكره. صدرها يعلو ويهبط من فرط الانفعال، وجدتها هادئة كبركان خمدت نيرانه.

أحكمت سوسن الشال حول جسدها:

- أنت منفعلة الآن، هل نلت قسطًا من النوم؟

- آه.. نعم، نسيت أن أذكر لك أني نمت أكثر من نصف يوم.

- حسنًا هذا شيء جيد، لتريحي أعصابك.

- أعصابي ليست متعبة، كما إني مريضة أرق، ولكن هنا؛ في مكان غريب، أنام من أول ليلة، وكل هذا الوقت!

وقفت جدتها فجأة وكأنها تعرضت لإهانة:

- ماذا تقصدين بكلامك هذا؟

قالت هبة صارخة:

- لا أعرف، ولكني واثقة من وجود شيء غريب هنا؛ أنت وتلك الخادمة تحاولان إخفاءه عني.

نظرت سوسن إلى خادمتها وأشارت إليها كي تخرج، ثم قالت بهدوء:

- ولماذا سنخفي عنك شيئًا ما؟ ربما أعصابك متعبة بسبب موضوع انفصالك، ربما استغرقت في النوم أمس لأنك متعبة بسبب أرقك في الأيام الماضية. ربما تلك الأصوات التي تسمعينها فوق رأسك، وليست من الممر؛ لأن في الدور العلوي توجد غرف الخادمات. أو ربما بداخلك إحباط وخوف وغضب، وتسقطينهم علي أنا وفوزية لأنك لم تستطيعي مواجهة البنت التي سرقت خطيبك منك. أو ربما أنت تحتاجين إلى الراحة في غرفتك بدلًا من التجول في المنزل لتتنصتي على الجميع.

اقتربت سوسن منها لتضع يدها على كتفها:

- ستأكلين هنا بمفردك. حاولي العودة إلى النوم؛ النوم علاج لمن في حالتك.

رمت جدتها تلك الكلمات ثم غادرت. لم تعرف هبة ماذا تقول، لطالما اعتبرت نفسها سريعة البديهة، لاذعة اللسان، ولكن مع جدتها لا تستطيع قول شيء. غير إن الكلمات القاسية التي وجهتها إليها جعلت دموعها تنساب. هل جدتها محقة؟ ربما هي مخطئة بالفعل، ربما لا تسمع أصواتًا أو ترى أشياء غريبة، ربما كل هذا بسبب الضغوط التي تمر بها، ربما هي أسقطت كل مشاعر الكره على تلك الخادمة المسكينة؛ مشاعر الغضب التي لم تستطع إخراجها على أمها وخالها، تخرجها الآن بطريقة ملتوية على جدتها، وتتهمها بأشياء غريبة. ولكن ألم تستطع أن تكون أكثر لطفًا؟ أكثر تفهمًا؟ أو ربما تستخدم كلمات أقل إيلامًا؟ ولكن تلك طبيعتها. لتتحمل كلماتها؛ ففي النهاية هي تعيش في منزلها. تكورت على الفراش كالجنين ووجهها في الوسادة، ثم بدأت في النحيب.

في الخارج وقفت سوسن تبكي هي الأخرى دون صوت. مسحت دموعها، وبخطوات متثاقلة بدأت في نزول الدرج، فأسرعت إليها فوزية تمسك بيدها وتوصلها إلى المطبخ.

- آسف يا هانم، تلك الغلطة لن تتكرر ثانية.

التفت سوسن لترى قائل العبارة، فوجدت العم زغلول الجنائني. رجل عجوز في الثمانين من عمره، يتحرك بصعوبة، ولا يرى أمامه، ورغم ذلك مصر على الاستيقاظ المبكر كل يوم.

- لا بأس يا عم زغلول، لكن تأكد من عدم خروجه ثانية.

هز العم زغلول رأسه، ثم عاد ليباشر عمله.

- ابنه لم يظهر في البيت منذ متى؟ ثلاثين؟ أربعين عامًا؟ يبدو أنك كنت محقة؛ البيت به شيء غريب.

وضعت فوزية الطعام أمامها بيد مرتعشة.

- هل أكل القط لسانك؟

تركت ما تفعله لتجلس على أقرب مقعد:

- كنت قاسية معها يا هانم.

- وماذا كنت سأفعل؟ أخبريني. لو كنت مكاني فماذا كنت ستفعلين؟ لا يمكنها معرفة أي شيء عن البيت. هل تسمعينني؟ ولا حتى مجرد شك بسيط. يمكن بعد هذا الكلام الجارح أن ترحل وتريحنا منها.

- ولكن ما فهمته أنها لا تملك أي مكان تذهب إليه.

- بلى، لديها، ولكنها جبانة.

- لكن يا هانم.

قالت سوسن صارخة:

- دون لكن! هيا إلى عملك، هي حفيدتي أنا. هيا!

وقفت فوزية لتخفض رأسها احترامًا، ثم أسرعت خارجة من المطبخ. علمت سوسن أنها قاسية بعض الشيء؛ سواء على خادمتها المخلصة، أو حفيدتها، ولكن لا أحد يعرف كم المسؤولية التي تقع على كاهلها. عليها أن تكون حازمة، إنها تدير هذا المنزل منذ خمسين عامًا أو أكثر، ولا تريد مقابلة مشكلات لا تستطيع حلها وهي في سنها المتقدمة هذه.

- نهارك سعيد!

لم تحتج سوسن إلى رفع رأسها لرؤية القادم؛ إنها تعرف صوته.

- فاخير بيه، تفضل! هل تود تناول الطعام معي؟

ابتسم فاخير ابتسامته الحنونة وهز رأسه بالنفي، ثم جلس أمامها.

- أنت حزينة مني؟

قالها وهو يشير إلى صدره بطريقة مضحكة.

ابتسمت وقررت ألا تعنفه بقسوة:

- حاول ألا تتحدث معها ثانية، هل تفهمني؟

هز رأسه وهو يبتسم كطفل، ثم قال بالإنجليزية:

- She is beautiful.

ابتسمت سوسن وهي تأخذ لفافة تبغ:

- شكرًا لك. ولكن كما اتفقنا.

غادر المطبخ وهو ينحني في أدب. ابتسمت له وهي تفكر أنه بالتأكيد أكثر ضيوف المنزل قربًا لها، ولكنها لا تستطيع التخلص من شعور الشفقة عليه. شاب وسيم مثله هنا، والكثير من الشباب في الخارج يضيع حياته هباءً.

***

انتهت من تناول طعامها ونظرت بتأفف إلى رواية ملقاة على فراشها. لا تعرف سبب فتور رغبتها في القراءة، لذلك قررت فتح هاتفها. إنها ضعيفة الشخصية، ولا يمكنها الصمود دون حياة التواصل الاجتماعي، خاصة مع عزلتها تلك.

بضع دقائق مرت وكل شيء عاد. وجدت بضع رسائل مبهمة من محمود، ثم في النهاية اعتذر لها وتعهد بعدم إزعاجها. رن الهاتف وهو في يدها، فتسارعت نبضات قلبها وهي ترى المتصل..

- أحمد!

قالت اسمه هامسة. ما زال الهاتف يرن وهي تنظر إليه متسائلة عما يريده. هل تجيب أم لا؟ إن أجابت فربما سيعرف أنها ما زالت تشتاق له، وإن لم تجبه فسوف يأكلها الفضول.

وضعت الهاتف على أذنها...

- هبة، كيف حالك؟ حاولت الاتصال بك أمس.

أخذت هبة نفسًا عميقًا وحاولت التحدث، ولكن صوتها لم يخرج.

- هبة، هبة! أأنت هنا؟

أسرعت هبة:

- نعم، أنا هنا. هل كل شيء بخير؟

- نعم، أردت أن أطمئن عليك.. أنا كـــ...

- ألم نتفق على عدم التحدث؟

- نعم، لا أقصد مضايقتك.. ولـــ...

- لا تقصد مضايقتي؟ حسنًا أنت تضايقني؛ مجرد سماع صوتك يضايقني، التفكير بك يضايقني، فلا تتصل بي ثانية.

حاول أحمد قول شيء ما، ولكنها أسرعت وأغلقت الهاتف، ثم بدأت في البكاء. لم ترد قول هذا الكلام، بل أرادت إخباره بمدى اشتياقها له، بمدى حبها، بمدى أسفها على علاقتهما. ربما تخبره كذلك أنها تتمنى له الخير أينما كان ومع من يريد. ولكنها لا تعلم لم يخرج فمها كلمات أخرى غير التي تفكر فيها.

توقفت عن البكاء بعد فترة وتساءلت: متى ستتوقف عن البكاء كلما تذكرته وتذكرت حياتهما معًا؟ متى سيصير اسمه ووجهه مجرد ذكرى تبتسم عند تذكرها؟ ربما ستبكي طوال حياتها، ربما لن تنساه أبدًا. أمسكت هاتفها وقررت الاستماع إلى بعض الأغاني، ولكنها سمعت صوت خطوات في الخارج. رفعت رأسها للسقف وهي تحاول تحديد من أين يأتي الصوت؛ ربما بالفعل من فوقها وهي تتخيل. الصوت يقترب.. خطوات ثابتة من كعب عالٍ ينقر في الخشب: «تيك توك.. تيك.. توك...» توقف الصوت أمام غرفتها. اعتدلت وبدأ صدرها يعلو ويهبط. طرق أحدهم الباب فقفزت فزعًا. ربما هي مخطئة، ربما يطرق أحدهم على باب آخر وهي تتوهم. عاد الطرق ثانية، فقررت استجماع شجاعتها وفتحت الباب.

- «بون سوار»!

فتحت هبة الباب أكثر لتحملق إلى وجه المرأة التي تقف أمامها.

- مساء الخير «مدموزيل» هبة، أيمكن أن نتكلم؟

سمحت للمرأة بالدخول. امرأة شابة ترتدي فستانًا أحمر جلديًا يلمع في ضوء الغرفة، وأطراف شعرها الأصفر المصبوغ تلامس كتفيها. استطاعت هبة رؤية نصف صدرها يتدلى خارج الفستان بسبب الشق الطويل الذي يقترب من خصرها.

دخلت المرأة وصوت كعبها يرتفع، حتى وصلت إلى السجادة فخفض الصوت قليلًا. استدارت المرأة:

- جناحك لطيف.

- من حضرتك؟

جلست المرأة على أقرب مقعد ووضعت ساقًا على الأخرى، فارتفع فستانها القصير أكثر ليبرز حذاؤها الأسود ذو الكعب العالي.

- أنا نوال، قررت المجيء والترحيب بك بنفسي.

- ومن حضرتك؟ أقصد.. أنا أعرف اسمك الآن، ولكن من أنت؟ وماذا تفعلين هنا؟

ابتسمت نوال فبرزت أسنانها البيضاء، وقامت بإرجاع شعرها الأصفر الطويل خلف رأسها:

- أتعرف عليك؛ لنكون أصدقاء.

- آه، حسنًا. ولكن سؤال: ماذا تفعلين هنا؟ ولا أقصد في حجرتي، ولكن في البيت. حضرتك، ماذا تفعلين في هذا المكان؟

قطبت نوال جبينها:

- أيعقل؟ سوسن هانم لم تتحدث معك في هذا الموضوع؟

قالت هبة بنفاد صبر:

- كلا.

- آه.. حسنًا، أنا أعيش معك في هذا المنزل. أؤجر جناحًا في نهاية الممر.

- تؤجرين جناحًا! وهل توجد أماكن هنا للتأجير؟

- طبعًا. أنا أعيش هنا منذ...

توقفت نوال عن الحديث وكأنها تذكرت شيئًا، ثم عادت وابتسمت:

- منذ مدة طويلة. ألم تعرفي؟

جلست هبة على طرف فراشها وقالت هامسة:

- كلا، لم أعرف.

- حسنًا، لقد عرفت. دعينا نتحدث قليلًا، أخبريني، أي الأغاني تحبين سماعها؟

استيقظت هبة على سؤالها:

- ماذا؟ أنا آسفة، علي التحدث مع جدتي أولًا. هل يمكننا تأجيل التعارف لوقت آخر؟

ابتسمت نوال وتفحصتها وكأنها تعاين قطعة لحم، ثم غادرت دون تعليق. أغلقت الباب خلفها وحاولت تهدئة نفسها كي تستطيع التفكير. خافير ونوال. لماذا تؤجر جدتها غرف المنزل؟ هل تحتاج إلى المال؟ أم إنها تؤجر الغرف منذ البداية؟ والمنزل هو في الحقيقة فندق؟ لكنها لا تستريح لنزلائه؛ خافير يبدو شابًّا مهذبًا، ولكنه أجنبي، وطريقته غريبة بعض الشيء، أما نوال تلك، فهي تحتاج إلى مجلد يشرح الحالة النفسية الغريبة التي تحيط بها. جلست على طرف الفراش تحاول قرار ما ستفعله: هل تتحدث مع جدتها؟ أم لن تعير الأمور أهمية خاصة؟ وإنه ليس منزلها، هي مجرد زائرة؛ ليس لها الحق في إبداء رأيها.

في النهاية قررت ألا تتدخل؛ ليس من حقها التحدث عن شيء تجهل كنهه. ولكنها لم تستطع التخلي عن شعور الضيق، وتمنت أن يكون الأمر مجرد تأجير غرف وليس شيئًا آخر.

***

دقت الساعة الثامنة، وبدأ الخدم في وضع الطعام على الطاولة؛ طاولة طويلة تكفي عشرين شخصًا. تعجبت من اتساع المكان، خاصة أن جدتها تعيش وحيدة. ولكنها تذكرت النزلاء فصمتت عن التفكير في هذا الأمر، ثم رأت عدد الخدم الذين يقفون خلفهما وفكرت أن الأمر مبالغ فيه. عددهن يزيد على الخمس عشرة خادمة، كما إنها تلاحظ الطريقة التي يقفن بها؛ تشبه كثيرًا الأفلام الإنجليزية القديمة، أو الأفلام أيام الحكم الملكي بمصر. لكن جدتها ليست إنجليزية، ولا هي من العصر الملكي.

رفعت جدتها رأسها بطريقة درامية، ثم بدأت في تناول الطعام. لم تحاول التحدث معها أو الاستفسار عن النزلاء. الفضول يقتلها، ولكنها قررت الصمت، خاصة أنها لم تسامح جدتها بعد على الكلام القاسي الذي وجهته لها.

بدأت في تناول طعامها وهي تراقب الخادمات؛ الفساتين السوداء، فوقها المريلة البيضاء، ملابسهن قديمة، شاهدتها أكثر من مرة في أفلام الأبيض

والأسود. تساءلت أيضًا عن مكان مكوثهن، وهل يعشن معهما في نفس المنزل؟ أم إنهن يعملن هنا ويرحلن بعد تقديم العشاء؟

- انظري إلى طعامك وتوقفي عن مراقبتهن.

قطع صوت جدتها حبل أفكارها، فاعتدلت سريعًا.

- آسفة.

تناولت جدتها آخر قطعة من الدجاج أمامها:

- لم لا تثرثرين كعادتك؟ أم ما زلت تمثلين دور الغاضبة؟

- لا، أبدًا، ولكن لا أريد مضايقة حضرتك.

ابتسمت جدتها ومررت أصابعها على شعرها الفضي:

- لا تريدين مضايقتي، حسنًا.

لم تفهم مقصد جدتها؛ هل تحاول التحدث معها بطريقة لطيفة؟ أم إنها تقصد شيئًا آخر؟

- كل الموضوع أن ملابسهن غريبة بعض الشيء.

- ملابسهن غريبة! انظري إلى ما تلبسينه أنت. هل توجد امرأة في سنك ترتدي كالأولاد؟ أنت شابة، تمتعي بجسدك قليلًا. ستتقدمين في السن ويصير وجهك مجعدًا ومقززًا.

نظرت هبة إلى ملابسها؛ «تي شيرت» أبيض على بنطال جينز أزرق.

- وماذا بها ملابسي؟

- ماذا بها؟ انظري إلى نفسك بالمرآة، من يراك من بعيد يظنك رجلًا.

لم تعرف هبة ما السيئ في أن يظنوها رجلًا؟ ولكن عند جدتها هو شيء سيئ حقًا.

- حسنًا، أنا أجلس في المنزل، فماذا أرتدي؟

- ولأنك بالداخل عليك ارتداء شيء جميل يشعرك بأنوثتك. هل كنت تجلسين أمام الفتى الذي هجرك بملابسك تلك؟

لم تعلق هبة، ولكنها شعرت بالإهانة. ها هي محادثة بريئة تقلبها جدتها لتعيدها إلى أحمد ثانية. شعرت أنها لن تتوقف عن الحديث في هذا الموضوع؛ لذلك بادرت:

- امرأة تدعى نوال زارتني اليوم.

قالتها ثم راقبت رد فعل الجميع. حتى الخادمات تغيرت ملامحهن وتبادلن النظرات. ارتعشت يد جدتها:

- نوال من؟

- نوال؛ فستان أحمر ضيق، أحمر شفاه فاقع اللون، وكعب عالٍ يصدر صوتًا مزعجًا.

أبعدت جدتها الطعام:

- هل قالت لك شيئًا ما؟

- اممم.. قالت الكثير من الأشياء.

ضربت يدها على الطاولة بعنف:

- ماذا قالت؟ تكلمي!

ابتسمت هبة بركن فمها، وأعجبها أنها حولت دفة الهجوم عليها، فقررت تعذيب جدتها أكثر:

- لم حضرتك منفعلة هكذا يا جدتي؟

- قلت لك مئة مرة: «نادني بسوسن هانم».

قالت تلك الكلمات وهي تصرخ؛ مما جعل الخادمات مضطربات. حركت هبة مقعدها للخلف:

- حسنًا، بعد إذنك الآن، سنكمل عندما تهدئين.

همت جدتها بقول شيء ما، ولكن فوزية تدخلت مسرعة لتبعدها. ابتسمت هبة عائدة إلى غرفتها. أصبحت رائقة المزاج نوعًا ما؛ بدلت الموقف لصالحها، وأفشلت خطة جدتها في جعلها ضحية. لذلك الأشرار في الأفلام لديهم مزاج رائق للمزاح دائمًا.

أغلقت الباب وتوجهت إلى الفراش، ولكن انعكاسها في المرآة جعلها تتوقف. تفحصت ملابسها وسبت جدتها بصوت منخفض. قفزت على سريرها متفحصة الهاتف، بالطبع محمود يبعث لها بالرسائل، أصبحت عادة لديه. بادلته بضع كلمات، ثم رن الهاتف.

- ماذا تريد؟

قالتها بملل وهي تتفحص أناملها.

- أسلوبك مستفز، أتصل لأطمئن عليك.

- آه.. حسنًا!

- آه حسنًا؟ هل قاطعت شيئًا مهمًا؟ اجتماعك مع قرناء الجن؟

لم تستطع هبة منع نفسها من الابتسام؛ لطالما امتلك محمود قدرة غريبة على جعلها تضحك في أشد لحظاتها حزنًا.

- كلا، لم تقاطع شيئًا، ولكن ماذا تريد؟

- سماع صوتك.

- حقًّا!

- اشتقت لسماع صوتك فاتصلت لنتحدث.

أرادت هبة سبه وإغلاق الهاتف، ولكنها تراجعت؛ ما زال الوقت مبكرًا ولا يوجد شيء تفعله في هذا المكان الممل. فلتتسلَّ قليلًا.

- حسنًا، لقد سمعت صوتي، هل تريد شيئًا آخر؟

- أنت سخيفة حقًّا، لنتحدث في المهم. كيف حالك؟

- الحمد لله للمرة الثانية، ربما الأولى لم تقنعك.

- صراحة لم تكن مقنعة؛ لأني أعرف أنك لست بخير، كما أعرف أن الموضوع ليس سهلًا. أنت في هذا المكان بمفردك، وجدتك تبدو كامرأة غليظة القلب لاذعة اللسان. هبة، أنا أشعر بالقلق عليك.

صمتت قليلًا، لم تعرف كيف تخبره أنها تحتاج إلى شخص تتحدث معه، تبكي فوق صدره، وبالفعل جدتها ليست المرأة التي توقعت.

- تهذب وأنت تتحدث عن جدتي!

- حسنًا، آسف. ولكنك كنت موجودة حين طردتني.

- لا تنسَ ما فعلته هنا. أعرف أنه ليس ذنبك، ولكنها لا تفهم هذا.

- سأسامحها من أجلك، ولكني أريد رؤيتك.

- محمود، من فضلك أنا عــ...

- أعرف ما تنوين قوله؛ تريدين أن تكوني بمفردك لتبكي على الأطلال. توقفي عن كونك درامية.

- درامية!

- نعم، درامية. أنت لست أول ولا آخر امرأة تتم خيانتها. كما إن أحمد هذا لا يستحق كل تلك الجلبة.

- محمود، أنت لم تقع في الحب من قبل؛ لذلك لن تفهم شعوري أبدًا.

صمت محمود قليلًا:

- كنت تحبينه حقًّا!

- كنت...

- حسنًا، وداعًا.

قالها ثم أغلق الهاتف مباشرة، لم ينتظر سماع ردها. تعجبت من رد فعله، ولكنها تعرف أنه يغار من أحمد، لذلك وضعت الهاتف بجانبها وظلت تتأمل السقف. هاجمتها فكرة التسلل صباحًا إلى السطح لترى غرف الخدم بنفسها، ولكن أفكارها توقفت بسبب صوت الخطوات الذي يقترب من الباب. اعتدلت لتتسارع ضربات قلبها. فتح الباب وبرزت جدتها وهي تمسك بصحيفة عليها كوب يتصاعد منه البخار.

- هبة، أنت مستيقظة؟

أسرعت إلى جدتها تحمل عنها الصحيفة وتضعها على أقرب منضدة، ثم التفت:

- آسفة.

وقفت جدتها تتأملها ثم جلست:

- حسنًا، دعك من الماضي، هناك بضعة أشياء لا بد وأن تعرفي بها.

جلست بجانبها:

- من كل هؤلاء الأشخاص الذين أراهم بالمنزل؟

- ضيوف.

- ولكن نوال قالت إنها نزيلة هنا.

- نوال تحديدًا كاذبة، لا تسمعي منها.

- لن أستمع إليها، ولكن كوني صريحة وأخبريني بكل شيء.

- أنا فقط.. أنا...

لم تكمل جدتها الجملة وأجهشت بالبكاء. اقتربت منها وربتت على كتفها:

- حسنًا، إنه ليس تحقيقًا معك، إن لم تريـ...

- لا، عليك معرفة كل تلك الأموال من أين تأتي. حسنًا، جميع الضيوف هنا أخفيهم عن الحكومة.

تسارعت نبضات قلبها:

- ماذا؟ الحكومة؟

- نعم، هذا هو السر الذي أخفيه عنك؛ النزلاء هنا عليهم أحكام، وينتظرون ليهربوا خارج البلد. عرفت الآن ماذا يفعلون هنا.

تراخت ساقاها وجلست على أقرب مقعد:

- لماذا؟ لماذا يا جدتي؟ هناك مئة طريقة لكسب المال الحلال، إنما ما تفعلينه هـــ.

- وماذا أفعل؟ أخبريني! ما أفعله ليس حرامًا، أنا فقط أعطيهم فرصة ثانية.

- فرصة ثانية لمجموعة من المجرمين؟

قالت هبة الكلمات الأخيرة وهي تصرخ، فرفعت جدتها يديها:

- اهدئي، هم ليسوا مجرمين كما تظنين، هم أيضًا مظلومون.

- مظلومون! كيف؟

- مثلًا خافير؛ الشاب الذي قابلته، إنه هارب من بلده لأن أباه غني، وله مشاريع مع رجال أعمال فاسدين، ولذلك لفقوا له قضية سياسية.

قطبت هبة جبينها:

- قضية سياسية لشخص هندي؟

- نعم، والده غني جدًا، وأراد شركاؤه سرقة المال، فرفض واستطاع الهرب هو وزوجته، أما ابنه فلم يستطع. إنه شاب محترم يا هبة، لو تحدثت معه سترين كم هو مسكين.

- لقد تحدثت معه بالفعل، يبدو محترمًا. ولكن...

- ولكن ماذا؟

- أليس الأمر غريبًا؟ منذ متى ورجال الأعمال الهنود يأتون إلى مصر لإقامة مشاريع؟

- وكيف سأعرف؟ هبة، أنا لا أكذب.

- آسفة، والله لا أقصد... حسنًا، ونوال تلك، ما حكايتها؟

ضمت جدتها الشال حول جسدها وقامت تفتح الباب وكأنها تتأكد من عدم تنصت أحد ما عليهما، ثم أغلقته وتوجهت إلى المنضدة لتمسك الكوب وتضعه في يد هبة:

- اشربي هذا، لقد صنعته بنفسي من أجلك.

ارتشفت هبة المشروب الساخن ذا النكهة الغريبة:

- أكملي، ما قصة نوال؟

جلست جدتها:

- انظري.. نوال تلك حكايتها حكاية كبيرة، إنها فتاة سيئة.

- فتاة سيئة! كيف؟

- أقصد أنها سيئة السمعة.. أستغفر الله العظيم.

وضعت هبة الكوب من يدها:

- وتخفينها هنا يا جدتي؟ هنا؟

- انتظري، هذه ليست الحكاية الأساسية؛ فنوال من عائلة كبيرة، أي أنها تفعل ذلك بمزاجها. ولكنها في النهاية قررت اتخاذها مهنة. بالطبع تبرأت منها عائلتها، فانطلقت لحياة السهر والمجون. وفي إحدى حفلات مسؤول حكومي كبير رأت نوال شيئًا فظيعًا.

- وهل يوجد أفظع مما تفعله؟

تجمدت جدتها لبرهة من الوقت وهي تحدق إلى الفراغ، ثم اعتدلت:

- ليس هناك قاع لما يستطيع الإنسان ارتكابه من فظائع، بيع الجسد ليس أحط ما يمكن للمرء أن يفعله.

تعجبت هبة من جدتها، بدت وكأنها تتحدث عن شيء آخر:

- حسنًا، ما الشيء الذي رأته نوال؟

- شيء سيئ لدرجة أن المسؤول الحكومي لفق لها تهمة قتل.

- ربما تكون قاتلة بالفعل.

- هي ليست عنيفة، إنها مجنونة فقط.

- بعيدًا عن موضوع الدعارة، والقضية التي لفقت لها، لم تصرين على تلقيبها بالمجنونة؟

ضحكت جدتها وقامت تتجول في الغرفة، ثم أشارت إلى الكوب:

- تناوليه قبل أن يبرد.

جلست على طرف الفراش وأكملت:

- حسنًا، نوال مجنونة لأنها تستيقظ كل يوم في منتصف النهار، ترتدي هذا الفستان الجلدي الأحمر، وتضع الماكياج المبالغ فيه، وتتمشى في الفيلا وكأنها ملك لها. كل هذا وهي تظن أننا ما زلنا في عام 1966.

- ماذا؟

ضحكت جدتها:

- والله! كما أقول لك، مجنونة، أليست كذلك؟

- غريبة جدًّا، عندما تحدثت معها لم ألاحظ جنونها.

- ولن تلاحظي أبدًا؛ هي عاقلة جدًّا، باستثناء موضوع 1966.

- غريبة فعلًا، ما الذي رأته وأصابها بالجنون هكذا؟

- حسنًا، لو كنت تصرين فيمكنني إخبارك.

- أنت تعرفين؟

- طبعًا، أنا لا أسمح لأي شخص بالمكوث هنا إلا بعد التأكد من قصته. حسنًا، على أي حال هذا المسؤول اعتاد إقامة حفلة ماجنة كل ليلة؛ الكثير من الخمور، وفتيات الليل العاريات تمامًا.. إلى هنا وكل شيء عادي.

- عادي جدًا.

ضيقت سوسن عينيها:

- من السهل الوقوف في برجك العاجي وإصدار أحكام على الآخرين. هبة، أنت لا تتخيلين الفساد الذي يحيط بنا. ربما قصتك أكبر دليل على أن الفساد يتخلل الجميع. أنا آسفة، لا أقصد تذكيرك بموضوعك، ولكن إياك والتعجب من صنائع البشر.

تسارعت ضربات قلبها، وبدا وكأن جدتها تتحين الفرصة لتذكرها بما حدث:

- ما الذي رأته نوال؟

- نوال رأت أطفالًا في الحفلة؛ أعمارهم تتراوح ما بين العاشرة والثالثة عشرة.

تركت هبة ما بيدها ووقفت:

- ولماذا لم تتوجه إلى الشرطة؟

- هي بالفعل أبلغت الشرطة، ولكن ما إن وصل الموضوع إلى النيابة حتى أخذوها لمستشفى المجانين، وبدأ التعذيب. ومن هنا أظن أن حالتها العقلية تدهورت.

- لا حول ولا قوة إلا بالله! التعذيب أصابها بالجنون؟

هزت سوسن رأسها:

- ولأنها من عائلة غنية استطاعت الهرب، ومنذ هذا الوقت وهي تمكث هنا. أحيانًا حالتها تكون مضحكة، وأحيانًا تكون مستفزة، ولكني في النهاية أشفق عليها.

- لم يجبرها أحد على هذه الطريق، هي من تجنت على نفسها.

- ولكنها تورطت في تلك المشكلة لأنها قررت فعل الشيء الصحيح.

- وهل من المفترض نسيان ماضيها بسبب عمل صواب واحد.

- الحمد لله أن الحكم علينا يوم القيامة ليس في يد أحد غير الله، هو أعلم بقلوبنا.

- الله أنزل قوانين لنتبعها، لا لأن نفعل عكسها ونقول: «نحن طيبون».

- أتمنى ألا تكوني قاسية على نوال بسبب ما رأيته في حياتك.

- وما علاقة ما حدث لي بنوال الآن؟ لماذا تذكرينني كل بضع دقائق وكأنك تتعمدين إيذائي؟

- كلا، أنا لم أقصد، أنت متسرعة في إصدار أحكام قاسية على الآخرين.

- حقًّا؟ أنا القاسية!

- ماذا تقصدين؟

- لا شيء.

- حسنًا، أنا أعتذر لك عما حدث. لا تغضبي مني، خاصة أني أخبرتك بكل شيء.

هزت هبة رأسها في استسلام. وقفت جدتها فجأة وودعتها لتخرج من الغرفة. لم تعرف فيم تفكر وكيف تتصرف. المال الذي أطعمها كل تلك السنوات مال مشبوه؛ لا تعرف هل هو حرام أم حلال، وهل قصص جدتها حقيقة أم كاذبة؟ إنها تظهر نفسها في دور المنقذة التي تدافع عن المظلومين، ولكن ماذا لو كانوا مجرمين بالفعل؟ ألا تعتبر شريكة معهم في جرائمهم؟

شعرت بأن رأسها يوشك على الانفجار، فتمددت على الفراش. أغلقت عينيها، ثم لا شيء. استغرقت في نوم عميق.

***

ألقت نظرة على ساعة الحائط، تقترب من الثانية عشرة بعد منتصف الليل. خرجت سوسن من غرفتها وهي ترتدي فستانًا أسود عاري الكتفين، واضعة الكثير من مساحيق التجميل. خلفها فوزية، ترتدي فستانًا أحمر، وتبدو في أفضل حالاتها.

اقتربت سوسن من غرفة هبة، ووضعت يدها على مقبض الباب. فتحته ببطء لتلقي نظرة على الداخل.

- تغط في نوم عميق، لا تقلقي يا هانم، فالدواء مفعوله سحري.
- هبة ذكية، وأخاف أن تكتشف أننا ننومها.
- لا تقلقي، لن تربط الخيوط؛ مرة في العصير، ومرة في الأكل، ومرة في مشروب ساخن، إلى أن تمر هذه الأيام.
- ليسترها الله معنا. أخرجي الأوراق وأخبريني على من سنعمل الليلة.

أخرجت فوزية أجندة وقلمًا من حقيبتها:

- اليوم معنا عمر أفندي والحاجة زبيدة، أناس محترمون ولن يثيروا المشكلات.
- جيد، جيد، ومن أيضًا؟
- الخواجة مارتن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- سيوجد رقص وغناء إذن.

قالتها سوسن وهي مقطبة الجبين، فاستدارت فوزية:

- ولكن تلك الأشياء تسعدك!
- نعم، ولكن أخاف الآن أن نثير جلبة وتستيقظ هبة، فكيف سأبرر وجودها للضيوف؟
- لا تقلقي يا هانم، طالما أخذت المنوم فلن تستيقظ أبدًا.
- ليسترها الله معنا. تأكدي أن شهيرة جاهزة؛ فالخواجة يحبها.
- لا تقلقي يا هانم، طاقم الخدم جاهز أيضًا.
- جيد، جيد.

***

دقت الساعة الثانية عشرة؛ ثلاث دقات متتاليات. تراصت سوسن وبجانبها فوزية، ثم طاقم الخادمات من خلفهما يرتدين فساتين فاخرة. وقفن جميعهن أمام درجات السلم وكأنهن ينتظرن وصول ضيف ما. ومع انتهاء الدقة الثالثة برز صوت خطوات لرجل يتكئ على عكاز قائلًا بعربية ثقيلة:

- أحبائي، كيف حالكم؟

ابتسمت فوزية وأشارت إلى إحدى الخادمات، التي أسرعت لتمسك بيده تنزله درجة بدرجة وتحدثه بالإنجليزية. اقترب الرجل من سوسن، التي قبلت وجنتيه:

- كل سنة تزداد جمالًا عن سابقتها يا مارتن!

- وأنت كل سنة كما أنت، لا تكبرين ولا تتغيرين، جميلة دائمًا.

ضحكت سوسن ضحكة مبالغ فيها:

- الحفلة تنتظرك بالداخل.

سحبته الخادمة لتقوده إلى الغرفة بجانب الباب. تلاشت ملامح السعادة عن وجهها، ووقفت مع فوزية لتراقبا باب المنزل هذه المرة.

رن جرس الباب. أشارت إلى إحدى الخادمات، فذهبت مسرعة تفتحه. تبدلت ملامحها الجادة، ورسمت ابتسامة عريضة على شفتيها وهي تستقبل أحد الرجال وتقبله مرحبة به.

تحدث الرجل بعربية مهلهلة:

- مارتن حبيبي، أين؟

- في الحفلة يا شيري. تفضل، من هنا.. شهيرة بالداخل تغني، وصديقك يغازل الفتيات الصغيرات بمفرده. هيا يا «مسيو» بسرعة!

ثم أشارت إلى إحدى الخادمات، لتسرع وتأخذ الرجل المسن من يده، لتدله على مكان الحفلة؛ بالتحديد الغرفة الشاسعة ذات المسرح الصغير، إلا إنها الآن مضاءة وكأنها الواحدة ظهرًا.

رفع الخواجة عكازه وأسرع في الدخول وهو يستند إلى ذراع الخادمة المبتسمة. ضحكت سوسن، وكذلك فعلت فوزية. وما إن اختفى حتى اختفت ابتسامتهما، وبدأتا في مراقبة الباب والدرج معًا.

- مر أول ضيف بسلام، لندعُ أن يمر الآخرون مثله.

***

فتحت هبة عينيها بصعوبة. تقلبت في الفراش لبعض الوقت، ثم خفق قلبها بسرعة، فرفعت رأسها. تطلعت إلى النافذة؛ فضوء الشمس يغزو الغرفة. أمسكت هاتفها وقالت بصوت متحشرج:

- السابعة صباحًا! هل يعقل أن أنام كل هذه المدة؟ ثانية؟

غادرت الفراش وهي تمسك برأسها، فعادت لتجلس. بدلت ملابسها محاولة التذكر كيف نامت بملابسها تلك. تجمدت في مكانها وهي تتذكر آخر شيء عن جدتها، ثم شعورها بالتعب المفاجئ، ثم لا شيء. لا تتذكر كيف غطت في نوم عميق حتى الصباح، لا بد أنها متعبة كما أخبرتها جدتها. لكن لا يمكنها الإنكار أن الأمر غريب. تذكرت الحوار الذي دار مع جدتها عن النزلاء غريبي الأطوار، وتساءلت: هل جدتها تكذب؟ أم ماذا؟ حاولت إبعاد تفكيرها عن كل تلك الأشياء؛ لقد جاءت هنا لتريح أعصابها ورأسها من كثرة التفكير. لذلك ارتدت ملابسها سريعًا وانطلقت إلى الأسفل، ولكن بدلًا من ذهابها إلى المطبخ اتجهت إلى الباب الرئيسي للمنزل وفتحته، ثم شهقت متراجعة بضع خطوات.

- صباح الخير «مدموزيل»!

تسمرت هبة مكانها وهي تتفحص الرجلين الواقفين أمامها؛ أحدهما ضخم أشقر الشعر، يرتدي بدلة غريبة بعض الشيء. يبدو عليه وكأنه أجنبي، أما الرجل الآخر فهو رجل مسن، منحني الظهر ومكتنز بعض الشيء، يمسك عكازًا في يده.

الرجل المسن: «صبـ...»

قالت هبة مسرعة:

- صباح النور! آسفة، هل حضرتك تريد جد... سوسن هانم؟

ابتسم الرجل المسن ونظر إلى الرجل خلفه:

- أكيد، لكن من أنت؟ آسف، هذه أول مرة أراك هنا. هل أنت من الطاقم خاصتها؟

- من ماذا؟ آه.. كلا، أنا حفيدتها.

هم الرجل الضخم بالدخول، ولكن شيئًا ما أثار حفيظتها وجعلها تسأل:

- آسفة، لم أتشرف بحضرتك!

- آه، آسف! شكري النابلسي، رجل أعمال.

لم تتحرك هبة، بل حدقت إلى رأسه، بالتحديد خلفية رأسه. بدا لها وكأنه يرتدي طاقية صغيرة تشبه إلى حد كبير ما يرتديه اليهود.

ابتسم الرجل وهم بقول شيء ما، لكن شخصًا ما تحرك من خلفها وأغلق الباب بقوة في وجهه. انتفضت هبة، لترى فوزية ممسكة بالباب بكلتا يديها وصدرها يعلو ويهبط.

- مـ... ما.. لم أغلقت الباب في وجه الضيوف هكذا؟

قالت فوزية صارخة في فزع غير مبرر:

- آنسة هبة، أسرعي وأيقظي سوسن هانم من النوم، وأبلغيها أن شكري بيه يقف على الباب. بسرعة!

أرادت هبة الصراخ في وجهها لفظاظتها، ولكن صوت طرقات قوية على الباب جعل جسدها يرتعش. الطرق مرتفع، فخيل إليها أن المنزل يهتز.

قالت فوزية وهي تغلق الباب بجسدها:

- آنسة هبة، بسرعة من فضلك!

قالت تلك الكلمات وهي تتصبب عرقًا وكأنها تحمل جبلًا ثقيلًا. تعجبت منها، ولكنها أسرعت تصعد الدرج حتى وصلت إلى الممر المظلم. مرت على أول غرفة، ثم الغرفة التي تليها، وأمامها تسمرت فتاة شابة تقف في الداخل وتمسك الباب بكلتا يديها. فتاة صغيرة السن، بيضاء البشرة، وشعرها الأسود الناعم يتدلى على كتفيها. بدت مضطربة وخائفة. اقتربت هبة لتقول شيئًا ما يطمئنها، ولكنها أغلقت الباب. تعجبت من تصرفاتها، ولكنها تذكرت مهمتها الأساسية، فأسرعت إلى غرفة جدتها. طرقت الباب، ثم سمحت لنفسها بالدخول.

تفحصت غرفة جدتها في ضوء الشمس الضعيف الذي يتسلل من النافذة؛ غرفة شاسعة، وأثاثها قديم كباقي أثاث المنزل. اقتربت أكثر من الفراش وهزت جسد جدتها برفق:

- جدتي! جدتي! استيقظي من فضلك.

كررت هبة تلك العملية أكثر من مرة، حتى استيقظت جدتها مفزوعة، فأسرعت تناولها كوب ماء:

- جدتي، فوزية بالأسفل، وتريدك حالًا؛ لأن شكري بيه يقف على الباب.

قطبت سوسن هانم جبينها:

- من؟ من شكـــ...

ارتعشت يدها وكادت أن تسقط كوب الماء، ولكنها وضعته بجانبها ثم قفزت من السرير تبحث عن أي شيء ترتديه. خطفت شالها من أحد المقاعد، ثم هرولت إلى الأسفل. وقفت هبة وحيدة في ظلام الغرفة تتساءل عما أصاب الجميع، ثم أسرعت خلف جدتها.

هبطت الدرج مسرعة لترى فوزية وقد أصابها الإعياء وما تزال يدها تمسك بالباب، وكأنها تمنع قطيعًا من الأسود من النفاذ إلى داخل المنزل. صرخت جدتها، فظهرت فتاتان من الظلام وأسرعتا تحملان فوزية وتصعدان بها إلى فوق، وهبة تراقب كل شيء ولكنها لا تفهم ما الأمر. كل ذلك يحدث وصوت الطرقات على الباب يرتفع أكثر وأكثر. أحكمت سوسن الشال حول جسدها، ثم أخذت نفسًا عميقًا وفتحت الباب.

- ماذا تريد؟

أسرعت تهبط الدرج، لترى شكري بيه وخلفه الرجل الأشقر الضخم وهو يبتسم في خبث.

التفت شكري إلى الرجل خلفه:

- ألم أقل لك يا وليم؟ لا يمكنها تجاهلنا إلى الأبد.

لم تركز هبة في كلمات الرجل، بل ظل اهتمامها منصبًا على رأسه؛ إنه حقًا يرتدي طاقية صغيرة الحجم. هل هذا الرجل يهودي؟

- ماذا تريد يا بنيامين؟

انتبه شكري لها:

- ها؟ أنت، لا أحد غيرك.. البنت الجديدة تبـــ...

قالت سوسن بحدة:

- ليس لك شأن بها. ابتعد عن هنا وإلا...

توقفت سوسن عن الكلام وبدا وكأنها تذكرت وجود هبة، فأسرعت وأغلقت الباب وهي تسب الرجل، ثم صرخت منادية الجميع؛ فالتف حولها أكثر من دزينة من الأشخاص.

- عم زغلول، أخبر جميل وناجي ليأخذا حذرهما.

ثم توقفت عن الحديث، وبدا وكأنها تذكرت شيئًا ما، فعادت لتصرخ:

- كيف مرا من البوابة الرئيسية؟

تحرك الرجل المسن بسرعة تتناسب مع سنه، فاستدارت سوسن وظلت تلقي بالتعليمات على الخادمات، اللاتي ظهرن فجأة. تحول المنزل إلى خلية نحل، وهي تراقب في صمت، لا تفهم ما الذي حدث توًّا، ومن هذا الرجل؟ وهل اسمه شكري؟ أم بنيامين؟

- من هذا الراجل؟

ألقت هبة هذا السؤال لجدتها، التي تأكدت من رحيل الجميع ثم قالت:

- هبة، اصعدي إلى غرفتك الآن وسيصل الطعام إليك.

- أنا لا أريد الطعام، أنا أسألك: لم الجميع خائف من هذا الرجل؟ و.. وهل هو بالفعل يهودي؟ لقد رأيت الطاقية الصغيرة خلـــ...

صرخت سوسن:

- هبة! نفذي كلامي الآن واصعدي إلى غرفتك.

أرادت هبة الوقوف والصراخ، ولكنها تذكرت أنها ليست أمها، ولن تتقبل هراءها المعتاد وتقلباتها المزاجية؛ إنها بمكان مختلف، والقوانين مختلفة. يمكنها المغادرة ببساطة، ولكن إلى أين ستذهب؟ لذلك قررت الصعود ومتابعة الصراخ في وقت لاحق.

صعدت الدرج وهي تسب نفسها على قراراتها الغبية، حتى وجدت تلك الفتاة التي رأتها وهي ذاهبة لإيقاظ جدتها ترتعش وتبكي خائفة.

- هـــ... هل رحل؟ أم إنـــ..

حاولت هبة الاقتراب منها لطمأنتها، ولكن الفتاة ابتعدت وهي تحتضن يدها، ثم كررت السؤال وهي تصرخ.

- لا أعرف ما الذي تتحدثين عنه، ولكن لم يدخل أحد غريب إلى المنزل.

تهاوت الفتاة على الأرض باكية، وغمغمت بشيء ما بالفرنسية، ثم وقفت:

- شكرًا.

بعدها اختفت في الممر المظلم. أرادت اتباعها لتسألها عن هذا الرجل، ولكنها تعرف أنها ستكذب. جدتها ستكذب أيضًا، الجميع يكذب عليها. لن تستطيع معرفة الحقيقة؛ لذلك قررت دخول غرفتها وعدم حشر أنفها في أي شيء يخص المنزل.

جدتها محقة، لم تمر عشر دقائق حتى دخلت غرفتها خادمة تحمل وجبة الإفطار.

- هل فوزية بخير الآن؟

وضعت الخادمة الأطباق، ثم استدارت نحو الباب وكأنها غير موجودة. صرخت هبة وأغلقت الباب بعنف خلفها، ثم قررت أنها ستترك هذا المكان وترحل. قصدت برحيلها في المقام الأول إعطاء نفسها فرصة لتريح أعصابها، التي احترقت من كثرة المشاحنات والتفكير، ظنت أنها ستترك المشكلات خلفها، ولكن في الحقيقة المشكلات تنجذب إليها كما تنجذب بقايا الحديد نحو المغناطيس.

أخرجت حقيبتها وبدأت في حشر ملابسها بداخلها بعنف حتى آلمتها يداها. رن جرس الهاتف، فاعتدلت لترى المتصل. أحمد مرة أخرى.

تلاشى غضبها واكتسى وجهها بالحزن وهي تجيب:

- «آلو»!

- أخيرًا أجبت! هبة، من فضلك لا تغلقي الخط؛ أريد التحدث معك.

جلست على طرف الفراش وهي تزيح حقيبتها:

- قل ما تريده.

- هبة، هناك الكثير من الأشياء لا بد وأن تعرفيها. أنا.. لست خائنًا، أردت وقتًا للتفكير، وما حدث جعلني أعيد ترتيب أوراقي أنا.. أحــ...

لم يكمل أحمد جملته؛ لأن هبة تركت الهاتف يسقط من يدها. لم تكن غاضبة أو أي شيء، بل تنظر إلى باب غرفتها وكأنها تراه لأول مرة. اقتربت، ثم فتحته وخرجت إلى الممر المظلم. تابعت السير حتى وصلت إلى نهايته، وقامت بسحب مقعد ووقفت عليه حتى تستطيع الوصول إلى النافذة العلوية. قامت بفتحها، ثم بحركة واحدة ألقت نفسها.

الفصل الثاني

السقوط

- كيف تقع سوسن هانم في خطأ كهذا؟ كيف؟
- لا أعرف، ولكن لكل حصان كبوة كما يقولون.
- كبوة؟ لقد قتلت حفيدتها، كيف تنسى شيئًا كهذا؟
- الله أعلم. هل تظنين أنها تقصد؟
- تقصد أن تقتـ...

توقفت الخادمة عن الحديث عندما رأت فوزية تتجه نحوها، فأسرعت الخادمتان في الخروج هربًا منها.

دخلت خادمة أخرى بعد فرارهما:

- ماذا بهما؟
- سأخبر سوسن هانم عما قالتاه، الآن سنرى إن كانتا ستظهران ثانية.

أمسكت الخادمة يد فوزية تمنعها من الخروج:

- اهدئي وأخبريني عما حدث.

زفرت فوزية بقوة:

- الغبيتان، إنهما تقولان إن سوسن هانم قد.. إنهـ.. إنها عرفت وتركت هبة لتنام في تلك الغرفة؛ ليكون مصيرها الموت والخلاص منها.

تراجعت الخادمة:

- حسنًا، تعالي معي، إنهما فقط تثرثران.

- اتركيني من فضلك يا هدى؛ سأخبر سوسن هانم لتمنعهما من الظهور أو تطعمهما للكناس.

- اهدئـــي، كنــاس ماذا؟ هل تودين مضايقة سوسن هانم الآن بدلًا من مواســـاتها والاطمئنــان على الآنســة؟ اذهبي إليهــا، لقــد عــادت من المستشفى توًّا.

تراخت فوزية، وبدا أنها اقتنعت أخيرًا، ثم نظرت إلى الحديقة:

- أنت محقة، يكفي ما هي فيه. لقد سرق البيت ابنها، وسيســـ...

توقفت فوزية عن الحديث عندما لمحت سوسن هانم وهي تدخل المطبخ:

- فنجان قهوة من فضلك يا هدى. فوزية، تعالي معي؛ أريد منك خدمة.

تحركت فوزية فورًا خلف سيدتها، التي تحركت بسرعة غير عادية حتى وصلت غرفة الاحتفال:

- فوزية، أريد تفويضك اليوم.

- اليوم!

قالتها فوزية وهي تصرخ، مما جعل سوسن هانم تتوقف عن التحرك وتنظر إليها مقطبة الجبين.

- نعم يا فوزية، اليوم. تلك ليست أول مرة.

- آسفة يا هانم، ولكن اليوم.

- اليوم ماذا به؟ يوم مثل أي يوم آخر.

- أعرف، ولكني خائفة.

أوشكت على الصراخ في وجهها، ولكنها تراجعت وقالت بصوت هادئ:

- لا تخافي يا فوزية، يمكنك فعلها، لن يحدث شيء، لا تقلقي.

- حسنًا يا هانم.. ولكن...

- ولكن ماذا؟

- لا شيء، لا شيء، كنت أريد الاطمئنان على الآنسة هبة. كيف حالها الآن؟

تراخت سوسن على أقرب مقعد:

- الحمد لله، بخير. ارتجاج في المخ مع بعض الرضوض البسيطة في جسدها، لكن من الضروري أن أظل بجانبها اليوم.

- الحمد لله، لقد تملكني الخوف من أن يقتلها المنزل.

وقفت سوسن فجأة:

- هل جننت؟ بيت يقتلها؟ البيت بريء، أنا أعرف من فعلها.

تحركت سوسن متجهة إلى الدرج، وخلفها فوزية، ومن خلفهما هدى ممسكة بفنجان القهوة بيدها.

قالت فوزية صارخة:

- سوسن هانم، تمهلي من فضلك!

دخلت سوسن غرفة حفيدتها، ووقفت في منتصفها لتصرخ بصوت مرتفع:

- فيفيان! أين أنت؟

دارت سوسن بعينيها تبحث في الغرفة الفارغة، حتى وصلت فوزية وهدى.. ثم بدأ جسد امرأة بالظهور في أحد أركان الغرفة؛ امرأة في بداية العشرينيات، بيضاء البشرة، خضراء العينين، وشعرها أسود كالفحم، وجسدها يبدو كعارضات الأزياء.

حدق الجميع إليها وهي تتحرك في الغرفة، فبادرت سوسن:

- إنه أنت؟ أليس كذلك؟ أنت من فعلتها.

وقفت الفتاة في منتصف الغرفة وابتسمت قائلة بهدوء يغيظ:

- لست أنا، أقسم لك!

أسرعت سوسن إليها لتمسك بها، ولكن فوزية وهدى أسرعتا للإمساك بسيدتهما وإبعادها عن تلك الفتاة.

قالت فيفيان بصوتها البارد:

- «باردون» مدام سوسن! لم أنت حزينة؟ فتلك نهايتنا جميعًا؛ الموت.

- اتركاني لأقتل تلك العاهرة!

فوزية: «سوسن هانم، من فضلك تذكري قوانين البيت».

قالت تلك الجملة وهي تمسك بسيدتها، التي تراخى جسدها:

- أنت محقة؛ البيت له قوانين.

خلصت نفسها من أيديهما ثم توجهت إلى الخارج، حيث عدد لا بأس به من الخادمات تجمهرن خارج الغرفة. وقفت سوسن في الممر المظلم وبدأت في إغلاق مصابيح الكهرباء واحدًا تلو الآخر..

- لتختبئ كل من تخاف على روحها.

تبادل الجميع نظرات الرعب، ثم فروا من أمامها. أسرعت فوزية خلف سيدتها:

- سوسن هانم، من فضلك، بالتأكيد هناك حل آخر. ربما لم تقصد، أعني.. هـــ...

توقفت فوزية عن الحديث لما أحست بالبرد. الآن الممر مظلم. حدقت إلى وجه سيدتها لتجده تبدل، وتحولت عيناها إلى سواد مطبق، عندها عرفت؛ سوسن هانم قررت إنزال أقسى عقوبة على فيفيان. تراجعت لتجد أمامها هدى تقف كالبلهاء، محاولة فهم ما يحدث. أمسكت بيدها لتنزل الدرج، ولكن الوقت تأخر؛ الظلام بدأ ينتشر، والدرج أصبح كتلة من السواد المتحرك. صرخت هدى، فأسرعت فوزية بها إلى إحدى الغرف وقامت بإغلاق الباب. احتضنتها لتطمئنها:

- لا تخافي، لا تخافي، هو لم يأتِ من أجلك. اهدئي ولا تخرجي أي صوت منك.

وضعت هدى يدها على فمها بطريقة طفولية ودموعها تنساب على وجنتيها. توجهت فوزية إلى باب الغرفة تفتحه قليلًا لتراقب المشهد، فوجدت سوسن تمشي في الممر المظلم وخلفها ظل أسود متحرك، ظل بدأ يتضح ويتشكل بصورة شبه إنسانية لكائن يجري خلفها بطريقة غريبة، كائن شبه إنساني؛ رأسه متدلٍّ، وأطراف جسده طويلة ورفيعة، ولكنه تمكن من جعل نفسه صغير الحجم بطريقة ما جعلته أشبه بطفل يتبع أمه.

فتحت فوزية الباب لترى أفضل، فسمعت اعتراض هدى المخنوق، ولكنها لم تهتم وتابعت المشهد. فيفيان تصرخ في أحد الأركان، وسوسن تشير بيدها إلى هذا الكائن، الذي تحرك وانقض على فيفيان وبدأ يأكل لحمها. لم تستطع

فوزية النظر لمدة أطول، وعادت إلى الغرفة لتغلقها وتضع يدها على أذنيها لتمنع وصول صرخات فيفيان إليها.

***

قصة فيفيان صبحي

ولدت فيفيان في القاهرة، عام 1936، لأم فرنسية وأب مصري. عملت أمها مغنية في أحد صالونات القاهرة، وأبوها رجل أعمال بسيط. رأى أمها في إحدى الحفلات وأحبها، وتزوجا على الفور. كبرت فيفيان بين أسرة محبة مكونة من أبويها وأختيها التوأم، ولكنها معقدة نوعًا ما؛ حيث تولت جدتها تربيتها، وابتعدت الأم عن الصورة بسبب نشاطها الليلي في الصالونات، الأمر الذي جعل حماتها -جدة فيفيان- لا تغفر لابنها اختياره السيئ حسب تعبيرها. لذلك كبرت فيفيان وهي تشعر بالعار من أمها، حتى وصلت التاسعة عشرة، فأحبت فتى فرنسي الجنسية وعدها بالزواج، وعلى هذا الأساس أقامت معه علاقة، علاقة بدأت تظهر على جسدها؛ ولذلك ذهب أبوها وحاول تزويجها من الشاب، ولكنه أنكر معرفته بها، وهرب إلى فرنسا. تحطم عالم فيفيان وأصبحت منبوذة بين أقرانها. تضاعف شعورها بالذنب بعد فقدها الجنين، ووفاة جدتها من الحسرة عليها. لم تحاول التعلم من أخطائها، بل انغمست في علاقات مشبوهة وغير آمنة، الأمر الذي جعل عائلتها تنبذها. لكن ما حول الأمور فجأة هو عقد قران أختها الصغيرة على ابن أحد الأعيان. اشتعلت نار الحقد والغيرة بداخلها، وقررت الرجوع إلى المنزل، مع وعد منها بعدم ارتكاب المزيد من الحماقات. لكن كان هدفها هو إسقاط خطيب أختها في شباكها، وهو ما تم بالفعل بعد وصولها إلى المنزل بأسبوعين، الأمر الذي حطم أختها لأن الفتى قرر إلغاء الزواج. لم تكتفِ فيفيان بذلك، بل ظلت تبث سمومها في عقل أختها حتى دفعتها إلى الانتحار لتنهي حياتها. بعد موتها، مدفوعًا بالذنب قرر خطيبها كشف سبب البلاء. وفي موجة غضب، قرر الأب المكلوم إطلاق النار على فيفيان. لم تمت في وقتها، ولكن أحد أصدقاء أمها من الصالون عرف بالمنزل، فعرض عليهم إحضارها إلى هنا، ومن وقتها وفيفيان تسكن تلك الغرفة.مكتبة .. سُر مَن قرأ

وضعت فوزية فنجان القهوة من يدها، ونظرت إلى الخادمات المتجمعات حولها قائلة:

- وهذه هي قصة حياة فيفيان، أو قصة موتها. فتاة عاشت وماتت في الحقد والغيرة؛ هذه ليست أول مرة تبث فيها سمومها في أحد سكان المنزل، فعلتها من قبل، ولكن ظنناها حادثة عارضة، ولذلك لم تمانع سوسن هانم ترك هبة في تلك الغرفة.

هدى: «ولكن الكناس! الآن لن تستطيع الظهور ثانية».

إحدى الخادمات: «فلتذهب إلى الجحيم».

تعالت أصوات باقي الحضور ليعلنوا موافقتهم، ولكن هدى اعترضت:

- ماذا؟ هل نسيتم؟ منذ متى ونحن نحكم على الناس؟ كل منا جاء بقصة ما، كل منا له خطيئته، ولكل منا ذنب يؤرقه طوال الليل. ماذا؟ هل نسيتم العتمة التي كنا فيها؟ البرد؟ والوحدة؟ كيف تحكمون على باقي الناس؟

قالت هدى تلك الكلمات، ثم انفجرت باكية بكاء هستيريًّا جعل الجميع يتعاطف معها. لذلك تحركت فوزية:

- حسنًا، ليعد كل واحد إلى عملـ...

لم تتم جملتها؛ لأن الأرض من أسفلها اهتزت.

وقفت هدى، وبدا الرعب على الجميع، فأسرعت فوزية:

- لا تقلقوا، المنزل يعيد ترتيب نفسه؛ يفعلها كلما اختفى أحد الضيوف.

توقفت الهزة، وبدا أن كل شيء عاد لطبيعته، فأكملت:

- ليعد كل واحد إلى عملـه، اليوم مهم، وعلى الجميع الالتزام.

لم تتحرك هدى، وقالت بصوت متحشرج:

- كل مرة يختفي أحدهم، لكنها لم تختفِ؛ إنها.. إنها قتلت.

قالت فوزية بحزم:

- كلا، هي قتلت منذ زمن. لا تنسي ذلك، وتذكري، لا تعبثي مع ملاك البيت. هيا، إلى عملك.

***

دخلت سوسن إلى غرفة المستشفى التي تقبع بها هبة. ما تزال ممددة على الفراش، وهذا الفتى يجلس بجانبها. اعتدل ما إن رآها تاركًا يدها تسقط من بين أنامله. إذن هذا هو، هذا هو أحمد. فتى أسمر البشرة، طويل ورفيع، ولديه هاتان العينان اللتان لا تستطيع الهرب منهما، لا بد وأن تتأملهما. مسكينة هبة، لم تكن لديها فرصة أمامه.

- بالطبع أنت أحمد.

هز أحمد رأسه:

- لا بد وأنها تحدثت عني كثيرًا معك، ولـــ...

- لم تتحدث عنك لا من بعيد أو قريب، لقد خمنت ذلك من حديثهم بالخارج.

تفاجأ أحمد من طريقة حديثها معه، فابتعد عن الفراش مسرعًا بسبب تقدمها نحوه. جلست سوسن بجانب حفيدتها غير مهتمة بوجوده في الغرفة. تذكر أحمد كلمات هبة المقتضبة عن جدتها؛ لم تكن تبالغ عندما وصفتها بالسمكة الباردة.

تحرك نحو الباب، فسارعت سوسن:

- ألا تخاف أن تراك عروسك وأنت تمسك بيدها هكذا؟

تجمد أحمد والتفت:

- هنا تعرف أن العلاقة بيني وبين هبة قوية، هبة بالنسبة لي كل حياتي.

ضحكت سوسن ونظرت إليه:

- كلها إلا ربع. هيا، هيا اخرج لعروس «باربي» خاصتك، فهي تتدلل أمام ذلك الطبيب الوسيم.

استشاط أحمد غضبًا:

- أنت تفهمين الموضوع بشكل خاطئ. أنا فقط احتجت بعض الوقت. ما زلت أحب هبة وبـــ...

- بلا حب، بلا... اخرج من هنا؛ فأنا لا أريد لهبة الاستيقاظ لترى وجهك.

فتح باب الغرفة، ليدخل محمود وخلفه هنا.

تبادل محمود النظرات مع أحمد:

- ما الأمر؟

قال أحمد وهو يهم بالخروج:

- لا شيء، مجرد سوء تفاهم. أنا أقدر الحالة التي تمر بها.

وقفت سوسن لتصرخ:

- أي حالة تلك؟

تدخلت هنا ووقفت بينهما:

- هو لم يقصد يا «طنط»، الموضوع أن أحمد يشعر بالذنب لأن هبة انتحرت بسبـ...

ضحكت سوسن ثانية، ولكن تلك المرة بطريقة هستيرية مجنونة جعلت الجميع ينظرون إليها بخوف:

- «طنط» من أيتها البلهاء؟ وانتحار ماذا؟ هبة انزلقت قدمها وهي تتحدث مع هذا الشيء الذي يقف هناك.

قالت هنا:

- لا داعي لطريقة الكلام تلك يا طـ... يا هانم، أحمد لم يفعـ...

قالت سوسن مسرعة:

- اخرسي! لا أحمد ولا زفت. كان شؤمًا عليها، حمدًا لله أنه ذهب إلى مصيبة أخرى.

أسرع أحمد بالخروج من الغرفة، وخلفه هنا تحاول تهدئته. أغلق محمود الغرفة وعلى شفتيه شبح ابتسامة، ثم تقدم وجثا أمامها:

- بعيدًا عن هذه المسرحية، أريد كلمة شرف منك. هبة لم تحاول الانتحار، أليس كذلك؟

أشاحت سوسن بوجهها بعيدًا:

- كلا، من المستحيل أن تفعل ذلك.

اختنق صوتها وبدأت في البكاء:

- لا أظنها تحبه إلى تلك الدرجة. من هو على أي حال كي تنتحر من أجله؟

أسرع محمود إليها وطوقها بذراعيه، فدفنت رأسها وبدأت في النحيب.

***

استيقظت هبة وهي تشعر بالإعياء، تحسست رأسها والضمادات التي تغطيه، ثم نظرت حولها فوجدت جدتها نائمة على أريكة مقابلة لفراشها. اعتدلت فجأة لأنها وجدت محمود يجلس على مقعد بجانبها ويراقبها في صمت.

- محمود! ماذا تفعل هنا؟

- أتشمس.

ابتسمت هبة وأرادت الضحك، ولكن صدرها يؤلمها قليلًا.

- تتشمس بالليل؟

ظهرت الجدية على وجهه:

- كيف تشعرين؟

- الحمد لله، أشعر بألم بسيط. محمود، ماذا بك؟ لم تنظر إلي هكذا؟

- لا شيء، ألا تتذكرين ما حدث؟

- كلا، لا أتذكر. حقًّا، ماذا بك؟ هل قالت جدتي شيئًا ضايقك؟

- على العكس، كانت لطيفة معي للغاية.

- حقًّا! جيد. هل عادت أمي إلى المنزل؟

- نعم، أنا من طلب منها ذلك؛ كانت متعبة و...

- جيد، الجلوس في المستشفى مرهق.

اقترب محمود منها وطبع قبلة على رأسها.

انكمشت هبة في فراشها:

- محمود، هل عادت الحالة لك ثانية؟

ابتسم بركن فمه:

- لم ترحل الحالة يومًا. استريحي الآن كي يوافق الطبيب على خروجك.

ابتسمت هبة ولم تعلق، ولكنها ظلت تنظر إليه حتى استغرقت في النوم.

***

- حمدًا لله، اليوم مر بسلام.

نظرت هدى إلى الساعة القابعة على الحائط:

- الساعة الرابعة والنصف، والشمس أوشكت على الظهور، سوسن هانم تغلق المنزل في تمام الثالثة.

قطبت فوزية جبينها:

- ماذا بك يا هدى؟ لقد مر اليوم على خير، لم تحبطينني هكذا؟

قالت هدى مسرعة:

- لم أقصد، كل الأمر أني خائفة.

- لا تخافي، لقد مر اليوم على خير؛ ساعة أخرى وستشرق الشمس.

- لقد ظهر بنيامين من قبل وقرص الشمس في منتصف السماء، كما إنه ظهر لغير ضيوف المنزل.

- المشكلة ليست في البيت، المشكلة فـ....

تراجعت فوزية عن مشاركة مخاوفها مع هدى. برغم كل تلك السنوات معًا إلا إن حياتها السابقة علمتها عدم البوح بأفكارها. شعرت هدى بترددها، فقالت:

- ليس المهم أين، المهم ألا يظهر ثانية.

- المهم أن اليوم مر بسلام. لنعش يومًا بيوم، فقط اطمئني قبل رحيلك على «مدموزيل» سارة.

***

نظرت سوسن إلى ساعة يدها، ثم تطلعت إلى حفيدتها تراقب تنفسها وتتأكد من كونها على قيد الحياة. فتح باب الغرفة فجأة ودخل رجل غريب. جلس أمامها دون أن ينطق، حاملًا في يده مجموعة من الملفات والأوراق.

- هل عدلت الوصية يا سيد؟

- طبعًا يا سوسن هانم.

نظر سيد حوله متفحصًا غرفة المستشفى الباهظة التي تقبع بها هبة. تخيلت سوسن الحوار الذي يدور في عقله الآن، وتعجبت من كون هذا الشيء هو ابن محاميها رؤوف، المهذب واللبق، حتى ملابس أبيه دلت على رقي

أخلاقه. برغم أنه جاء من قرية بعيدة، إلا إنه أجاد التعامل مع الناس، على عكس هذا الـ «سيد» الذي يجيد عد المال فقط.

قطع سيد حبل أفكارها:

- كيف حال المهندسة هبة؟

- الحمد لله، بضع ساعات ونعود إلى المنزل.

- كنت أحتاج إلى توقيعها على بضعة مستندات.

- ليس اليوم.. تعـ...

- لا، لا وألف لا، من المستحيل أن أدخل هذا المنزل ثانية.

- آه، نسيت. حسنًا سأحضرها لك الأسبوع القادم.

- حسنًا، سأجعل السكرتيرة تحدد لك موعدًا وتبلغك إياه.

قالها ثم انحنى بطريقة غريبة، وكأنه يريها صلعته التي تتوسط شعره المبلل بالعرق، ثم غادر الغرفة. ابتسمت سوسن وهي تتذكر منذ بضع سنوات؛ عندما جاء سيد لأول مرة إلى المنزل، خلفًا لأبيه في متابعة أعمالها، ومن غباء الخادمة أدخلته غرفة الاحتفال. عندها ظهرت مرفت، الراقصة اللعوب، أغوته حتى صعد معها إلى إحدى الغرف. الغبي تاه في المنزل ثلاثة أيام، والجميع يبحث عنه. حمدًا لله أنه لم يقابل الكناس.

عادت سوسن إلى مراقبة حفيدتها. أوشكت على فقدها كما فقدت أباها. تلك السمراء النحيلة، بشعرها الأسود الناعم القصير، إنها فتاة، ورغم ذلك فهي تشبه أباها كثيرًا، في الحقيقة هي نسخة مصغرة منه، حتى طريقة حديثها، وغضبها، وصمتها، والحزن في عينيها. ربما عدم رغبتها في وجودها في المنزل ليست من أجل سلامتها، ولكن لأنها تذكرها بابنها.

فتح الباب، فأسرعت سوسن تمسح دموعها. وقف محمود يتأملها:

- أنهيت الإجراءات؛ يمكننا الرحيل الآن.

نظرت إليه سوسن:

- سأوقظها، انتظرنا بالخارج.

هم بالخروج، ولكنه توقف:

- لقد أكد لي الطبيب أنها بخير يا سوسن هانم، لكن إن شعرت أنها في خطر لا بد وأن تخبريني، حتى وإن أغضبها هذا؛ لأننا في النهاية نريد مصلحتها.

ترقرقت عيناها بالدموع:

- لا تقلق، هبة بخير.

ابتسم محمود ثم خرج. توجهت إلى هبة وأيقظتها بحنان، ثم بدأت مهمة تغيير ملابسها. وجدت بعض المشقة؛ فهي امرأة مسنة، وصحتها خارج المنزل ليست على ما يرام. انتهت من ربط حذائها، وتطلعت إلى وجهها الأسمر الشاحب، ثم عقصت شعرها الناعم خلف أذنها وابتسمت، فردت هبة عليها بابتسامة متعبة.

اقتحمت أمها الغرفة صارخة:

- لقد كانوا محقين، أنت حقًّا تنوين أخذها إلى هذا المكان ثانية.

تبادلت سوسن النظرات مع حفيدتها، ثم نظرت إلى أحمد بغضب وهو يدخل من الباب خلف سامية، قائلة:

- بالفعل يا سامية، أنا سأعيد هبة إلى المنزل.

قالت سامية غاضبة:

- ألا تكفيك أول مرة؟ البنت أوشكت على الموت.

تنفست سوسن كي لا تفرغ غضبها، وقالت بهدوء:

- هبة وقعت. من الممكن أن تقع في أي مكان آخر، والحمد لله، لم يحدث شيء.

- ولكنها ابنتي أنا، ابنتي ولن أتركها ترحل معك.

نظرت سامية إلى ابنتها وبدأت دموعها في الانهمار:

- هبة، أنا أمك. أعلم أني لم أقف بصفك في الفترة الماضية، ولكن ماذا كنت سأفعل؟ هبة، هيا نعد إلى المنزل.

لم تعلق هبة، بل ظلت تنظر إلى الجميع وكأنها تراهم لأول مرة. جاء محمود من خلفهم:

- ماذا بكم؟ المستشفى بدأت في التجمع على أصواتكم المرتفعة.

سامية: «الهانم تريد أخذها».

أحمد: «من الأفضل أن تظل هبة معنا؛ كي نرعاها».

لم تعلق سوسن، ولكنها نظرت إلى محمود وكأنها تستعطفه لمساعدتها، فأمسك بعمته:

- هل سأل أحدكم هبة عما تريد؟

قال أحمد بغضب:

- إنها متعبة الآن، ومن المفترض أن نتـ...

قال محمود مقاطعًا له:

- هبة بخير، ليست متعبة، يمكنها سماعنا على أي حال. هبة، ما رأيك؟ إلى أي منزل تودين الرجوع؟

تفحصت هبة الجميع وخيل إليها أنها تستطيع سماع أفكارهم: أحمد مدفوع بشعور الذنب، وربما شخصيته العنيدة تتصارع مع شخصية جدتها، التي لا تختلف كثيرًا عنه، ولكنه لا يريدها حقًّا، أما أمها فهي خليط من الخوف والذنب، مع تحمل المسؤولية وكلام الناس، أما محمود فيلعب دوره جيدًا، إعطاؤها الحرية ليس من طباعه، ولكنه يريد إغاظة أحمد، لذلك سيعارضه دائمًا. لكن جدتها تمثل لغزًا، تصرفاتها المريبة تجعلها حائرة؛ كل ما فعلته منذ أن وطئت قدمها المنزل يدل على عدم رغبتها في وجودها، ولكن الآن تبدو وكأنها ستموت لو رفضت الذهاب معها.

هبة: «أريد التحدث مع أمي.. على انفراد».

ارتعش جسد سوسن، وظل صدرها يعلو ويهبط سريعًا وكأنها توشك على الانفجار. خرج الجميع، ثم نظرت سامية إليها:

- من فضلك، ابنتي تريدني.

خرجت سوسن وهي تحكم شالها على جسدها وكأنها تمنع نفسها من صفع سامية على وجهها.

مر بعض الوقت، ثم خرجت سامية باكية؛ فعرفت سوسن أي مكان اختارته هبة. دخلت وعلى شفتيها ابتسامة النصر. تقدم محمود لدخول الغرفة، ولكن أحمد دفعه ودخل قبله متجهًا نحو هبة يساعدها على الوقوف. وقفت بصعوبة وحاولت السير. راقبها محمود من بعيد، ثم أمسك بها فجأة وحملها بطريقة سينمائية جعلتها تصرخ معترضة. ولكنه لم يهتم، وأكمل السير رغم صراخها وتوسلاتها لينزلها. ألقت نظرة على وجه أحمد، الذي يوشك على الانفجار غضبًا لولا نظرات هنا الغاضبة.

وصلت أخيرًا إلى السيارة وكل المارة يحدقون إليها. سمعت تهامس فتاتين، وإعجابهما بعضلات محمود المفتولة؛ سبته في أذنه ليسمعها ويضحك. كل هذا يحدث وأحمد يمشي بسكون خلفهما. لو أن النظرات كالطلقات لكان جسد محمود أشبه بمصفاة. أجلسها بداخل السيارة، ثم ذهب ليحضر حقيبتها. انتظر أحمد حتى رحيله، ثم فتح باب السيارة ليجثو بجانبها:

- هبة، أتمنى أن يكون قرارك هذا نابعًا من داخلك، ولم تتعرضي للضغط من أي شخص.

تطلعت هبة إلى وجهه لبعض الوقت. أفكارها تتزاحم بداخل رأسها، أرادت قول الكثير من الكلام، ولكنها اختارت كلماتها بعناية:

- اعتن جيدًا بهنا.

هم أحمد بقول شيء ما، ولكن محمود له بالمرصاد، فأغلق باب السيارة وانطلق سريعًا إلى منزل جدتها.

- أين جدتي؟

- ستأتي بسيارتها خلفنا.

- حسنًا.

راقبت هبة الطريق في صمت، ولكنها شعرت بمحمود ينظر إليها كل بضع دقائق، حتى قال أخيرًا:

- ما رأيك؟ لقد أشعلته غضبًا.

- من؟

- أحمد طبعًا.

- آه، حسنًا.

- حسنًا! ما الأمر؟ من المفترض أن ترقصي فرحًا.

همت بقول شيء، ولكنها توقفت لتفكر، ثم قالت:

- أعلم؛ من المفترض أن أفرح لأنه ما زال يغار علي ويكن لي المشاعر، لكن في الحقيقة أشعر بالضيق، والخوف، والقلق، لا أعرف كيف أحدد شعوري تجاهه. لكن ما أعرفه حقًّا وأسأله نفسي مئة مرة هو: كيف أحببت شخصًا مثله؟ شخصًا لا يعرف ماذا يريد؟ في الحقيقة أشعر بالشفقة عليه، وأختنق كلما فكرت فيه.

انتهت هبة من حديثها، ثم تطلعت إليه وهو ينظر إليها وعلى شفتيه شبح ابتسامة. تعجبت منه قليلًا، ولكنه محمود. ربما تعجبت من نفسها أكثر؛ لم تكن يومًا صديقة له تطلعه على مشاعرها، فلم الآن تخبره بأفكارها؟

عاد محمود إلى مراقبة الطريق:

- هل تعرفين ما معنى هذا؟

هزت هبة رأسها بالنفي فأكمل:

- هذا يعني أنك توقفت عن حبه، أنت حرة الآن.

قال الكلمات الأخيرة وهو يضحك، ثم مد يده إلى المذياع وقام بتشغيل أغنية ما وبدأ الرقص عليها. ابتسمت هبة وتعجبت من تصرفاته المجنونة، ولكنه محمود، لذلك راقبت الطريق في صمت. ولكنها عادت لتتذكر كلماته، وتساءلت: هل تخطت علاقتها بأحمد في تلك المدة القصيرة؟

***

استمرت سوسن في تتبع خطى محمود وهي تقود السيارة خلفه. تضاربت مشاعرها حوله؛ لا تعرف هل تحبه أم تبغضه. ربما تظن هبة أنها تكرهه بسبب ما فعلته أخته، لكن في الحقيقة السبب مختلف تمامًا؛ فرد فعل المنزل في أول مرة خطت قدمه داخله كانت مخيفة بالنسبة لها؛ شعرت هي فقط بتلك الهزة الغريبة التي اجتاحت حوائط المنزل لتعبر عن مشاعر مختلطة لم تستطع تفسيرها. لكن تلك الهزة حدثت عندما دخلت هبة أيضًا لأول مرة عندما كانت طفلة. نعم، المنزل يعبر عن مشاعره أيضًا. بالطبع لم تشارك

أفكارها مع أحد، ولا حتى خادمتها المخلصة فوزية؛ لأنها تعرف، في النهاية المصلحة تحكم.

تذكرت سوسن موقف سامية. لا تعرف ما قالته هبة لأمها، ولكنها سعيدة بهذا القرار. ارتعشت يدها فجأة وتذكرت شيئًا مهمًّا: هل قرار هبة الرجوع لأنها تريد حقًّا الابتعاد عن أسرتها؟ أم إرادتها مسلوبة بسبب المنزل؟ ربما المنزل يؤثر عليها بطريقة سيئة ويجعلها تأتي إليه ليفتك بها.

انتبهت سوسن للطريق فأوقفت سيارتها، ثم نظرت إلى المنزل وكأنها تحذره من المساس بحفيدتها.

خرج محمود مسرعًا وهو يضحك ويحاول حملها ثانية، ولكنها اعترضت كعادتها. ظلت سوسن تراقب هذا المشهد وهي تبتسم متذكرة شبابها، ومداعبات زوجها لها، وتساءلت: كم عامًا مر؟ أكثر من خمسين عامًا. من يصدق؟ اختفت ابتسامتها لما تذكرت نهاية زواجها، ثم دلفت إلى المنزل.

هبة: «توقف يا محمود، من فضلك!»

محمود: «سأحملك».

سوسن هانم: «اتركها تعتمد على نفسها».

محمود: «أظن أن هذا هو سبب أزمتك في الحياة».

توقفت هبة ونظرت إليه مقطبة الجبين:

- حقًّا!

قال محمود ضاحكًا:

- بالطبع يا فتاتي؛ من المفترض أن تتدلل الفتاة وكأنها لا تستطيع فعل شيء بمفردها.

- لماذا؟

قال محمود وكأنه يشرح خطة هجوم فريقه المفضل في كرة القدم:

- لأن هذا يجعل الرجل سعيدًا وكأنه أسد، كأنها من دونه لا تستطيع التنفس. في النهاية هذا يشعره برجولته.

قالت هبة مستنكرة:

- الرجل الذي ينتظر ضعف المرأة التي معه ليشعر برجولته ليس رجلًا من الأساس.

توقف محمود ثم نظر إليها غاضبًا:

- ومعنا عانس هانم تتحدث.

ضحكت هبة رغمًا عنها، لتتألم، فأسرع محمود إليها ليحملها، ولكن تلك المرة لم تقابله بالرفض. صعد الدرجات بجسدها النحيل، ثم وقف في منتصف الممر.

- أين حجرتك؟

- تلك على يمينك.

قالت سوسن صارخة من خلفهما:

- لا، ليست تلك.. التي تليها يا محمود!

- ولكن يا جدتي حجـ...

- لا، ستمكثين في تلك كي تكوني قريبة مني.

تحرك محمود ودخل الغرفة، ثم وضع هبة على السرير:

- هل تشعرين بالراحة؟

- نعم، شكرًا يا محمود، أتعبتك معي اليوم.

- حسنًا، ماذا سنفعل؟ أمر الله.

ابتسمت هبة، فبادلها الابتسامة، ثم هم بقول شيء ما، ولكنه تذكر جدتها فخرج من الغرفة:

- سأزورك غدًا.

هزت هبة رأسها ولم تعلق، لكن سوسن أسرعت لتتبعه قائلة:

- من الأفضل أن تتركها ترتاح بضعة أيام.

قال محمود مسرعًا:

- من الأفضل أن آتي وأطمئن عليها، كي لا تسوء حالتها ثانية.

قالت سوسن بصوت منخفض وغاضب:

- للمرة المليون: هبة لم تنتحر، هبة تعثرت ووقعت.

- أتمنى هذا فعلًا. ولكن لتعرفي، أنا لن أثق بك ثانية عليها؛ أنت السبب في تدهور حالتها.

قال لها تلك الكلمات ثم غادر مسرعًا. قاومت سوسن رغبتها في الصراخ، وذهبت تطمئن على حفيدتها.

***

تأكدت فوزية من أن هبة استغرقت في نوم عميق، ثم خرجت وأغلقت الباب ببطء شديد. وما إن التفت حتى صرخت.

رفعت سارة يدها لتهدئتها:

- «باردون».. آسفة، لم أقصد.

تنفست فوزية لتهدئ من نفسها:

- «مدموزيل» سارة، أنا من عليها الاعتذار. هل تحتاجين إلى شيء؟

ارتعش جسدها وهي تقول:

- هل صحيح ما يقال؟ سوسن هانم استخدمت الكناس مع فيفيان؟ ممـ...

لم تكمل جملتها وانفجرت باكية. أسرعت فوزية إليها:

- «مدموزيل» سارة، بالطبع أنت تعرفين سوسن هانم جيدًا. من المستحيل أن تستخدم الكناس إلا لضرورة قصوى.

- إذن سوسن هانم لا تقوم بحملة تنظيف للبيت؟

- بالطبع لا، ضيوفنا هنا فوق رأسنا، وجميعنا تحت أمرك وموجودون من أجل رفاهيتك وسعادتك.

ابتسمت سارة كطفلة صغيرة:

- حقًّا؟ هل أنت واثقة أن سوسن هانم لن تطردنا من هنا؟

- بالطبع لا، سوسن هانم تحبك، ومن المستحيل أن تتخلى عنك لأي سبب.

مسحت سارة دموعها وابتسمت:

- حسنًا، سؤال أخير: من تلك الفتاة التي قلبت المنزل رأسًا على عقب؟

اختفت ابتسامة فوزية:

- «مدموزيل» سارة، كل ضيوفنا لهم خصوصيتهم؛ من فضلك احترمي ذلك.

هزت سارة رأسها ثم أسرعت إلى غرفتها. تأكدت فوزية من دخولها، ثم هبطت الدرج متجهة إلى المطبخ.

- ماذا بك؟ تبدين متضايقة. هل الآنسة هبة بخير؟

- نعم، بخير لا تقلقي.

- حسنًا، ولكن قلقي عليك أنت. هل حدث شيء ما؟

- لن تتخيلي من خرجت من جناحها.

تركت هدى ما تفعله:

- من؟ سارة؟ أيعقل؟

- تخيلي، المسكينة مذعورة، تظن أن سوسن هانم ستطردها من المنزل.

ضحكت هدى قليلًا:

- إنها حمقاء حقًّا.

- هي ساذجة بعض الشيء.

- لقد تخيلت بعد ما حدث ليلة أمس أنها لن تخرج من جناحها أبدًا، خاصة أن سنويتها أمس.

- لقد عرفت بما حدث لفيفيان؛ لذلك كانت قلقة ومتوترة، لكني طمأنتها على أي حال.

أكملت هدى ما تفعله:

- أتمنى أن يهدأ البيت قليلًا.

هزت فوزية رأسها لتوافق على كلامها.

***

تقلبت هبة في فراشها الدافئ، ثم فتحت عينيها. تحسست صدرها.. ما زال الألم يؤرقها ما إن ينتهي مفعول المسكن. أمسكت هاتفها، إنها الثامنة صباحًا، لتستيقظ إذن.

انتهت من ارتداء ملابسها عندما سمعت صوت طرقات على الباب، فتحته لتجد شابًا يقف مبتسمًا لها.

- صباح الخير!

تفحصته، ثم قالت مترددة:

- صباح الخير. من حضرتك؟

- أنا دكتور ســ... دكتور سعيد، جئت أطمئن على حالتك.

- جدتي طلبت حضورك؟

- نعم، سوسن هانم بعثت بي لأطمئن عليك.

ترددت هبة: هل تفتح الباب وتتركه يمر؟ أم تطلب منه الحضور في وقت آخر؟

- هل تفضلين حضوري في وقت آخر؟

أسرعت هبة:

- كلا، تفضل.

لم تعرف لم أجابت بتلك الطريقة، ولكنها فتحت باب غرفتها على مصراعيه وجعلته يمر متفحصة شكله. شاب أسمر طويل، ذو شعر أسود ناعم، يرتدي قميصًا أبيض وبنطالًا من القماش الأسود. بدت عليه موضة الثمانينيات وهو يدلف إلى الغرفة. فكرت كم يحتاج إلى إعادة تهيئة في كل شيء؛ ملابسه التي تبدو ملكًا لأبيه، وشعره الذي يحتاج إلى قصة جديدة وعصرية.

جلس دكتور سعيد على أقرب مقعد وبدأ في إخراج أدواته من حقيبة صغيرة يحملها، وهبة تراقب كل تحركاته. لا تعرف لم تحولت إلى فتاة فضولية، ولكن شيئًا به جذبها، ليست تلك الجاذبية بين رجل وامرأة، ولكن جاذبية من نوع آخر. لا تعرف لماذا، ولكنه بدا مألوفًا لها.

أشار بيده، فجلست أمامه على طرف فراشها، ثم شرع في قياس ضغط دمها. ابتسم لها وهي تراقبه وكأنه قطعة من الحلوى:

- هل تشعرين بأي ألم؟

انتبهت هبة لسؤاله:

- كلا، بل، نعم، نعم، أشعر بألم في صدري.

- حسنًا، هلا تمددت ورفعت ملابسك لأقوم بفحصك؟

ندمت أنها أخبرته بذلك، ولكنها تمددت على أي حال ورفعت ملابسها. أمسك سماعته، ودون أن ينظر إليها أو إلى جسدها:

- تلك المنطقة تؤلمك عند التنفس؟

- نعم، مع كل نفس.

- حسنًا، لقد اطمأننت عليك.

قالها ثم تراجع ليفسح لها المجال لتعيد ملابسها ثانية. فتح الباب، وبرزت سوسن تحمل في يدها صحيفة عليها بعض الأطعمة. توقفت مذهولة تراقب المشهد.

ابتسم الطبيب لها:

- كيف حالك سوسن هانم؟

ارتسمت على وجهه تلك الابتسامة التي تقسم هبة على رؤيتها في مكان ما. هذا الشاب يبدو مألوفًا لها وهي لا تعرف لماذا. ولم جدتها تقف مذهولة هكذا أمامه؟

- أنت! ماذا تفعل هنا؟

- أليس هذا هو الدكتور سعيد؟ جئت به ليطمئن على صحتي؟

تراخت سوسن وقالت مبتسمة:

- نعم، بالطبع. دكتور سعيد، أنا آسفة، لم أتعرف عليك.

تقدمت لتضع الصحيفة على أقرب طاولة، ومدت يدها وهي ترتعش إلى الطبيب الشاب لتحيته. شيء آخر جعلها ترتاب في جدتها؛ لم هي خائفة من هذا الطبيب؟ وإن طلبت حضوره من أجلها، فلم لا تستطيع التعرف عليه؟

- كيف حال هبة الآن؟

- بخير، الحمد لله.

قالها الطبيب وهو ينظر إليها مبتسمًا، ثم نظر إلى جدتها واختفت ابتسامته:

- ماذا حدث؟

مرة أخرى ارتعشت جدتها وقالت بصوت هامس:

- انزلقت قدمها ووقعت، مجرد حادثة.

راقبت جدتها وهي ترتجف أمام هذا الطبيب، جدتها القوية لاذعة اللسان، التي لا تهتم لأحد، خائفة من هذا الشاب النحيف.

اتجه الطبيب إلى حقيبته، ثم أخرج ورقة وقلمًا وبدأ في كتابة بعض الأشياء، ثم ناولها لجدتها:

- تأخذ هذا الدواء، وسآتي لأطمئن عليها غدًا.

قالها ثم اتجه إلى الباب غاضبًا وكأنه سيقتل جدتها. توقف واستدار لها:

- أتمنى أن تتحسن صحتك غدًا وندردش معًا.

ألقى نظرة أخيرة غاضبة على جدتها وغادر. همت هبة بسؤال جدتها عنه، لكنها تركتها وأسرعت خارج الغرفة تتبع الطبيب الشاب.

تمددت هبة على الفراش وهي تفكر كم أن جدتها مريبة حقًا. تصرفاتها غريبة ومتناقضة، ومنزلها هذا أشد غرابة منها. لكن الغريب بحق هو ما وقع لها؛ فهي لا تملك أي ذاكرة عما حدث. آخر ما تتذكره هو الصداع في رأسها ومكالمة أحمد. صوته أخذ بالانخفاض حتى اختفى تمامًا، ثم في أقل من ثانية كانت تنظر إلى أرضية الحديقة وهي تسقط من النافذة، التي لم تكن تعلم حتى بمكانها. اعتدلت لتنظر حولها وتساءلت: لم أعطتها جدتها غرفة مختلفة؟ شيء غريب آخر.

***

أسرعت سوسن تعدو خلف الطبيب الشاب وهو يقطع الممر الطويل، تأكدت أنها ابتعدت عن غرفة حفيدتها، ثم صرخت باسمه:

- سليم!

تجمد الطبيب ثم استدار:

- ما زلت تتذكرين اسمي!

صرخت سوسن باكية وهي تجري نحوه فاتحة ذراعيها:

- سليم، من فضلك، أنت أهم شخص لدي في هذه الدنيا.
- أهم من البيت؟
- أهم من أي شيء. سليم، من فضلك، اجلس معي؛ أنا اشتقت لك. تعال لأحضاني.

قالتها وهي تمد ذراعيها، فابتعد سليم مسرعًا:

- لا تلمسيني من فضلك.

قطبت سوسن جبينها:

- سليم، أنا أمك!
- كلا، لست أمي، أمي من المستحيل أن تقتل ابنتي.
- كلا، سليم، أنا لا أحاول قتلها، حدث خطأ.
- البيت حاول قتلها كما قتلني.
- سليم، من فضلك، اخفض صوتك؛ هبة تستطيع سماعنا.
- اتركيها تسمع الحقيقة، اتركيها لتعرف أن الرجل الذي فحصها توًّا هو أبوها، الذي حرمت منه بسبب منزلك هذا.
- سليم، أنا...

منعتها دموعها من إكمال جملتها. دون إنذار اختفى سليم، عندها انفجرت في البكاء وخانتها ساقاها فسقطت على أرضية الممر. صعدت فوزية الدرج مسرعة لتحملها إلى غرفتها.

- لم أره منذ عشرة أعوام، وعندما يعود يرفض الجـ...

لم تعرف فوزية بم تجيبها، فمنذ وفاة سليم وهي لم تره في المنزل إلا بضع مرات. ما زالت تتذكر حادثة وفاته، ما زالت تتذكر صراخ سوسن هانم، وارتعاش حوائط المنزل. تتذكر كل شيء وكأنه حدث أمس.

- اعذريه يا هانم، أنت تعلمين أن الدكتور سليم حساس بعض الشيء، فما بالك عندما يرى ابنته هنا؟

قالت سوسن وهي تمسح دموعها:

- وهذا ما يقتلني. هل تعرفين ما معنى ظهوره الآن؟ أنه يرى ويسمع كل شيء يحدث في المنزل، ولم يفكر في الظهور مرة واحدة ليطمئن قلبي. كنت أبكيه كل ليلة وهو يسمع نحيبي ولا يرق قلبه لي.

ناولت فوزية سيدتها كأس الماء:

- هذا هو اختياره، إنه حر، هذا ما تعلمناه عند دخولنا المنزل أول مرة؛ جميعنا أحرار في اختياراتنا، وهو اختار ألا يظهر.

- نعم، ولكني أمه؛ من لا تنام الليل إلا بعد أن تنادي اسمه مئة مرة لعله يظهر.

خفق قلب فوزية بقوة وهي تتذكر ماضيها، ثم أسرعت بالتحدث بصوت مرتفع لعلها تخرس ذكرياتها عن التدفق:

- هو يعرف ذلك، كما إني واثقة من محبته لك. ولكن التمسي له العذر؛ فما زال يشعر بالخيانة، ولذلك هو يعاقبك.

- ولكني لم أخنه، ولا المنزل، إنه هذا الوغد بنيامين، ليحرق الله روحه النجسة مئة مرة!

- اهدئي الآن يا هانم واستريحي، فأمامنا ليلة صعبة.

***

راقبت الخادمة وهي تضع الطعام أمامها كآلة متحركة خالية التعبير؛ فلا هي مبتسمة ولا هي غاضبة، لا شيء، مجرد وجه أبيض خزفي. ذكرتها بالعرائس الروسية بيضاء اللون. تفحصت هبة وجهها؛ شديدة البياض، رفيعة الوجه، يغطي النمش البني وجنتيها. جميلة، ولكنها باردة كالحجر.

انتهت من وضع الطعام أمامها ثم رحلت دون قول شيء. تفحصت طعامها وهي تقسم إن تلك المرأة وضعت سمًّا لها. تناولت غداءها على مضض، كل هؤلاء الخادمات، من أين جئن؟ وما مقدار المال الذي تملكه جدتها لتتكفل لهن معيشة كتلك؟ تذكرت وهي تخبرها أن الخادمات يعشن في غرفة في الطابق الثالث، لتذهب إذن وتستكشف هذا الطابق؛ تريد رؤية مكانهن.

أنهت طعامها ثم شكرت الخادمة التي وقفت على مقربة تراقب كل تحركاتها، ثم أخبرتها عن نيتها في النوم قليلًا لأنها متعبة. بالطبع تصنع

الغطاء المثالي كي تستطيع الصعود إلى الطابق الثالث والبحث عن غرف الخادمات.

صعدت إلى غرفتها وتحركت بخفة، ثم نظرت إلى الدرج، فنهايته بالطابق الذي يحتوي غرفتها. أين باقي السلالم التي تؤدي إلى الطابق الثالث؟ نظرت حولها، ثم قطعت الممر ذهابًا وإيابًا، لم تستطع العثور على أي شيء.

- اللعنة!

قالتها هبة وهي تنظر حولها؛ هذا المنزل ما زال يخفي أسراره. فكرت في ذلك وهي تدلف إلى غرفتها. أغلقت الباب، ثم قفزت صارخة.

- اهدئي، اهدئي، لقد جئت للاطمئنان عليك.

أمسكت هبة بصدرها، ثم توجهت إلى أقرب مقعد وهي تصارع لتتنفس.

- نوال، ماذا تفعلين هنا؟

اقتربت منها وهي تلقي بشعرها الأصفر إلى الخلف:

- جئت لأطمئن عليك؛ أنا سمعت بما حدث، وفيفيان تستحق الموت ألف مرة لما فعلته بك.

قالت هبة مقطبة جبينها:

- فيفيان من؟ وموت ماذا؟ وما لها بما حدث لي؟

توقفت نوال عن الحديث وبدا وكأنها تذكرت شيئًا لأنها وقفت فجأة:

- فيفيان من؟ أقصد أنك بخير. صحيح، أأنت بخير؟

تذكرت حديث جدتها عن جنون نوال:

- أنا بخير، الحمد لله، هل أنت بخير؟

قالت نوال صارخة:

- بالطبع أنا بخير، كما إن علاقتنا بخير. لا بد وأن تعرفي سوسن هانم، أنا أعاملك بطريقة جيدة ولا أخشى أحدًا؛ أنا هنا بمالي ولا يستطيع أحد طردي.

رمت نوال تلك الكلمات الغريبة، ثم أسرعت بالخروج من الغرفة محدثة صوتًا غريبًا بسبب فستانها الجلدي الأحمر القصير، وكعبها المدبب، تاركة هبة لأفكارها.

ما بال تلك المجنونة؟ فكرت في ذلك وهي تراقب الباب. هي تظن حقًّا أنها ستبلغ عنها الشرطة! أو أن جدتها ستقوم بطردها! ابتسمت وهي تتذكر فستانها القصير، وقاومت رغبتها في السير مثلها؛ قدمًا أمام الأخرى كما تفعل عارضات الأزياء، أو كما يطلق عليها العامة: «مشية القطة».

تمددت على الفراش تتطلع إلى سقف غرفتها. تذكرت مهمتها في البحث عن غرف الخادمات، وفكرت أنه سيكون من الأسهل اختراق السقف لترى ماذا يوجد بالدور العلوي. فكرت في البحث عن أماكن أخرى لتنفذ مهمتها، حتى رن جرس الهاتف. تطلعت إلى الاسم، ثم أخذت نفسًا عميقًا.. أحمد..

- هبة، هل أنت بخير؟

- الحمد لله.

عم الصمت حتى ظنت أنه أغلق الهاتف، ولكن صوته جاء هامسًا:

- أنا.. ما زلت أحبك.

ارتعشت يدها وهي تمسك الهاتف. عادت تنظر ثانية لتتأكد من اسم المتصل.

- هبة، لم لا تجيبينني؟

لم تعرف بم تجيب، هل تخبره أنها ما زالت تحبه؟ وهل ما زالت حقًّا تحبه؟ أم إن مشاعرها اختلفت الآن؟

- لا أعرف ماذا أقول.

- لا داعي لقول شيء. هبة، سآتي إليك الآن ونذهب إلى أقرب مأذون ونعقد قراننا، فأنا ما زلت أحبك.

- وأنا.. أنا لا أعرف.

جاء صوته غاضبًا:

- لا تعرفين ماذا؟

- أحمد، أنا لست رد فعل لإحساسك بالذنب. لقد خنتني مرة، ما الذي يمنعك من تكرارها؟

- لأني أحبك.

- ألم تحبني من قبل؟ ما الذي تغير وجعلك تحبني الآن؟

- هبة أنا...

تماسكت وقالت بصوت مرتفع:

- سأخبرك أنا. أنت لا تعرف ماذا تريد، كانت بين يديك فرصة جيدة ولكنك أضعتها. الآن أقول لك آسفة، ولكن مشاعري تغيرت.

قالت تلك الكلمات ثم أغلقت الهاتف. صدرها يعلو ويهبط من فرط الإثارة وهي تنظر إلى الهاتف. أرادت البكاء، ولكن شيئًا ما منعها. أخذت نفسًا عميقًا ووضعت الهاتف بجانبها، ثم ابتسمت؛ فقد شعرت أن ثقلًا غريبًا أزيح من على عاتقها.

***

دقت الساعة الثامنة مساء وفوزية تضع اللمسات النهائية على طعام العشاء. مدت إحدى الخادمات يدها لتأخذ الصحن، فصفعتها على يدها بقسوة. أمسكت الخادمة يدها ثم انحنت بأدب وتراجعت.

في الحقيقة تصرف فوزية لم يكن نابعًا من قسوتها، ولكنها أرادت وضع الطعام بنفسها أمام هبة؛ طبق مدسوس به مادة منومة، لا يمكنها الثقة بشخص آخر ليضع الصحن الخاطئ ويسبب كارثة.

- هل الطعام جاهز؟

جاء صوت سوسن ليخرج فوزية من أفكارها.

- بالطبع يا هانم.

هزت سوسن رأسها، وهي تراقبها حاملة الطعام متجهة به إلى الطاولة. وما إن مرت بجانبها حتى قالت بصوت أقرب إلى الفحيح:

- هل أنت واثقة من الكمية؟ كي لا يتعارض المخدر مع الأدوية الأخرى!

قالت فوزية بثقة:

- لا تقلقي يا هانم؛ أنا قللت من الكمية من أجل المسكنات التي تأخذها الآنسة هبة.

هزت سوسن رأسها، ثم غادرت لتجلس على الطاولة تراقب باقي الخادمات وهن يضعن الطعام أمام هبة، الغارقة في عالمها الخاص. لم تتحدث منذ أيام إلا بضع كلمات، تلقيها في حال أرادت شيئًا ما.

راقبتها جدتها وهي تتناول عشاءها. ضربات قلبها تتسارع، وأفكارها المظلمة تأخذها في سيناريو كئيب عن وفاتها بسبب تفاعل الأدوية.

***

تخطت الساعة العاشرة، وسوسن تراقب حفيدتها وهي تجلس أمامها تقرأ كتابًا ما. كل بضع دقائق تقوم بالتثاؤب، فتظن أن المنوم بدأ مفعوله، ولكنها تعود لتقلب الصفحات. أغلقت هبة الكتاب فجأة:

- نسيت إخبارك شيئًا ما.

استيقظت سوسن من أفكارها:

- خيرًا؟

- نوال قامت بزيارتي منذ بضعة أيام.

تسارعت ضربات قلبها:

- نوال زارتك؟ لماذا؟

- تطمئن علي، أو بمعنى آخر: تطمئن على وضعها في المنزل.

- وما المقلق في وضعها؟

قالت هبة مبتسمة:

- هي بالفعل تبدو غير سوية؛ قالت كلامًا غريبًا عن أنها لم تؤذني يومًا، وأن علاقتي بها جيدة. آه.. كما إنها تمكث هنا بمالها.

انفجرت سوسن في الضحك:

- ألم أقل لك؟ مجنونة.

ابتسمت هبة في هدوء، وراقبت جدتها قبل أن تطرح عليها السؤال التالي:

- من هي فيفيان؟

ارتعش صوتها وهي تجيب:

- فيفيان من؟

- لا أعرف، نوال ذكرت اسمها.

- ولكنك تعرفين أن نوال مجنونة.

قالتها وهي تقسم على إذاقة نوال أنواعًا مختلفة من العذاب.

ابتسمت هبة في هدوء وعادت تطالع الكتاب في يدها. هادئة من الخارج، ولكن من الداخل رأسها يزدحم بالأفكار.

وقفت فجأة:

- أنا متعبة، بعد إذنك يا جدتـ... سوسن هانم.

ابتسمت سوسن بحنان:

- تصبحين على خير.

***

وضعت رأسها على الوسادة بعد يوم طويل، لم ترد النوم حقًا ولكن رأسها يكاد ينفجر، لذا قررت الاسترخاء قليلًا. مر بعض الوقت وهي في حالة غريبة؛ تكاد تقسم إنها نائمة، ولكنها تستطيع الشعور بما حولها. شعرت بفوزية تفتح باب غرفتها وتنادي اسمها أكثر من مرة، أرادت أن تجيبها، ولكن ثقل لسانها حال دون ذلك. الشيء الغريب حقًا هو شعورها الدائم أن هناك أشخاصًا موجودين في الغرفة، لا تستطيع تبين من هم، ولكنها تسمع حوار أكثر من شخص حولها، وكأن هناك مناقشة بين اثنين أو أكثر. بالطبع لا تستطيع التحرك، ولا تستطيع التمييز هل الأصوات في الغرفة حقًا أم في رأسها؛ لذلك لم يخفها الأمر كثيرًا. ما أقلقها حقًا هو صوت الموسيقى الذي يرتفع من الأسفل، وكأن هناك حفلة مقامة لم يدعها أحد إليها. حاولت الاستسلام للنوم، ولكن شيئًا ما يؤرقها، ربما كثرة الأدوية، أو ربما الأيام الماضية التي قضت معظم ساعاتها نائمة قد جعلت جسدها يأبى النوم. لذلك قررت الخروج من فراشها وتبين الأمر. دفعت الأغطية من على جسدها ببطء شديد، ثم كالسكارى سارت حتى وصلت إلى باب الغرفة. فتحته ببطء، وخرجت مستندة إلى

الحائط المقابل تستمع إلى الأصوات التي تتعالى بالأسفل؛ أصوات ضحكات ممزوجة بموسيقى، وكلمات تصدع من صوت عذب:

«حاسين إننا بنحب وبس.. عايشين لليل والحب وبس.. يا حبيبي الحب حياتنا وبيتنا وقوتنا.. للناس دنيتهم واحنا لينا دنيتنا».

بدأت تسترد وعيها قليلًا، وتعرفت على أغنية أم كلثوم. تسمرت في مكانها لما رأت شابًّا وفتاة يمران من أمامها أسفل الدرج حاملين كؤوسًا في أيديهما ويضحكان على شيء ما. ملابس الفتاة أثارت تساؤلات كثيرة في رأسها؛ فستان أسود بأكمام طويلة، ومنتفخ من الأسفل، يشبه كثيرًا ما اعتادت فاتن حمامة ارتداءه في أفلامها من فترة الستينيات.

هبطت الدرج وهي تنظر حولها.. المنزل المظلم الكئيب تحول إلى خلية نحل تنبض بالحياة: أضواء ساطعة، ضحكات عالية، وموسيقى، وحركة في كل مكان. تقدمت أكثر إلى تلك الغرفة التي تبدو كقاعة أفراح، والتي اعتادت تجنبها بسبب الظلام الدامس. تبدو الآن وكأنها مسرح صغير. وقفت في المنتصف تتطلع إلى جميع الوجوه. من كل هؤلاء الأشخاص؟ ولم يرتدون تلك الملابس من حقبة مضت؟ هل هي حفلة تنكرية أم ماذا؟

وكما تتطلع هي إلى الجميع، بدأ الحشد في النظر إليها نظرات استهجان. ألقت نظرة على نفسها، وتذكرت أنها ترتدي منامتها الصفراء؛ فتراجعت وهي تتحاشى نظراتهم، ثم تجمدت أمام جدتها، التي اعتادت رؤيتها بملابس فضفاضة طويلة وشال تريكو، الآن تقف أمامها بفستان أحمر مكشوف الصدر، ووجه تملؤه مساحيق التجميل. شعرت بشيء يلسعها في ذراعها اليمنى؛ لترى فوزية تحقنها بشيء ما بارد يسري في عروقها، ثم سقطت أرضًا وكل شيء حولها يتحول إلى اللون الأسود.

***

- هبة! هبة!

فتحت عينيها بصعوبة لتجده أمامها؛ ذلك الطبيب الشاب الذي فحصها منذ بضعة أيام. ماذا كان اسمه؟ نعم، دكتور سعيد. تتذكر الآن وهي تحاول الجلوس. رفع يده ليوقفها:

- كيف حالك الآن يا هبة؟

صدرها يعلو ويهبط بقوة وهي تصارع كي تتنفس. الأحداث تتوالى في رأسها. ماذا حدث بالأمس؟ شيء ما جعل حالتها أسوأ. كل ما تتذكره الأضواء الساطعة، و.. وجدتها! الآن فقط يمكنها التذكر، هناك حفلة بالأسفل، حفلة تبدو وكأنها سقطت من حقبة الخمسينيات.

حاولت الوقوف، فأسرع إليها الطبيب يمسك بها:

- ما زلت متعبة.

- أين جدتي؟

نظر الطبيب حوله:

- للأسف لا أعرف مكانها الآن، ولكن من الممكن أن أسأل الخادمة التي تقف بالخارج لتتنصت علينا.

تراخى جسدها وجلست على طرف الفراش:

- لماذا تتنصت علينا؟

ابتسم:

- يبدو أن سوسن هانم تراني خطرًا عليك.

لم تعلق هبة، بل ظلت تنظر إليه متسائلة.

اختفت ابتسامة الطبيب، وقال بصوت هامس وهو يراقب الباب:

- من الأفضل أن تهربي من هذا البيت، هناك خطر على حياتك. هبة، صدقيني، من الممكن أن تتعرضي للقتل هنا.

- حفلة أمس...

- الحفلات ليست مهمة، ضيوفها غير مؤذين، ولكن البيت نفسه لعنة.

- إذن كانت هناك حفلة ليلة أمس، ظننت أني أحلم.

نظر الطبيب ناحية الباب:

- نعم، كانت هناك حفلة، ولكن أخبريها أنك لا تتذكرين شيئًا. على الأقل حتى تهربي من المنزل.

- أنا لا أفهم، أنا لا أستطيع الرحيل، فليس لدي مكان أمكـ...

لم تكمل هبة جملتها؛ فالباب تحرك وبرزت سوسن هانم مقطبة الجبين ومنتفخة العينين. نظرت إلى اتجاه الطبيب، ثم إلى هبة، وبدا وكأنها لا تستطيع إيجاد الكلمات المناسبة، ولكن بعد لحظات من الصمت المريب:

- كيف حالها اليوم يا دكتور؟

تراخى الطبيب وقال مبتسمًا:

- للأسف تراجعت، من الأفضل أن تغير هذا المكان.

تبدلت ملامح سوسن وتبادلت النظرات مع الطبيب. مرة أخرى صمت مريب. لكن بدا لها وكأنهما يتبادلان حديثًا داخليًا، كأن الجميع يعرف شيئًا لا تعرفه هي.

أخيرًا خرج صوتها مع ابتسامة غريبة تزين ثغرها:

- على العكس؛ أنا أرى حالتها تحسنت كثيرًا، تحسنت إلى درجة أنها لا تحتاج إلى طبيب.

ابتسم الدكتور سعيد وبدا أنه قد فهم الرسالة، فهز رأسه في أدب وهم بالمغادرة، ولكنه توقف أمام باب الغرفة وقال موجهًا كلامه إلى هبة:

- من الأفضل أن تفعلي ما اتفقنا عليه.

قالها ثم غادر. حاولت هبة الوقوف، ولكن مرة أخرى تخذلها ساقاها.

أسرعت سوسن خلف الطبيب ممسكة بذراعه، فدفعها بعيدًا عنه.

- سليم، من فضلك!

ابتسم سليم:

- اطمئني، تلك هي آخر مرة تريننى فيها.

قالت سوسن وهي توشك على البكاء:

- من فضلك يا سليم!

- عجبًا! سوسن هانم، ألم تتحسن صحة هبة ولا تحتاج إلى طبيب؟

- سليم، انتظر، لو عرفت هبة من أنت، لو فهمت ما يحدث في البيت ستكون تلك نهايتها.

اختفت ملامح الغضب عن وجهه، واقترب منها ممسكًا يدها:

- ولذلك أطلب منك، لو أنك تحبين هبة بحق، أخرجيها من هذا المكان. أنا واثق أن نهايتها ستكون بسبب هذا البيت. أمي، أتوسل إليك، أخرجي هبة.

تساقطت دموعها وهي تنظر إلى عين ولدها الذي فارقها منذ سنين عدة:

- يمكنني السماح لهبة بالرحيل دون رجعة، ولكن بشرط؛ أن تعود لتعيش معي بشكل دائم، وليس مجرد زيارات عابرة.

قطب سليم جبينه:

- أنت تعلمين جيدًا رأيي في هذا المكان. من المستحيل أن أوافق على ما يحدث هنا.

نزعت سوسن يدها بعنف:

- ستظل هبة هنا إذن؛ فأنا أحتاج إلى وريث.

تحول سليم فجأة وهم بمهاجمتها، ولكنها حركت يدها في الهواء فاختفى. تراجعت سوسن وصدرها يعلو ويهبط، ودموعها تنساب على وجهها. الآن هي تعرف، لن يظهر لها ثانية، ربما يظهر لابنته ليحذرها. كان يتوخى الحذر، أما الآن فلن يفعل، سيهاجم بكل طاقته. هل تطلب من الكناس أن يمنع ظهوره؟ كلا، إنه ابنها. ربما هبة مهمة لها، ولكن سليم.. إنه قلبها.

مسحت دموعها، ثم أخذت نفسًا عميقًا وتوجهت إلى غرفة هبة ففتحت الباب:

- كيف حالك اليوم؟

- أزداد سوءًا كل دقيقة في منزلك هذا.

قطبت سوسن جبينها:

- تأدبي يا فتاة!

قالت هبة وهي تحاول الوقوف وتفشل:

- أدب ماذا؟ ماذا فعلت بي أنت وخادمتك الملعونة تلك؟

دخلت سوسن الغرفة وتقدمت نحوها بهدوء، ثم دفعتها تحت الأغطية:

- ماذا فعلنا بك؟ أنت بخير.

قالت هبة وهي تقاوم دموعها التي بدأت في التساقط:

- كيف؟ بخير كيف؟ ساقي لا تتحملني حتى إلى دورة المياه.

قالتها ثم انفجرت باكية. لا تعرف سبب تراجع حالتها هكذا، فليلة أمس شعرت أنها على ما يرام، أما الآن. نظرت إلى وجه جدتها ثم تذكرت. لقد حقنتها فوزية بشيء ما، شيء جعلها تغط في نوم عميق، ربما مخدر أو شيء آخر، ولكنه جعل حالتها أسوأ بكثير.

- فوزية حقنتني بشيء ليلة أمس، والحفلة.. كل هؤلاء الأشخاص.

ابتسمت سوسن:

- أشخاص من؟ وفوزية كانت في إجازة أمس، أظنك تحلمين عزيزتي.

همت بالصراخ، ولكنها تذكرت كلمات الطبيب فتراجعت، وبدأت دموعها في التساقط. ربما الخروج من المنزل هو الحل الأفضل.

رفعت هبة رأسها:

- ألم تكن هناك حفلة ليلة أمس؟

بصوت بارد أجابت سوسن:

- بالطبع لا، إنه حلم.

هزت هبة رأسها في استسلام:

- حسنًا، أريد البقاء بمفردي الآن؛ أحتاج إلى النوم.

غادرت سوسن غرفتها وهي تقسم على خنق فوزية بيدها. جرعة المخدر أكثر مما يجب، وتركت هبة في حالة جسدية ونفسية سيئة.

أسرعت تقطع الممر حتى وصلت إلى غرفتها، ولكن شيئًا ما تحرك خلفها، فتحركت سريعًا وهي تستعد للهجوم، ولكنها وجدت سارة ضئيلة الحجم مرتعشة الصوت.

- ما الأمر يا سارة؟

- لا شيء، أردت الاطمئنان على صحة «مدموزيل» هبة.

- آه، إنها بخير.

قالتها وفتحت باب الغرفة، ولكن سارة أوقفتها:

- أ... أقصد.. أنا كنت موجودة في حفلة أمس.. و... و...

بطريقتها الهجومية المعتادة:

- وماذا يا «مدموزيل» سارة؟

تراجعت سارة خوفًا:

- لا تخطئي فهمي يا مدام سوسن، أنا فقط أقول لك: بدلًا من معاملة «مدموزيل» هبة بتلك الطريقة، يمكن أن تعرفيها بالبيت وتبـ...

كشرت سوسن عن أنيابها واقتربت من سارة:

- التزمي حدودك، كما كنت تفعلين دومًا.

أحنت رأسها في أدب، ثم خطت مبتعدة عنها. راقبتها سوسن حتى وصلت إلى نهاية الممر، ثم التفت وقالت وسط دموعها:

- أحب إخبارك يا مدام سوسن بما لا ترينه ولا تشعرين به: البيت تغير منذ دخلته «مدموزيل» هبة؛ أنا وضيوف المنزل شعرنا بهذا. أحس الخدم بذلك، ولكنهم خافوا منك. وربما عليك معرفة أن سكان الغرف المظلمة عاودوا الظهور، وهذا شيء لم يحدث طوال فترة مكوثي هنا.

ألقت سارة هذه القنبلة ورحلت لتترك سوسن مذهولة. نعم، لقد شعرت باختلاف المنزل منذ وصول هبة، ولكن سكان الغرف المظلمة! هذا شيء لم تكن تعرفه. عليها التحدث مع فوزية، ولكن لتسترح الآن قليلًا؛ إنها تحتاج إلى الراحة بعد هذه الليلة الطويلة.

همت بدخول غرفتها، حتى استوقفها صوت فحيح من نهاية الممر؛ شيء ما يتحرك في الجزء المظلم. لمعت يد بيضاء كالخزف طويلة الأصابع، فعرفته على الفور؛ إنه هو، الكناس، لم يظهر الآن؟ تحرك بطريقته المرعبة من الأسفل إلى الأعلى. الآن يصعد إلى سقف الممر ليركض، حتى وصل إليها، ثم قفز ليقف أمامها. لأول وهلة تظنه بحجم طفل في الرابعة، ثم يبدأ في التمدد ليصل إلى ارتفاع ثلاثة أمتار. لم يظهر الآن؟ إنها تعرف بتلك الرابطة بينهما؛ لقد غضبت توًّا من سارة، ولكن لم يمر برأسها للحظة أن تسلمها للكناس، فلم يظهر لها؟ هل يحاول أخذ إذنها ليأكل سارة؟

- لا!

قالتها سوسن للكائن الواقف أمامها وكأنها تمنعه من افتراس قطعة حلوى. وقف الكناس لبرهة، ثم قفز إلى السقف ثانية ليختفي في الظلام.

تنفست الصعداء وهي ترى الظلام يبتلعه. اللعنة، لم يظهر الآن؟ لقد أكل فيفيان منذ بضعة أيام. تمر سنون طوال لا يأكل فيها، والآن هو جائع؟ لم تحدى سلطتها؟ في العادة يرحل دون حديث مباشر، لم تحتج يومًا إلى الصراخ في وجهه. اللعنة، المنزل حقًّا تغير منذ وصول هبة. ربما إخراجها من هنا ليس فكرة سيئة.

فكرت في هذا وهي تدخل غرفتها وتجلس على الفراش متذكرة أول مرة رأت الكناس؛ فقدت وعيها، فسكب أبوها دلوًا من الماء البارد على رأسها. شريط ذكرياتها يمر الآن أمام عينيها. أول مرة عرفت بهذا المكان كانت في التاسعة والعشرين، وسليم في العاشرة من عمره. تركته مع المربية في شقة الزوجية بالقاهرة، وجاءت لتعيش مع أبيها المحتضر. بضعة أعوام مرت كالبرق وهي تتعلم كل شيء عن المنزل من أبيها، الذي تعلمه من عمه، والذي تعلمه بدوره من أبيه. تلك قوانين عائلتها، أما المنزل فهو لعنة، أو ربما هبة. حتى الآن لا يمكنها تحديد كنهه، ولكنها ضحت بالكثير من أجله؛ ضحت بزواجها، وبـ... كلا، لم تضحِّ بولدها أبدًا، ولكنه أُخِذ منها رغم كل شيء.

بدأت في البكاء وهي تتذكر كيف قُتل سليم، كيف سقت دماؤه أرض المنزل. أخبرها أبوها يومًا أن المنزل يحتاج إلى أضحية كل مئة عام. بالطبع لم يختبر تلك النظرية يومًا، ولكنها الآن تعرف أنه محق. المنزل -ورغم كل سكانه- إلا إنه يحتاج إلى دماء طازجة. تفحصت حوائطه القديمة.. حتى الآن لا تستطيع تحديد هل تكره هذا المكان أم تحبه، ولكنها بالتأكيد تهابه.

***

رن جرس الباب، فتقدمت إحدى الخادمات لتفتحه. نظرت لترى من القادم، ثم أسرعت إلى فوزية، التي جلست ترتشف كوبًا من القهوة في المطبخ. همست في أذنيها بشيء ما، فامتعض وجهها وغادرت مسرعة لتستشير سوسن هانم.

- هل ما يزال واقفًا؟

- نعم يا هانم.

- وهبة ما تزال نائمة؟ أم إنـــ..

- مستيقظة يا هانم، وترفض الأكل.

نظرت إليها سوسن من تحت عويناتها وكأنها تلومها على كل تلك المشكلة، ثم عادت لتطالع المجلة التي تمسكها:

- أدخليه إلى غرفتها مباشرة، ربما يقنعها بتناول الطعام.

أسرعت فوزية تفتح الباب لمحمود:

- الآنسة هبة في غرفتها، أظنك تعرف الطريق.

قالت تلك الكلمات ثم أسرعت بالاختفاء داخل المنزل. تعجب محمود من تصرفها، ولكنه اعتاد نوعًا ما سكان هذا المنزل الغريب؛ لذا أدخل نفسه مغلقًا الباب خلفه، مما تركه في الظلام. نظر إلى ساعة هاتفه.. الواحدة والنصف ظهرًا، والمنزل مظلم كالقبر. حسنًا، إنه يعرف الطريق. وقف أمام غرفتها وطرق بطرف أصابعه. لم يتلقَّ ردًّا، فوقف ينظر حوله. هل يدخل؟ ربما تغير ملابسها! نعم، فليدخل؛ الممر مظلم وبارد، ومخيف. لذلك أمسك بمقبض الباب وحركه.

وقف بداخل الغرفة يتبين أين هي. الغرفة مظلمة، ولكنه استطاع رؤية جسدها أمام النافذة حيث يدخل ضوء ضعيف.

- هبة! هل أنت بخير؟

لم يتلقَّ ردًّا، ولكنها رفعت رأسها تتأمله في وهن، ثم عادت لتنظر من خلال النافذة.

تقدم أكثر، ثم فتح النافذة لتغرق أشعتها الغرفة، وتغلق هبة عينيها في ألم. أمسك بمقعدها وحركه ليواجهها.

- هبة، ماذا حدث؟ حاولت الاتصال بك أكثر من مرة.

قالت هبة بصوت ضعيف:

- لا شيء، أنا بخير. محمود، من فضلك ارحل عن هنا؛ هذا البيت به شيء خاطئ!

قطب محمود جبينه:

- بيت ماذا؟ هبة، كيف ساءت حالتك هكذا؟ كنت بخير!

حدقت إليه محاولة القرار: هل تخبره أم لا؟ هل تعرفه بوجود أشخاص يتحدثون في غرفتها كل ليلة؟ هل تطلعه على عمل جدتها الحقيقي؟ أم تبلغه بالحفلات الليلية؟ انفجرت في البكاء وارتمت في أحضانه، لم يتبين ما تحاول قوله، ولكنها ترتعش خوفًا. هبة، القوية المستقلة، التي ترفض مساعدة أي شخص لها، الآن في حالة يرثى لها. احتضنها بقوة كي يشعرها بالأمان، وفكر.. ربما هي محقة، ربما هذا المنزل به شيء ما خاطئ.

***

مر بعض الوقت حتى هدأت، ومر بعض الوقت حتى أقنعها بتناول الطعام، ثم قصت عليه كل شيء.

نظر إلى عينيها:

- متى سنعود؟

أبعدت وجهها لتنظر من النافذة:

- ليس الآن.

قفز محمود من مقعده:

- بعد كل ما قلتِه؟ لا تستطيعين إخراجه من رأسك؟

قطبت هبة جبينها وهي تحاول فهم ما يقصده، ثم ابتسمت:

- أنت مجنون، أليس كذلك؟ أخبرك أن المنزل به شيء مريب، جدتي تعمل في تهريب المجرمين، وأنت تظنني ما زلت أحبه!

شعر محمود بسخافة فكرته، ولكنه لا يستطيع إخفاء أن جزءًا من تمسكها بهذا المكان هو أن تبتعد عن أحمد وهنا.

- بعد كل ما أخبرتني به لا تريدين ترك هذا البيت! أنت تعيشين مع مجرمين ومجانين.

- ليسوا خطرين، جدتي تعيش معهم منذ سنوات.

- الشيطان لا يحرق شيطانًا مثله.

ابتسمت هبة؛ فقد أعجبتها الجملة، ولكنها لم تعلق، بل ظلت تراقب النافذة في شرود.

- يوجد حل آخر.

نظرت إليه هبة متسائلة.

- من الممكن أن نؤجر شقة مفروشة، وتعيشي بها أنت وعمتي إلى أن تنتهي هذه الأزمة.

نظرت إليه وهي تفكر. ربما تلك الفكرة ليست بسيئة، سيفيدها الخروج من هذا المنزل.

- أو تعيشي بمفردك.

- موافقة.

- ويمكن أن تـــ. ماذا؟ موافقة حقًّا!

ابتسمت بطرف فمها:

- لا أنوي محاربتك في كل كلمة، أنا أوافق. أخرجني من هذا المكان.

ابتسم محمود بدوره:

- تغيرت كثيرًا. سأبحث عن مكان، سأتحدث مع أصدقائي، ربما يعرف أحدهم شيئًا.

هزت هبة رأسها بالموافقة، فأسرع محمود ليمسك بيدها:

- لن أتأخر، إن شاء الله يومان وكل شيء سيكون جاهزًا. لكن أتوسل إليك، تناولي بعض الطعام، فأنا لن آخذ جثة معي.

ابتسمت وهزت رأسها بالموافقة. ربت على كتفها ثم ودعها.

***

مر يومان وهي تنتظر تلك المكالمة التي تخبرها أنه وجد الشقة المناسبة، ولكنه تأخر. بالطبع يحادثها عن محاولاته لإيجاد مكان مناسب، ولكن جميع الأماكن التي اختارها إما بعيدة أو باهظة بشكل مبالغ فيه. ستنتظر، المكان المناسب سيظهر. بالطبع خلال هذا الوقت نفذت وعدها بتناول طعامها بانتظام، وأخذ أدويتها في موعدها. ما زالت تتحاشى التعامل مع أحد، وما

زالت جدتها تتجنب التحدث معها، وناسبها هذا نوعًا ما. بالطبع تستغرق في نوم متقطع طوال الليل، تخترقه بعض الأصوات؛ سواء من غرفتها، أو القادمة من الأسفل، ولكنها تتقبلها مؤقتًا؛ لأنها تعرف أنها سترحل عما قريب. جعلها هذا الشعور تتحرر من الخوف والقلق. لا داعي لفهم أي شيء يحدث هنا أو محاولة تفسيره، إنها راحلة؛ ولذلك قررت الخروج من غرفتها. لا تحتاج إلى دفن نفسها، سترحل وتترك كل شيء خلفها. ربما تناولها الطعام جعلها قوية. على أي حال قررت التنزه حول المنزل. الشمس تقارب الغروب. فتحت الباب الخلفي للمطبخ، المطل على الحديقة، وبدأت في تحريك ساقيها. نعم، سيفيدها بعض الهواء النقي، وهنا لن تقابل إحدى الخادمات، أو حتى جدتها. ظلت تسير حتى تقاطع السور الخارجي للحديقة مع حائط المنزل، وقبل أن تقرر الرجوع لاحظت تلك الفتحة في الحائط، وكأنه باب رفيع يفصل بين سور الحديقة والمنزل. اقتربت أكثر لتتبين المكان، ولكن رائحة كريهة منعتها من الاستمرار. غطت أنفها بيدها ثم تقدمت أكثر. الرائحة تزداد، والظلام يلتقمها. اقتربت أكثر وهي تتوقع رؤية جثة حيوان ما متحللة، لكن لا شيء. على ضوء الشمس الباهت استطاعت رؤية تلك المساحة الصغيرة، المظلمة وكريهة الرائحة خلف المنزل. ربما هو الصرف الصحي، إنها تعلم أن تلك الأماكن القديمة ليست جيدة الصرف، وعادة هناك مشكلة أو أكثر. تراجعت قليلًا لتنظر إلى الأعلى.. إنها لا تستطيع التعرف على أي من تلك الغرف. غرفتها مشمسة وتطل على الحديقة الأمامية وليست الخلفية. تسمرت لما رأت امرأة ما تقف إزاء النافذة وتنظر إليها بثبات. شعرها أسود طويل، يتدلى على كتفيها، وترتدي ملابس غريبة نوعًا ما. اختفت المرأة دون مقدمات، ورغم ذلك شعرت أنها ما زالت تنظر إليها. ربما هي من نزيلات الغرف، ربما مجنونة كنوال، أو مجرمة، لذلك من الأفضل الابتعاد عنها؛ لذلك قررت الرجوع إلى غرفتها. عادت مسرعة إلى المطبخ، ولكن قبل أن تخطو إلى الداخل سمعت صوت جدتها.

- اللعنة!

قالتها هبة؛ فلم تكن تريد التعامل معها الآن. لن تستطيع الدخول من خلال المطبخ، ربما تمر من أمامه وتدخل من الباب الرئيسي، ولكن من في

المطبخ سيراها بسبب النافذة الضخمة. ربما تزحف من أسفلها. قررت أن تجثو على ركبتيها وتسير حتى تصل إلى الجهة الأخرى.

بدأت في المشي ببطء أسفل النافذة، حتى سمعت تلك الجملة:

- هبة لن تسامح أيًّا منا يا سوسن هانم؛ أنت حرمتها من أبيها، وأنا لن أحرمها معرفة الحقيقة.

تعرفت هبة فورًا على صوت الدكتور سعيد. ولكن ماذا يقصد؟

قالت جدتها:

- وهل تظن أنه من الذكاء إخبارها الحقيقة؟ انتظر يا سليم.. أنت ستدخل على هبة وتقول لها: «مرحبًا، أنا والدك، وبالمناسبة أنا ميت منذ أكثر من ربع قرن، وما زلت شابًّا لأني عفريت»!

سقط قلبها وهي تسمع تلك الكلمات. من هو أبوها؟ وكيف مات وهو أمامها الآن؟ وحقًّا، لم هو شاب؟ اللعنة! وقفت هبة غير عابئة بجسدها الظاهر أمامهما من النافذة. الآن تتذكر لم بدا هذا الطبيب الشاب مألوفًا، لم أحبت النظر إلى وجهه. بالطبع يبدو مختلفًا عن الصور الباهتة التي تملكها أمها، ولكنه هو، هذا هو أبوها.

توقف سليم عن الحديث وهو ينظر بفزع خلف أمه. اعتدلت سوسن سريعًا ونظرت خلفها، لتجد هبة واقفة تشير إلى أبيها:

- من هذا؟

أسرعت جدتها تقف أمامها في محاولة طفولية لتمنعها من رؤية سليم.

اقتربت هبة وأبعدتها في عنف، ثم وقفت أمام أبيها تتلعثم وتشير إليه. اقترب سليم منها:

- نعم يا هبة، أنا أبوكِ. اجلسي من فضلك؛ فهناك الكثير من الكلام علينا قوله.

استسلمت وجلست، وما زالت عيناها معلقتين به. نظر إليها في حنان:

- بالطبع لاحظت أن هذا البيت يختلف عن أي مكان دخلته. كما لاحظت أن جدتك تكذب في كل كلمة تقولها.

نظرت هبة إلى جدتها فوجدت أمارات الغضب بادية على وجهها. نظر سليم بدوره إلى أمه وأكمل:

- يمكنك القول إن هذا المكان ملعون.

اعترضت سوسن:

- كلا، هذا غير صحيح! أنت لم تفهـ...

قال سليم في غضب:

- لا أفهم ماذا يا أمي؟ هبة.. أنا ميت من أكثر من سبعة وعشرين عامًا، ولكن للأسف روحي محبوسة في هذا المكان.

قالت سوسن في غضب:

- كلا، أنت لا تفهم شيئًا. هبة، ركزي معي أنا.. هذا البيت فرصة ثانية لمن غدرت الحياة بهم.

وقف سليم وبدأ في الصراخ:

- البيت نجس، ولعنة، وكفر بالله!

صرخت سوسن:

- كفر! لماذا؟ أنت متصلب التفكير.

راقبتهما وهما يصرخان وصدرها يعلو ويهبط. هل ما تسمعه حقيقي؟ هل هذا هو أبوها حقًا؟ وهل هو شبح؟

وقفت هبة وبدأت تسير مخترقة صراخهما الذي يصم الآذان. توقف سليم عن الصراخ وبدأ ينظر إليها.. خطت بضع خطوات ثم وقعت أرضًا.

نظرت إليه سوسن معاتبة:

- هل أنت سعيد الآن؟

***

جلست سوسن تراقب جسدها في الظلام.. صدرها يعلو ويهبط، إذن هي تتنفس. حاولت ترتيب الكلمات في رأسها؛ ما يجب قوله وما يبدو غريبًا فتحاول استبداله. ربما تقص عليها قصتها مع المنزل؛ قصة شخصية كتلك

ستجعل هبة تتعاطف معها، وربما توافق على البقاء في المنزل، فرغم كل شيء هي حقًّا تحتاج إلى وريث.

تقلبت في فراشها، فاقتربت أكثر لتربت على رأسها بحنان، ففتحت عينيها ودفعت يدها مع الأغطية.

- هو... هو...

قالت سوسن رافعة يدها:

- اهدئي و...

- اهدئي! وبعد ذلك ماذا سيحدث؟ هل هذا بالفعل أبي؟ لقد لمسني من قبل، أليس من المفترض أن يكـ...

- لا يوجد مفترض، في هذا المنزل تحديدًا انسي كل ما تعرفينه عن عالم العفاريت أو الأشباح.

هزت سوسن رأسها وكأنها تطرد فكرة غبية وأكملت:

- هم ليسوا عفاريت ولا أشباحًا، هذا توصيف سخيف وسطحي.

- هم؟

تنهدت سوسن بصوت مسموع:

- لذلك عليك أن تهدئي وتسمعي الحكاية من بدايتها.

جلست على طرف الفراش:

- وما الذي يضمن لي أنك لن تكذبي علي ثانية؟

شعرت سوسن بالإهانة، ولكنها ابتلعتها وقالت بصوت يملؤه اللوم:

- كل الأقنعة وقعت، وهذا هو الوقت المناسب لسماع الحقيقة.

توجهت إلى خزانة ملابسها وفتحت درجًا في أسفلها مخرجة بعض الأوراق المصفرة والصور القديمة، وبدأت في ترتيبهم ليتسقوا مع القصة التي تنوي قولها. ستخبرها كل الحقيقة، ليس للسبب السابق ذكره، ولكن لأنها وجدت رسالة محمود على هاتفها؛ رسالة بعثها لها بعدما فشل في الوصول إليها. يخبرها أنه وجد المكان المناسب لها لترحل عن هنا. الآن هي أمام تحدٍّ. كيف تقنعها بالمكوث بعدما قطعت كل الحبال التي توصلها بها؟

أغلقت سوسن درفة الخزانة، ثم نظرت إلى انعكاسها في المرآة. نعم، فلتكوني قوية وصادقة؛ لطالما احترمت هبة الصدق والقوة.

جلست أمامها ثم بدأت في سرد قصة المنزل:

- هذا البيت بني تقريبًا في القرن 19، على يد مهندس إنجليزي عرف باسم: الخواجة بوركهارد. هذا الخواجة نزل مصر في زيارة في أواخر القرن، واستقر فيها بعدما بنى هذا البيت. أهم شيء عليك معرفته أن الخواجة كان «عالم كشكول» كما يقولون؛ له في فن العمارة، ويعرف الكيمياء، والفيزياء، وغيرهما من العلوم. مجنون قليلًا، ولكنه عبقري. تزوج بامرأة تدعى هيلين، ولديهما طفل وحيد اسمه ألبرت. حياتهما كانت طبيعية نوعًا ما، باستثناء التصرفات غير الطبيعية للخواجة، والحالة النفسية الهشة لزوجته، والتي اعتاد الخادمون عليها. كبر ألبرت وسافر إلى إنجلترا ليكمل تعليمه، ثم عاد لمصر عندما أكمل الواحد والعشرين، ولكن هذه المرة عاد مع مجموعة من أصدقائه.

توقفت سوسن عن الحديث وأعطتها صورة مصفرة ومتهرئة لرجل يبدو في الخمسين من عمره، يرتدي الزي المميز للرجال في تلك الحقبة. بدت عليه الغلظة، والشارب الكثيف يغطي نصف وجهه.

- هذا هو الخواجة بوركهارد، أما هذه فهي زوجته، هيلين.

قالت تلك الكلمات ثم ناولتها صورة لامرأة تبدو أصغر سنًّا من زوجها. ارتعشت يد هبة وهي تحمل الصورة، ذكرتها بتلك المرأة التي رأتها هذا الصباح تنظر إليها من نافذة الطابق الثاني في الحجرة الخلفية للمنزل. دققت النظر إلى وجهها.. الصورة متهرئة، ولكنها واضحة لها. المرأة لم تحمل أي نوع من الجمال؛ اللون الأسود يظهر تحت عينيها، وشعرها الأسود المجعد ينسدل على كتفيها وهي ممسكة بمظلة وخلفها أصيص نبات.

قاطعت جدتها حبل أفكارها:

- أخذت تلك الصور هنا في المنزل.

راجعت هبة الصور ثانية مندهشة؛ تلك الأماكن من المستحيل أن تكون بالمنزل.

بدا أن سوسن سمعت أفكارها، فأكملت موضحة:

- البيت الأساسي كان أضخم، أو يمكنك القول إنه قصر، وكل الأراضي الزراعية من حوله تتبع ملكيته. بالطبع مرت السنون وهدمت أجزاء من المنزل، وأجزاء أخرى عُدلت، حتى تحول إلى تلك الفيلا الصغيرة.

ناولتها الصورة الأخيرة:

- وهذا ألبرت، ابنهما.

نظرت هبة إلى الصورة وهي تتوقع الشاب الوسيم الذي وصفته جدتها توًّا، ولكنه أشبه بأبيه؛ شارب كثيف، وملامح تدل على الغلظة والقسوة، خاصة أنه يمسك في يده سيفًا طويلًا وبجانبه كلبان شرسان.

- وكما قلت لك؛ ألبرت عاد من إنجلترا مع مجموعة من أصحابه، وبالطبع استضافهم هنا في منزله. وفي إحدى الليالي سمع الخدم صوت رصاصة مكتومة. قلب البيت رأسًا على عقب، واتجهوا إلى مصدر الصوت، فوجدوا ألبرت ممددًا في بركة من دمائه. حاولوا بالطبع إنقاذه، ولكن في أقل من شهر توفي ألبرت، وهرب أصدقاؤه إلى وطنهم.

توقفت سوسن عن الحديث وناولتها ورقة مصفرة أخرى، ولكنها باللغة الإنجليزية. قصاصة من جريدة إنجليزية قديمة، ولكن الكلمات واضحة. قرأت هبة العنوان، ثم نظرت إلى جدتها، التي بادرت:

- كانت قصة مشهورة وقتها، ومثل أي قصة مشهورة، توجد أكثر من نسخة لها؛ هناك واحدة تقول إن من قتله هو الخواجة بوركهارد نفسه أثناء مشاحنة بسيطة بينهما، ونسخة تحكي أن واحدًا من الفلاحين قتله لأنه اغتصب خادمة مع أصدقائه، ويوجد حديث عن أنه أمسك بلص يحاول السرقة، ونسخة أخرى تقول إن واحدًا من أصحابه هو من قتله لأنه منعه من اغتصاب خادمة ممن كن يعملن في القصر وقتها، وتقريبًا هذه هي أقرب قصة للحقيقة.

قالت هبة مسرعة:

- لماذا؟

خلعت سوسن نظارتها:

- لأكثر من سبب؛ أولهم أن ألبرت معروف عنه حبه للفلاحين والخدم خاصته، فلا أظن أن واحدًا منهم قتله، ومن المستحيل بالطبع أن يكون الخواجة هو من قتله، كما إن أصدقاءه هربوا في نفس يوم إصابته، وكذلك إحدى الخادمات، وحتى الآن لم تظهر.

- حسنًا، أكملي.

قالت سوسن وهي ترتدي النظارة ثانية:

- هنا أصبحت الأمور غريبة في القصر؛ تخلى الخواجة عن كل الخدم والفلاحين. هجر البيت، وبارت الأرض الزراعية، و... آه.. حسنًا، جثة ألبرت دفنت هنا في الحديقة.

اعتدلت هبة ونظرت إلى جدتها غاضبة، ولكنها لم تعلق؛ فقد علمت نوعًا ما بوجود جثة أو اثنتين في هذا المنزل القديم.

- المهم.. الخواجة اختفى هو أيضًا، ولكنه ظهر بعدها بشهر، وهنا بدأت الأمور الغريبة بحق.

- وهل كل ما سبق لم يكن غريبًا؟

- كلا، ما سبق مأسوي، ولكنه عادي. المهم.. القصر شبه مهجور. مكان كبير كهذا فيه ثلاثة أفراد فقط؛ الخواجة، وزوجته، ورئيس الخدم، الذي رفض تركهما.

قالت سوسن تلك الكلمات، ثم ناولتها الشيء الأخير الذي تحمله؛ دفترًا قديمًا مصفرة أوراقه. قلبته هبة بين يديها ونظرت إلى جدتها متسائلة.

- من كتب تلك المذكرات هو رئيس الخدم، وهي أشبه بالدليل الذي تركه للأجيال التي تأتي بعده؛ دليل التعامل مع هذا البيت.

توقعت أن تعلق حفيدتها بأي شيء، ولكن هبة مستغرقة في عالمها الخاص، لذلك أكملت:

- أنا مثل الذين سبقوني؛ لا نعرف كيف أصبح المنزل هكذا، ولكن كل ما أستطيع قوله إن الخواجة فعل المستحيل ليعود ولده للحياة. حاول بكل الطرق، فأحضر الأطباء من كافة أنحاء العالم، ولكن ألبرت مات. مع الأسف هذا لم يوقف الخواجة، وفي هذه الفترة –أقصد بداية القرن

العشرين– انتشرت موضة غريبة بين المثقفين؛ وهي موضة تحضير الأرواح. واختلط عالم الماورائيات بعلم النفس، وغيره من العلوم الأخرى. وطبعًا لأن الطب فشل في إنقاذ ابنه، فالخواجة اتجه إلى عالم الأرواح، وسافر إلى أماكن كثيرة؛ مثل الهند، والصين، وأمريكا الجنوبية، كل هذا ليعيد إحياء ابنه. في النهاية عاد إلى مصر واستقر في المنزل، وأرجع عددًا محدودًا من الخدامين؛ مثل الطباخ، وخادمتين لتنظيف المنزل، وجنائني للاهتمام بالحديقة، وبالطبع رئيس الخدم، الذي لم يتخلَّ عن العائلة. ومن هنا بدأت الأشياء الغريبة في الحدوث؛ أبواب الغرف تفتح وتغلق من نفسها، البيت أصبح باردًا ومظلمًا معظم اليوم...

- حسنًا، لم يتغير الأمر كثيرًا.

لم تعلق سوسن، ولكنها أكملت:

- حسنًا، انتهى الأمر بهروب إحدى الخادمتين، التي حكت أشياء غريبة؛ منها وقوع زميلتها من الدور الثاني، لتتهشم رقبتها، ثم ظهورها بعدها بيومين لتكمل مهامها في تنظيف المنزل، كما حكت عن أصوات منتصف الليل، والتصرفات الغريبة للخواجة، والظهور النادر للسيدة هيلين. بالطبع اتهموا الفتاة بالجنون، لتختفي بعدها مباشرة. مر شهران، ثم وجدوا جثة هيلين وقد شنقت نفسها في إحدى الغرف التي تطل على الحديقة.

عرفت هبة أن ما رأته شبح لها، فارتعشت يدها وهي تتفحص صورة هيلين مرة أخرى.

- وللأسف لم ينتهِ العام على خير؛ فالخواجة أطلق على رأسه النار لينهي حياته. وتلك نهاية العائلة كلها؛ عائلة الخواجة بوركهارد.

نظرت هبة إلى جدتها وقالت بهدوء شديد:

- وما أهمية كل هذا في الـ...

قالت سوسن مسرعة:

- صبرًا! أولًا: هذا البيت أسراره كثيرة، وأهم سر فيه أن الناس لا تموت هنا.

رفعت هبة رأسها وهمت باتهام جدتها بالجنون، ولكن سوسن سبقتها:

- بالطبع ستخبرينني أن هذا مستحيل، وأنه ضد الطبيعة والدين، وكل الكلام الذي قاله سليم قبلك، ولكني سأجيبك بنفس الطريقة؛ البيت أمامك، يمكنك التجول فيه كما تريدين، يمكنك استجواب أي شخص بالمنزل. بالطبع لاحظت الأشياء الغريبة التي تحدث هنا، كما لاحظت ضيوفه. هبة، سكان المنزل ليسوا فارين من الحكومة، ولكن من الموت؛ هذا المنزل يتيح لهم العودة للحياة ليوم أو أكثر. جميع ضيوفي لم يرتووا من الحياة، وهذا المنزل يمنحهم فرصة ثانية. الخواجة فعل شيئًا ما في هذا المكان، سحرًا، علمًا، الله أعلم، ولكن ما أستطيع إخبارك به أن من يموت في هذا المنزل يستطيع الظهور ثانية. ليس شبحًا كالأفلام، ولكن بجسده المادي؛ يأكل، ويشرب، ويرقص، ويغني. اعتبري هذا المكان فندقًا، وكل ليلة لدينا ضيف يحتفل بيوم وفاته.

- والمقابل؟

نظرت سوسن إليها متسائلة.

قالت هبة في حزم:

- وما المقابل؟ بالطبع أنت لا ترعين البيت لوجه الله.

كشرت سوسن عن أنيابها:

- بالطبع هناك مقابل، فهذا البيت اشتهر في أوساط معينة. ليس بسبب حادثة ألبرت، ولكن أغنياء أوروبا عرفوا به، خاصة من يحملون الجنسية الإنجليزية. أي رجل وامرأة يشعران باقتراب أجلهما يقرران إنهاء حياتهما هنا؛ ليعيشا تخيلاتهما، أو كما قيل: «يصنعان جنتهما الخاصة»، والمقابل الذهب. الذهب هو الشيء الذي لا يتغير مهما مر الزمن عليه. أخبرني أبي أن ألبرت تدخل ليمنع سرقة مخزون أبيه من الذهب، ولذلك قتل، وكتعويض عما حدث أصبحت العملة الوحيدة التي يتقبلها المنزل هي الذهب.

- ومن أين عرف كل هذه المعلومات؟

أخذت سوسن ما بيد هبة ووضعته جانبًا:

- وهذا هو الجزء الثاني من القصة، والذي عليك معرفته؛ علاقة عائلتنا بهذا البيت. هناك شيء ربما لا تعرفينه عني؛ أنا تربيت بعيدًا عن عائلتي الأساسية: فأمي توفيت منذ كنت طفلة صغيرة، وتركني أبي مع أخته لتتولى تربيتي، وسافر إلى الخارج. ولكن في الحقيقة كان أبي هنا، يراعي المنزل ويلبي احتياجات ضيوفه. أبي ورث هذا المنزل عن عمه، الذي ورثه عن أبيه.

- ألم يكن من الأولى تلبية احتياجات ابنته؟

ابتسمت سوسن:

- الحياة تأخذ دورتها، وكل شيء قد حدد. هبة، اتركيني أكمل لك علاقتنا بهذا المكان. ربما الخواجة هو الجد الأكبر لنا؛ فهناك تلك القصة أن الخواجة تزوج بامرأة مصرية بعد هيلين وأنجب منها فتاة، وهي من ورثت المنزل. هناك قصة أخرى عن أن الخواجة أورث المنزل رئيس الخدم، ونحن أحفاد هذا الرجل، وتلك هي أقرب قصة إلى الواقع، فمنذ وفاة الخواجة ونحن ورثة هذا المنزل؛ نملك مفاتيحه، نقول من يظهر ومن يختفي. كلمتنا مسموعة وتنفذ على رقاب الجميع. هبة، هذا المنزل يخفي أسراره، طوال حياتي وأنا في هذا المكان لم أستطع كشف إلا قشور بسيطة عن حقيقته وإمكانياته.

توقفت سوسن عن الحديث وظلت تراقبها وهي تنظر إلى يوميات رئيس الخدم، أو بالأحرى جدها الأكبر، وتتساءل عن المكتوب بها.

- سأتركك الآن لتستريحي وتفكري فيما قلته، وأعدك بالإجابة عن أي سؤال يطرأ على ذهنك.

هزت هبة رأسها في شرود:

- أود مطالعة تلك المذكرات على مهل.

- حسنًا، ولكن حافظي عليها.

هزت هبة رأسها، ثم قفز سؤال في رأسها:

- ألم تقولي إنهم يظهرون يوم وفاتهم؟ فلم رأيت نوال أكثر من مرة؟ وأثناء النهار؟

ابتسمت سوسن؛ فهبة بدأت تتقبل فكرة المنزل بسرعة، على عكس سليم، الذي قفز وصرخ، ودخن سجائره بتوتر. هبة أقوى، هبة هي المختارة.

- كما قلت لك: «المنزل ليس له قوانين محددة». نوال وغيرها يستطيعون الظهور وقتما يريدون. كما إن سكانًا لا يظهرون صباحًا، هم ليسوا مصاصي دماء، ولكنهم يفضلون الظلام؛ ولذلك أنا دائمًا أغلق مصابيح المنزل.

هزت هبة رأسها في صمت وهي تقلب المذكرة المهترئة. فكرت سوسن في إخبارها عن الكناس، ولكنها تراجعت عن فكرتها؛ فهي لا تريد إخافتها الآن لذلك قالت:

- أسرار المنزل لا تقال في جلسة واحدة، لذلك اجلسي مع نفسك أولًا، ثم سنتناقش بعد ذلك.

راقبتها وهي تخرج، ثم تناولت المذكرات. فتحتها ببطء كي لا تدمر الصفحات المصفرة والهشة، محاولة قراءة ما هو مكتوب. لقد مر زمن طويل حقًّا على تلك الصفحات، وربما بعض الماء. نصف المذكرة مسكوب عليه الماء، مما جعل الحبر باهتًا يوشك على التلاشي. هناك كلمات بالطبع، ولكنها لا تستطيع استنباط جملة واحدة مفيدة. قلبت الصفحات حتى وصلت إلى جزء من السهل قراءته، فهو بخط نسخ منظم وصغير، وكأن آلة كاتبة هي من خطته.

جدتها محقة، تلك ليست بمذكرات، إنها دليل استخدام للمنزل، أو بالأحرى للتعامل مع المنزل. بخط صغير منمق كتبت تلك الكلمات:

1 - الخادمات ينمن خارج المنزل.

2 - من الخطر إزعاج السيد بوركهارد وزوجته بعد الثانية عشرة ليلًا.

3 - من الأفضل لي النوم في الخارج لحراسة الفتيات.

4 - يجب الحذر من السيدة هيلين الآن.

5 - السيد الصغير لا يحب الضوء الآن، لذا من الأفضل إبقاء القناديل مغلقة.

توقفت هبة عن القراءة وقلبت المذكرة مرة أخرى في يدها. ماذا يعني هذا الكلام؟ ولم يجب عليه الحذر من السيدة هيلين؟ وأي سيد صغير يقصد؟ هل يقصد ألبرت؟ ألم تكتب تلك المذكرات بعد وفاته؟

نزعت هبة الأغطية وقررت الذهاب إلى جدتها، ولكنها توقفت. لا، عليها ترتيب أفكارها؛ فجدتها خادعة ولئيمة. فلتتفكر أولًا في تلك المذكرة بين يديها، لتنهِ القراءة ثم تحدد الأسئلة التي تريدها. بحثت حولها فوجدت قلم رصاص صغيرًا وبعض الأوراق، فجلست على الفراش، ثم بدأت تكتب أسئلتها.

أنهت قراءة المذكرة، ثم نظرت إلى الأوراق المتكدسة؛ والتي خطت بها أفكارها وأسئلتها. بدت الأسئلة سخيفة، خاصة أن المذكرات لم تجب عن أي سؤال، بل زادت حيرتها وتخبطها.

وضعت كل شيء جانبًا وأمسكت رأسها، لقد تمكن الصداع منها. هل تذهب الآن بأسئلتها إلى جدتها؟ قررت الذهاب إلى النوم، لعلها تستيقظ أكثر تركيزًا. ولكن للأسف لم تحظَ بالنوم الهادئ الذي طمحت إليه، بل تقلبات فراشية يتخللها الكثير من الأشخاص. الجميع يتحدثون محاولين إخبارها بقصصهم، ومن وسط كل هؤلاء برزت يد بيضاء بلون الخزف، أصابعها طويلة تحاول الوصول إليها. لم تلمسها بعد، ولكنها تشعر ببرودتها القاتلة. اليد تقترب وضربات قلبها تعلو شيئًا فشيئًا. اليد تقترب منها لتلمس وجهها.. صرخت هبة لتقع أرضًا.

صدرها يعلو ويهبط، وجبينها يتصبب عرقًا، وعيناها تبحثان في الغرفة عن اليد التي تحاول الوصول إليها. مرت برهة، ثم أيقنت أنه مجرد حلم سخيف. صعدت إلى الفراش وهي تلملم الأوراق، ثم نظرت إلى ساعة الحائط.. لقد مرت ساعة أو أكثر وهي نائمة. رتبت الأوراق، ثم قفز إلى رأسها السؤال الأقبح: إن كان أبوها يظهر في المنزل، فهل هذا معناه أنه قتل ولم يمت في حادثة سيارة كما أخبرتها أمها؟

عادت ترتب أوراقها وأفكارها، ثم غادرت الغرفة. بضع دقائق ووقفت أمام جدتها، فبادرتها سوسن:

- هل أنت بخير؟

- كلا، ولكن سأكون عندما أفهم.

- وأنا موجودة من أجلك، هيا اسأليني.

تركت هبة الأوراق ونظرت إليها:

- أولًا: كيف مات أبي؟

زفرت سوسن بصوت مسموع:

- أتى لزيارتي محضرًا صورًا لك كعادته، ولكنه لم يتصل أولًا، وأنا.. أنا أخطأت خطأ سأظل أندم عليه حتى مماتي. من قتله ليس من ضيوف المنزل، ولكنه يستطيع الظهور كما يريد. لا أعرف كيف، ولكن كما قلت لك: «المنزل مليء بالأسرار».

قطبت هبة جبينها غاضبة:

- هذا هو، هذا ما تفعلينه كل مرة؛ دائمًا قصتك ينقصها شيء ما.

تحولت نظرات سوسن إلى القسوة:

- تريدين معرفة النسخة الطويلة؟ أولًا: لقد قابلت من قتل أباك، نعم. لا تتعجبي، لقد قابلتِه وتحدثتِ معه أيضًا، وكنت تنوين إدخاله إلى المنزل.

تسارعت ضربات قلبها وهي تبحث في ذكرياتها، من قابلت في هذا المنزل ونوت إدخاله؟

- قاتل سليم هو الخواجة بنيامين، والخواجة يهودي الأصل، وكان... حسنًا، لا بد وأن تسمعي الحكاية من الأول؛ حكاية سارة...

سارة فتاة في التاسعة عشرة، أصبحت من ضيوف المنزل في عهد أبي، والطريقة التي جاءت بها كانت بشعة. أولًا: سارة فتاة مصرية الجنسية، يهودية الديانة. زوجها أهلها وهي في السادسة عشرة برجل أعمال يهودي في الخامسة والأربعين. بالطبع يمكنك تخيل الحياة بينهما كيف كانت؛ فتاة هشة وضعيفة مع رجل قاسٍ، شخص تتمثل كل لذته في تعذيبها، خاصة عند ممارسة حقوقه الشرعية، التي عادة ما تنتهي بضرب مبرح. أو عندما يكون مرهقًا من العمل، فيجلس على كرسي في غرفة نومهما ويشاهد تعذيب

حارسه روسي الجنسية لها، وأحيانًا يسمح له باغتصابها كنوع من أنواع العقاب عندما تجيبه بكلمة خاطئة، أو لو أحرقت الطعام، أو سكبت وجه القهوة، وأشياء كثيرة لم تحكها سارة لأحد.

لاحظت سوسن تغير وجه هبة، فقالت:

- لذلك لم أشأ إخبارك.

قالت هبة مسرعة:

- لا، من فضلك أكملي؛ أريد أن أفهم.

- حسنًا، في إحدى المرات وهو يعذبها، سارة انقطع نفسها، فظن أنها ماتت، فاستنجد بصديق له يدعى الخواجة هوارد، إنجليزي يهودي، ويعمل محاميًا. آه.. شيءٌ مهم لا بد وأن تعرفيه؛ الخواجة بنيامين ليس مصري الجنسية، برغم أنه عرف باسم شكري بيه، ولكنه ليس مصريًّا. على العموم، الخواجة هوارد رأى أن سارة على شفا الموت، لذلك قرر إحضارها إلى المنزل بعد أن دفع بالذهب إلى أبي. بعدها بيومين سارة توفيت، ومن وقتها وهي من سكان البيت.

وهنا لا بد وأن تفهمي شيئًا مهمًّا؛ الكثيرون تركوا أحباءهم هنا ليقضوا نحبهم على أمل رؤيتهم وزيارتهم مرة تلو الأخرى، وتلك هي الفكرة من تشييد المنزل. وكلما كان سكان البيت جددًا كلما استطاعوا الظهور كما يشاؤون. بالطبع الخواجة بنيامين طلب رؤية زوجته سارة، ولأنها ضعيفة وتخشاه لم تخبر أحدًا، وبرغم أنه أمر مقزز، إلا إنه طلب الاختلاء بزوجته في غرفة خاصة. طلب غريب، ولكن أبي تقبل الأمر. مرة بعد مرة، والخواجة يدفع بالذهب كلما جاء، حتى لاحظ جدك أشياء غريبة على سارة؛ فهي تبكي طوال الوقت، ومنعزلة عن ضيوف البيت وحفلاته التي تقام كل ليلة. لذلك تدخل، وضغط عليها؛ فباحت له بكل أسرار زوجها القذرة. بالطبع منعه أبي من دخول المنزل، ولأنه رجل شنيع أصابه الجنون، وحاول قتل أبي –رحمة الله عليه– ولكن الخدم أنقذوه. الخواجة لم يستسلم، وحاول إحراق المنزل، ولكن تم إنقاذ الموقف. في هذا الوقت حدث العدوان الثلاثي على مصر، وبعدها جاء قرار الرئيس جمال عبد الناصر بطرد اليهود. عرف أنه سيطرد؛ فرجل مثله امتلك ملفًّا أسود لدى البوليس السياسي المصري. لذلك في يوم من الأيام قام

بفعل مجنون؛ حيث اقتحم بسيارته سور الحديقة، وأمام عتبة هذا المنزل قام بقتل حارسه، ثم أطلق النار على نفسه. وهذه الحادثة من أغرب الحوادث التي حدثت هنا. بعدها بدأ بالظهور خارج المنزل، محاولًا باستماتة الدخول إليه. هو ليس من ضيوفه، ولكن رغمًا عن أنف الجميع، ولسبب لا يعلمه إلا الله، يستطيع الظهور، بل والدخول إذا سمح له أحدهم. الخواجة يملك قوة خفية، لا يعرف أحد كيف اكتسبها، فهو روح نجسة، مهما حاولت التخلص منها لا بد وأن تعود؛ وهذه هي قصة سارة والخواجة.

- وكيف مات أبي؟

اكتسى وجهها بالحزن:

- وقتها لم أكن اكتسبت خبرة كافية. والدي حذرني منه كثيرًا، ولكن لم أكن أتخيل خبثه وخداعه. استطاع الثعبان دخول المنزل وسليم موجود، أو ربما قصد الظهور لسليم، الله أعلم. ولكن بحركة غدر واحدة طعن ابني أمام عيني.

توقفت عن الكلام، ثم بدأت دموعها تبلل وجنتيها.

سحبت هبة الأوراق من أمامها وبدأت في طرح أول سؤال. لم تكن قسوة منها، ولكنها شعرت بالغضب: كيف تكون بهذا الحمق؟ كيف تؤذي ولدها بهذه الطريقة؟ لا أحد يلام على حرمانها من أبيها إلا هي.

- أول سؤال: كيف يستطيعون الظهور بجسدهم المادي؟ أليس من المفترض أن يتعفن جسدهم بعد الموت؟

لم تجبها سوسن، بل ظلت تبكي:

- كنت غبية، حاولت إنقاذه ولكني لم أستطع.

انفجرت في البكاء محاولة إكمال ما بدأته، ولكن صوتها اختنق بدموعها، فظلت تردد كلمات مبهمة. شعرت هبة بالذنب؛ جدتها ليست قاسية، إنها فقط أم فقدت ابنها أمام عينيها.

أسرعت وضمتها إلى صدرها. تداعت جدتها أكثر وهي تبكي بحرقة. فكرت هبة أنها ربما كتمت ألمها كل تلك السنوات لتنفجر الآن، أو ربما لم تجد من يشاركها أحزانها حتى هذه اللحظة.

مر بعض الوقت حتى هدأت. أوصلتها إلى غرفتها ووضعتها في الفراش، مبعدة مذكرات جدها الأكبر مع بعض الأوراق الفارغة؛ مما جعلها تتذكر أسئلتها، فشعرت بالسخافة والذنب وهي تغلق باب غرفة جدتها. ثم توجهت إلى المطبخ لتلقي بالأوراق في سلة المهملات، ولكنها فوجئت بوجود فوزية تطالع الصفحات باهتمام.

- الأوراق لو سمحت!

مكتبة
t.me/soramnqraa

انتبهت فوزية للصوت فاستدارت:

- آنسة هبة!

كررت بصوت مرتعش طلبها:

- الأوراق، إنها لي.

ابتسمت فوزية وناولتها الأوراق:

- أنت لم تسألي السؤال الأهم.

- آسفة، لا أفهمك.

- أسئلتك؛ تسألين عن أجسادنا: أين دفنت؟ وكيف لم يأكلنا الدود؟ كيف نأكل ونشرب ونحن أموات؟ ولكن السؤال الأهم لم يخطر ببالك.

- وما هو السؤال الأهم؟

- لماذا أنت؟

- لماذا أنا؟

ابتسمت فوزية وجلست:

- السؤال الأهم هو: لماذا كل هذا يحدث لك أنت؟

في الحقيقة سؤالها منطقي. لطالما تساءلت هبة عن كنه الأشياء التي تحدث لها؛ مصيبة تلو الأخرى، حتى توقفت عن التساؤل.

جلست هبة على المقعد المقابل لها:

- ماذا تقصدين؟

- أريد منك العودة بذاكرتك إلى الخلف؛ وأنت طفلة، تحلمين بأشياء غريبة: حنين رهيب لكل شيء قديم، للبيوت الواسعة، والقصور الضخمة،

والمهجورة، تشعرين دائمًا باختلاف بينك وبين كل البنات، شعور غريب بأن هذا العصر لا يناسبك، وكأنك ولدت متأخرة سبعين عامًا.

أرجعت هبة رأسها وقالت ضاحكة:

- جميع الفتيات يشعرن بتلك الأحاسيس، خاصة في فترة المراهقة. ولكن لم تقولين هذا الكلام؟

بدا عليها التردد، وكأن هناك حربًا تدار بداخلها، ولكنها قررت أخيرًا التحدث:

- لأن البيت اختلف منذ دخلتِه. جميعنا شعر بذلك؛ كنا نختنق وكأننا بداخل تابوت مغلق، ثم فجأة ظهرتِ، وفتحتِ غطاءه، فكنت كالأكسجين لنا، نسمة هواء بارد لفحتنا ونحن نقف في قعر جهنم.

تراجعت هبة قليلًا، لم تتوقع هذا النوع من الحديث، أو بطريقة أخرى لم تشأ سماع هذا النوع من الكلام.

- ماذا تقولين؟

ابتسمت فوزية في أسى:

- نحن كنا في طريقنا إلى الفناء. سوسن هانم علمت بذلك، أو ربما تلك هي خطتها.

صمتت للحظات، وشعرت بالذنب بسبب كلماتها. لطالما عاملتها سوسن باحترام، ولكن الاحترام لن يفيدها كثيرًا إن ماتت دون وريث؛ لذلك أكملت وكأنها تتحدث مع نفسها:

- أنا أعرف؛ الحمل ثقيل عليها، ولكنها مستسلمة للأمر الواقع، فموتها يعني موتنا جميعًا، المنزل يحتاج إلى حاكم يحكمه. ثم فجأة ظهرت أنت وزلزلت حوائط البيت، جميعنا شعر بذلك حتى سكـــ...

توقفت فوزية عن الحديث؛ لقد قالت الكثير، الآن تشعر بالخوف من سوسن هانم.

- لم توقفت؟ أكملي من فضلك.

قالت فوزية في تردد:

- لا أستطيع؛ هناك أشياء لا تحكى، ليس من مقامي أن أقولها.

- هذا تخلف، نحن لسنا في العصر الحجري. أنا أريد معرفة حقيقة هذا المنزل.

تطلعت إلى وجهها، ثم قررت أن تقول لها ما تحتاج إليه؛ لن تخبرها بكل شيء، فقط ستجيب أسئلتها والخطوط العريضة:

- حسنًا، سأجيب عن أسئلتك، بشرط ألا تعرف سوسن هانم.

قالت هبة مسرعة:

- بالطبع، بالطبع، لا تقلقي.

أخذت هبة نفسًا عميقًا:

- هل يمكنني معرفة قصتك؟

ابتسمت فوزية بركن فمها:

- عملت ممرضة منزلية، وأحيانًا مساعدة لأميرة قبل الثورة. وقررت يومًا ما أن أرحل وأترك العمل معها. لكن.. تعرضت لحادثة، فأتت بي سموها إلى هنا، فوافتني المنية، وبدأت الظهور في المنزل من يومها.

نظرت إليها هبة في تشكك:

- قصة حياتك قصيرة نوعًا ما. على أي حال، لا يهمني ما حدث لك، كل ما أريد معرفته هو كيف شعرت وأنت تموتين؟

حركت فوزية كتفيها بطريقة آلية:

- لا شيء. بالطبع كنت متعبة قبل أن.. أموت.. ولكن عندما حدث الأمر لم أشعر بشيء. استيقظت اليوم الذي يليه، والألم قد توقف. استقبلني جمال وقتها وأخبرني كل شيء عن المنزل، ومكانتي هنا.

- جمال من؟

- جدك؛ والد سوسن هانم. كان وقتها شابًّا يتعلم هو الآخر كل شيء من فؤاد بيه.

- آه.. حسنًا، أكملي.

- حسنًا، استيقظت، وبدأت في تعلم كل شيء عن المنزل.

- مثل ماذا؟

- مثل.. حسنًا.. من الضروري أن تكون لكل ضيف غرفة منفصلة، وعادة ما يكون قضى نحبه بها، وتظل غرفته حتى يسحب.

- يسحب؟

- آه.. حسنًا، بعض ضيوف المنزل، ومن مر عليهم وقت طويل، يسحبون من غرفهم إلى مكان نطلق عليه: «الغرف المظلمة».

لاحظت فوزية عدم فهمها، فأكملت مفسرة:

- مثل موضوع فيفيان.

- يكفي، مع كل تلك الأسماء.. أنا لن أتذكرها جميعًا. ولكن من فيفيان تلك؟

ابتسمت فوزية وهي تقارن بين هبة وسوسن هانم في غضبها:

- من كادت أن تودي بحياتك. هل تتذكرين حادثة وقوعك؟ أو بمعنى آخر: هل تتذكرين عندما كنت مسحوبة رغمًا عنك للنافذة؟

توقفت هبة لتتذكر ما حدث وصدرها يعلو ويهبط:

- نعم، أتذكر.

- حسنًا، فيفيان تلك هي السبب. هي من ضيوف البيت، وسكنت غرفتك القديمة، ولكنها اختفت من سنين طويلة ولم تعد تظهر حتى في يوم وفاتها. شخصية تتسم بالحقد والغيرة، هي السبب في محاولة انتحارك.

قالت هبة صارخة:

- أنا لم أحاول الانتحار!

رفعت فوزية يدها لتهدئها، وقصت عليها حكاية فيفيان.

هدأت بعد سماعها القصة، ولكنها أصرت أنها أقوى من أن يؤثر عليها أحد ما. ابتسمت فوزية:

- حسنًا، أكملي أسئلتك.

- هل تشرحين لي ما يحدث كل ليلة؟

- مثلما أخبرتك؛ كل يوم عندنا نزيل مات في يوم محدد، وهذا اليوم احتفال له، منذ أن تدق الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، وحتى الثالثة فجرًا. كل شيء يحبه نحاول فعله له: من طعام، لغناء، لرقص، وكأنه عيد ميلاده. حتى باقي ضيوف المنزل يظهرون للاحتفال به، وأحيانًا يسمح لعائلته وأصدقائه الذين ماتوا خارج المنزل بالدخول والاحتفال معه.

قالت هبة مسرعة:

- انتظري قليلًا فأنا لا أفهم. ماتوا خارج المنزل، فكيف يظهرون هنا؟

قالت فوزية وهي تلملم الأكواب وتضعها في حوض الغسيل:

- حسنًا، هذا لغز آخر من ألغاز المنزل؛ إنه كالمنارة، يجذب الأرواح الضائعة.

بدا عدم الفهم على هبة:

- هذا ما لا أستوعبه. أعني.. المنزل يقوم بأكثر من وظيفة، هذا غير مستساغ. ما الذي فعله الخواجة بوركهارد تحديدًا في المنزل؟ أعني ما الذي تتذكرينه قبل مجيء جدتي إلى هنا؟

هزت فوزية كتفيها وهي تغسل الصحون:

- قديمًا، أيام فؤاد بيه وجمال أفندي، كانت الحفلات جميلة وضخمة، يحضرها أجانب من إيطاليا وفرنسا، وجنسيات أخرى، يأتون إلى المنزل لرؤية أحبائهم.

فركت هبة جبينها وهي تحاول استيعاب كل تلك المعلومات:

- أي إن الأحياء كانوا يزورون المنزل كذلك.

هزت فوزية رأسها، فأكملت هبة:

- وماذا تعنين بـ «كانت»؟

ظهرت خيبة الأمل في صوتها:

- حسنًا، قديمًا عدد الضيوف كان كبيرًا جدًا؛ يظهرون طوال الوقت، والغرف المظلمة لم تكن معروفة لي. كنا نحتفل طوال اليوم، حفلات الكوكتيل بعد الظهيرة، ومساءً، والحفلة الرئيسية ليلًا.

قالت فوزية تلك الكلمات وهي تبتسم. صمتت برهة لتغرق في ذكرياتها الجميلة، ثم أكملت:

- ولكن اختفى كل هذا منذ تسلم سوسن هانم مفاتيح المنزل.

- كيف؟

- حسنًا، رفضت استقبال أي ضيوف جدد، ثم أخرجت الـ...

توقفت فوزية ثانية عن الحديث، وأخذت تفكر في كلماتها التالية؛ فهي لا تريد إخافتها أو دفعها للرحيل، ولكنها وعدتها بإخبارها الحقيقة. عليها أن تعرف عن الكناس.

- أولًا، هل أخبرتك سوسن هانم عن ألبرت ابن الخواجة بوركهارد؟

هزت هبة رأسها، فأكملت فوزية:

- حسنًا، لا بد وأن تعرفي أن الخواجة أعاد ولده للحياة، ولكن بشكل مختلف. كائن عجيب أخذ يتحول طوال فترة مكوثه بالمنزل، ليصبح شيئًا آخر يدعى: «الكناس».

قطبت هبة جبينها:

- ومن هذا الكناس هو الآخر؟

رفعت فوزية يدها محذرة إياها:

- لا، تكلمي عنه بحذر، فالكناس هو كل شيء هنا؛ صاحب المكان، وأي شخص يكسر قوانين البيت يمحوه من الوجود.

اعتدلت هبة وهي تنظر حولها وكأنها تتوقع هجوم الأشباح عليها، ثم عادت تشير إلى فوزية لتكمل، فقالت الأخيرة:

- عندما آذتك فيفيان بتلك الطريقة البشعة، سوسن هانم أمرته أن يأكلها، وبالتالي فيفيان اختفت للأبد، وتلك هي أكثر الأشياء المخيفة بالنسبة لضيوف البيت؛ الكناس، وعدم إمكانية ظهورهم مرة أخرى، إنها الموتة

الثانية. للأسف سوسن هانم استخدمت الكناس بعدما استلمت البيت مباشرة. الكناس تقريبًا أكل أي شخص جاء من قبل الأربعينيات، أو الثلاثينيات، لا أتذكر.

- حقًا؟ ما عدد ضيوف المنزل؟

- حاليًا 300 تقريبًا، أكثر أو أقل.

- حاليًا! كم كان عددهم قبل ذلك؟

ابتسمت فوزية وهي تعيد خصلة شعر تسللت على جبينها:

- كنا نقيم ثلاث حفلات في اليوم الواحد؛ فضيوف المنزل كانوا أكثر من الألف.

صرخت هبة:

- ألف!

- أو أكثر، وهذا غير الخدم والحشم والموسيقيين.

- وكل هؤلاء دفعوا بالذهب؟

- طبعًا.

- هل تعرفين كم يدفع الضيف للمكوث هنا؟

- ليس أقل من كيلو ذهبًا، أو ربما أكثر.

قالت هبة صارخة:

- كيلو ذهبًا، ضرب ألف شخص؛ هذا يعني أن ثروة عائلتنا تقدر بكم؟

هزت فوزية رأسها:

- لا تنسي أن المنزل يُصرف عليه الكثير من المال؛ الرشى التي تُدفع كل عام لتبعد عنا الحكومة، وتسهل لنا الكثير من الأشياء.

قالت هبة بشرود:

- أكيد أن ثروتنا هائلة.

- أكيد طبعًا؛ فسوسن هانم ذكية جدًا. بدأت تعرف كل شيء عن سكان البيت، ومن قطع سلساله من الضيوف.

- ماذا تقصدين؟

جلست فوزية على أقرب مقعد قائلة بحماسة زائدة:

- أعني من توقف زائروه وبدأ يضعف ويقل ظهوره. كانت تخيره بين أن يأكله الكناس وينهي حياته، أو أن ينسحب إلى الغرف المظلمة؛ وهو مكان أشبه ببئر عميقة، نلقي بكل شخص لا نريد ظهوره مرة أخرى.

- ويختفون للأبد؟

- صراحة إلى يوم ظهورك في المنزل كنت أظن أنهم يختفون للأبد، ولكنهم بدؤوا في الظهور ثانية، وتلك واحدة من الأشياء الغريبة التي حدثت في المنزل بسببك.

- واحدة من أشياء؟

هزت فوزية كتفيها وهي تعيد ترتيب الطاولة أمامها:

- الكناس بدأ يظهر، وبكثرة، وأصبح يتــ...

مرة أخرى تسكت فوزية.

- وماذا أيضًا؟ تحدثي!

زفرت فوزية بقوة:

- أصبح يتحدى سلطة سوسن هانم، وهذا لم يحدث من قبل، لأن الكناس كالآلة؛ لا يتحرك إلا بأمر منها.

قالت هبة بسخرية:

- بالطبع، هذا واضح.

- ستعتادين المنزل وقوانينه.

- ولم سأعتاد أي شيء هنا؟

- أنت لا تنوين العيش معنا هنا؟

- كلا، أنا...

- أجلي قرارك الآن وتعرفي على البيت أكثر. أأقول لك شيئًا؟ ما رأيك في حضور حفلة الليلة؟

ترددت هبة:

- أنا، لا أحب أن أكـ...

- خمس دقائق، لو لم تعجبك الحفلة غادري. أتوسل إليك!

تراخت دفاعاتها وقالت:

- حسنًا.. خمس دقائق.

***

راقبت الخادمة وهي تضع الفستان على المقعد أمامها، ثم وقفت ممسكة بالفستان لتتفحصه.

- أتمنى أن يحوز إعجابك.

برزت فوزية من خلفها وهي تبتسم.

وضعت هبة الفستان:

- حسنًا، إنه جيد. قصير بعض الشيء، ولكن سأرتديه.

نصف ساعة ثم نتجمع كلنا أسفل الدرج.

ابتسمت هبة، ثم جلست أمام المرآة تضع مساحيق التجميل. نظرت إلى الفستان لتطابق لونه مع أحمر الشفاه الذي تنوي وضعه. إنه الفستان الثالث بعد اثنين رفضتهما بسبب خلاعتهما.

انقضت نصفُ الساعة، ونظرت إلى انعكاسها في المرآة. تبدو مختلفة، لا تعرف هل تصنف نفسها كجميلة أم فقط مختلفة. أحمر الشفاه الوردي يتماشى مع فستانها الأزرق القصير ذي الأكمام الطويلة، يذكرها بموضة السبعينيات.

تنفست بعمق ثم فتحت باب حجرتها، لتجد فوزية وجدتها عند نهاية الدرج. ألقت نظرة على جدتها، وشعرت بحزنها بسبب حوارهما سابقًا. ابتسمت لها، فردت جدتها بابتسامة باهتة.

- لا داعي لأن يعرف ضيوف المنزل بأننا أقارب.

- لا تقلقي، فوزية أخبرتني.

نظرت جدتها إلى فوزية، وبدا عليها الغضب، ثم قالت بصوت مرتفع:

- هيا يا بنات، لنستعد.

من ظلام المنزل ظهرت مجموعة من الفتيات يرتدين فساتين براقة، ويصطففن جميعًا بجانبها على خط واحد، ثم ظهرت مجموعة من الخادمات يحملن صحائف عليها أنواع مختلفة من الأطعمة، وكؤوس ممتلئة بشراب ما. صفقت جدتها بيديها، فاشتعل المنزل بضوء متوهج، ثم صمت الجميع. نظرت هبة حولها تشاهد الجميع في انبهار. جميعهم يراقبون ساعة قديمة في أحد أركان المنزل، ساعة لم تلاحظها هبة من قبل، تتحرك ببندول يمينًا ويسارًا. نظرت إلى عقاربها فوجدتها تكاد تقترب من منتصف الليل. البندول يتحرك، ثم تسمع التكة الأولى.. تشعر بتوتر في الجو، ثم الثانية، قلبها يكاد يقفز فزعًا.. ثم الثالثة.

باب المنزل يتحرك بمفرده، والصف المستقيم يتحول إلى خلية نحل. صوت موسيقى يسري في الأجواء. الأصوات تتعالى في الداخل، وجدتها تستقبل امرأة مسنة تقف عند الباب ترتدي معطفًا من الفراء الأسود. تتحدث ببعض الفرنسية لتدعوها للدخول. تجهم وجهها ثانية وهي تستدير لتواجه درج المنزل.

- الآن ضيف المنزل سيهبط.

قالت جدتها تلك الكلمات، فاقتربت هبة أكثر منها تراقب الدرج. تسمع صوت خطوات ثابتة، ثم تظهر قدم لامرأة تنتعل كعبًا عاليًا أسود اللون. بدأت الصورة تتضح أكثر؛ شابة ترتدي فستانًا أبيض طويلًا من الستان اللامع، وشعرها بلون الذهب. ابتسمت لهم، فأسرعت سوسن المبتهجة دون سبب تحييها ببضع كلمات فرنسية، ثم تأخذها من يدها وتدخل الغرفة الضخمة حيث الاحتفال. دخلت فوزية خلف جدتها، وخلفهن باقي الفتيات.

همت هبة بالدخول، ولكن شيئًا ما أوقفها، شيئًا ما جعلها تنظر إلى تلك الساعة ذات البندول، القابعة في أحد الأركان. ظلت تراقبها حتى تأكدت؛ العقارب لا تتحرك، لقد توقف الوقت.

دلفت إلى قاعة الاحتفال الكبيرة. موسيقى هادئة تصدع في المكان، ثم بدأ صوت عذب يغني بالفرنسية. إنها هي؛ الضيفة، لا بد وأنها كانت مغنية، فهي تبدو متمرسة. الجميع ينصت لها باهتمام، حتى المرأة المسنة التي استقبلتها جدتها. الجميع منبهر بها، وهي تغني وتحرك يديها في الهواء وكأنها تحكي

حكاية ما، حكاية توشك هبة على فهم معناها رغم أنها لا تفقه حرفًا من اللغة الفرنسية. تغير من طبقات صوتها فتتحرك مشاعرك معها. ظلت تتأمل جمال تلك المرأة الأخاذ، جميلة بحق، تكاد تملك كل شيء؛ الجمال، والموهبة، وبالتأكيد المال؛ فهي من ضيوف المنزل. فكرت أن البعض يملك كل شيء، حتى فرصة ثانية للحياة، أما الفقراء فلا عزاء لهم، البعض منهم لا يحظى بحياة أولى ليحصل على الثانية. اجتاحتها تلك الأفكار وهي تتفحص المرأة المسنة وتخمن: ما صلة القرابة بينها وبين تلك المغنية الجميلة؟ قررت رفع الغموض، فتوجهت إلى فوزية وبادرتها بالسؤال:

- من هذه؟

- كوليت.

قالتها وهي تتابع المغنية باهتمام وهي تشدو، أما هبة فتحدق إلى المرأة العجوز وهي تمسح دموعها من فرط سعادتها.

- كلا، أقصد تلك.

- آه، إنها ابنتها.

- كنت متأكدة أنها أمها.

فوزية مبتسمة:

- أظنك فهمت الأمر بصورة خاطئة؛ تلك المغنية هي أم المرأة العجوز التي تجلس.

اتسعت عين هبة، ثم تذكرت قوانين المنزل:

- وابنتها تظهر كل عام في يوم وفاة أمها؟

قالت فوزية وهي تحمل في يدها كأسًا مكسورةً وتعطيها لخادمة ما كي تبعدها:

- تمامًا.

- وبالطبع دفعت الكثير من الذهب.

- كلا، كوليت دخلت بالمجان.

نظرت إليها هبة في دهشة:

- ظننت أن دفع الذهب شرط أساسي لدخول المنزل.

ابتسمت فوزية:

- حسب حاكم البيت، وقتها فؤاد بيه استقبلها دون مليم.

ابتسمت هبة في سخرية:

- إن لم تكن هي من تفتح لها الأبواب دون أموال، فمن سيكون؟

نظرت إلى فوزية فوجدتها متجهمة:

- ماذا بك؟

- القصة ليست كذلك. كوليت مغنية، وأم لطفلة في الثانية عشرة. جاءت إلى مصر للغناء في حفلة يقيمها واحد من الباشوات، فحاول ضيف ثمل اغتصاب الطفلة، ولكن كوليت دافعت عن ابنتها، فتلقت رصاصة في صدرها. فؤاد بيه كان موجودًا في الحفلة، وقرر استضافتها هنا، لتموت كوليت بعد ساعة من دخولها. عاشت ابنتها لمدة شهر في المنزل، حتى ظهر أقرباؤها وأعادوها إلى فرنسا.

- آسفة.

قالتها هبة وإحساس الذنب يخنقها، فابتسمت فوزية:

- تعاطفي قليلًا مع سكان البيت؛ ليس جميعهم فيفيان، وبالطبع ليس جميعهم كوليت. كل واحد له حكاية، حاولي معرفتها قبل إصدار حكم عليه.

ألقت تلك الكلمات ثم رحلت مبتعدة لتحيي رجلًا ما يبدو عليه أنه من سكان شرق آسيا. تجولت هبة في المكان وهي تتفحص وجوه الضيوف محاولة تخمين قصة كل واحد منهم.

فجأة تأبطت امرأة ما ذراعها قائلة:

- «بون سوار مدموزيل» هبة!

- نوال!

صرخت هبة باسمها، فنوال هي الوحيدة التي تعرف بقرابتها لسوسن.

- أأعجبتك الحفلة؟ كوليت جميلة، أليس كذلك؟

هزت هبة رأسها وتمنت لو أتت فوزية لتنقذها منها.

- كيف حالك الآن؟ أنت بخير؟ ها؟

- الحمد لله.

- أوشكت سوسن هانم على الجنون عندما مرضت، وفيفيان تستحق ما حدث لها وأكثر.

نزعت هبة ذراعها برفق من يدها، وقالت بهدوء:

- حصل خير، ولكني مشغولة الآن، وعليَّ الذهاب إلى مكان آخر.

أسرعت في الخروج من القاعة حتى وصلت إلى الصالة المظلمة نسبيًا. باردة ومخيفة كالعادة. لم تكن تعرف إلى أين ستتوجه، فهي لم تشأ الرحيل، بل تريد رؤية المزيد ومعرفة كل شيء عن ضيوف المنزل. عندها سمعت خطوات ثابتة، فاستدارت لترى رجلًا ما يبدو في منتصف الأربعينيات؛ يرتدي بدلة بنية، ويمسك بعدسة مكبرة، وخلفه رجل أبيض قصير. قالا شيئًا ما، فلم تتعرف هبة على اللغة، ولكنها خمنت أنها الإيطالية. مر كلاهما بجانب القاعة، ولكنهما تجاهلاها، وأكملا حتى وصلا إلى غرفة أخرى ذات باب زجاجي ملون. سحبا الباب ثم دخلا. تتبعتهما، لتجد حجرة واسعة ذات إضاءة هادئة، وبها مقاعد وثيرة، ومكتبة ضخمة تضم الكثير من الكتب. تعمقت بها أكثر، فاكتشفت أنها غرفة بداخل أخرى، مكتظة برجال يرتدون بدلات قديمة الطراز؛ بعضهم يضع غليونًا في فمه، ممسكا كأسًا في يده، والبعض يقرأ في هدوء وفي يده فنجان. همت بالاقتراب، ولكن صراخ أحدهم بالإنجليزية جعلها تنتفض:

- No women here!

استدارت مسرعة لتلقي نظرة، فوجدت رجلًا أسود رفيعًا يرتدي بدلة بيضاء، ويمسك بيده قطعة قماش، ويصرخ في وجهها بالإنجليزية:

- No women here!

- ممنوع دخول السيدات!

انتبهت هبة لقائل العبارة بعربية ضعيفة، فوجدته شابًّا ذا ملامح أوروبية، يمسك بكأس ويبتسم لها.

قالت هبة وهي تتفحص المكان:

- فهمت ما قاله، ولكن لم أفهم لماذا؟

تراجع الرجل الأسود أمام تقدم الشاب الأوروبي، ففهمت أنه الخادم.

- Club for men only.

قالها وهو يتفحص جسدها باهتمام. تراجعت هبة وقد فهمت المقصود. هذا نادٍ لمجموعة من الأوغاد العنصريين، وبالطبع ممنوع دخول أي امرأة.

ابتسمت بتكلف، ثم استدارت وغادرت وهي تقول بالإنجليزية بصوت مسموع:

- White trash.

سمعت امتعاض الخادم، فاستدارت لتجد الشاب يبتسم لها وهو يمنعه من ملاحقتها. أغلقت الباب بهدوء خلفها، ثم التفت لتصرخ مذعورة:

- جدتي أنــ...

- اخرسي قبل أن يسمعك أحدهم.

- آسفة.. أنا ذعرت.

استمرت سوسن في الصراخ:

- أنا من فزع عندما لم أجدك في الحفلة.

رفعت هبة يدها وكأنها تهدئ وحشًا:

- آسفة، صدمت بنوال، وخشيت أن تخبر أحدًا عن صلة القرابة بيننا؛ فقررت الرحيل.

تراخت سوسن:

- لا تقلقي، نوال طيبة القلب، كما إنه لا يمكنك ترك الحفلة والاختفاء هكذا.

- آسفة.. أنا فقط...

- هل دخلت إلى هنا؟

قالتها وهي تنظر إلى الباب بغضب.

- تقصدين نتاج تزاوج هتلر مع موسوليني؟

ابتسمت جدتها:

- بدأتِ في فهم المكان إذن.

هزت هبة رأسها:

- لا تقلقي على حفيدتك.

- حسنًا، هيا بنا لنعد للحفلة.

استدارت لتعود للحفلة، ولكنها توقفت:

- خففي قليلًا من النسوية خاصتك، نحن في عصر آخر غير الموجود بالخارج.

- النسوية في دمائي، تقريبًا هي وراثة.

- وراثة من أمك؟

- كلا، منك!

ابتسمت سوسن، ثم ربتت على رأسها في حنان:

- كوني لينة بعض الشيء، وتذكري أن لديك ميزة تتفردين بها عن الجميع هنا.

- ما هي؟

- أنت حية، وهم أموات.

هدأت أفكارها قليلًا بعد تلك الكلمات، حتى لو وجدت بعضهم غريبًا أو رجعيًّا، فهم جميعًا أموات، نعم، عليها تذكر هذا.

دخلت إلى القاعة ثانية وظلت تتجول وهي تفكر كم إن ضيوف المنزل متشابهين رغم اختلافهم الواضح، فحقبهم الزمنية تطبع على ملابسهم وطريقة حديثهم، ومع ذلك فهناك صفة مشتركة بينهم جميعًا؛ هي توقهم للحياة. الكثير من الضحكات والأحضان، الكثير من الرقص، والغناء. في الحقيقة لم تجد طوال حياتها أناسًا يشعون بالحياة كهؤلاء الأموات.

مر بعض الوقت، حتى وجدت القاعة المزدحمة بدأت تخلو من الضيوف؛ واحدًا تلو الآخر يختفي. حاولت تتبع أحد الضيوف لترى ماذا سيحدث له، أو

بالأحرى كيف سيختفي، ولكنها فقدت أثره. عادت للقاعة، فوجدت أن الجميع رحل إلا بضعة من الضيوف؛ كوليت وابنتها على المسرح ثملتان، تغنيان شيئًا ما بالفرنسية. صوت كوليت رقيق وضعيف، أما صوت ابنتها فكان أجشّ. كيف تكون تلك ابنتها؟

صوت دقات الساعة يصل إلى مسامعها رغم صخب المرأتين الثملتين. توقفت كوليت ونظرت حولها، ثم احتضنت ابنتها بقوة، وقالت شيئًا ما بالفرنسية في الميكرفون، فرفعت جدتها يدها لتحيتها. قبلت ابنتها مرة أخيرة، ثم أسرعت تغادر القاعة. انطلقت الدقة الثالثة لتعلن تمام الساعة الثالثة صباحًا، فاختفت كوليت قبل أن تطأ قدمها الدرجة الأولى من السلم. وقفت جدتها تحيي الضيوف القلائل المتبقين، ثم انتهت بابنة كوليت، التي اهتمت بإيصالها إلى باب المنزل. الآن هبة أدركت قاعدة مهمة؛ ضيوف المنزل يختفون عند الساعة الثالثة صباحًا، أما الضيوف من خارج المنزل فهم يبقون.

انتشرت الخادمات لتنظيف المكان، ثم بدأت الإضاءة تخفت شيئًا فشيئًا، فتوجهت هبة إلى الخارج خوفًا من بقائها بمفردها في ظلام القاعة الشاسعة. وقفت بجانب جدتها، حتى أغلقت الأخيرة الباب وبدأت تتجه إلى الدرج.

قالت هبة مسرعة:

- هل انتهى كل شيء؟

توقفت جدتها ثم نظرت إليها:

- كلا، سنذبح الطفل ونسلخه.

قالت تلك الكلمات ثم تابعت صعودها. وقفت على نهاية الدرج وألقت نظرة على حفيدتها المندهشة:

- أغلقي فمك واذهبي لتنامي أيتها المخبولة!

كافحت هبة رغبتها في سبها وهي تبتسم في تكلف، ثم صعدت الدرج خلفها. راقبت جدتها وهي تدلف إلى غرفتها، وودت لو تحدثت معها، ولكن صوتها المتعب وسخريتها منعاها من المحاولة. من يا ترى تستطيع التحدث معه؟ فوزية اختفت منذ منتصف الحفلة، وهي لا تعرف أيًا من الخادمات،

اللاتي اختفين بدورهن. ببساطة الجميع تلاشى من أمامها، والمنزل الذي كان ينبض بالحياة منذ أقل من خمس دقائق تحول إلى كتلة من الظلام البارد.

دخلت غرفتها وألقت بنفسها على الفراش. وجدت هاتفها بجانبها فأمسكت به. اللعنة! عليها الاتصال بمحمود، فهو يكاد يجن. وجد مكانًا مناسبًا لها. لا تعرف ماذا تفعل، لم تقرر بعد البقاء، ولا تريد أن تفقد فرصتها في الخروج من هذا المكان. لا ترغب في التفكير الآن؛ فرأسها يؤلمها. ألقت بالهاتف بعيدًا لتغوص في نوم عميق.

***

راقبت جدتها تقلب قهوتها، وصوت احتكاك الملعقة مع الفنجان يكاد يمزق رأسها. متى ستنتهي؟

توقفت جدتها أخيرًا، فتنفست الصعداء. ارتشفت القهوة وهي شاردة.

- لم أنت صامتة اليوم؟

ابتسمت هبة:

- الكلام كثير، ولكنك تبدين متعبة.

- وكأنك تهتمين لأمري!

تعجبت هبة من عدوانيتها، ولكنها اعتادتها نوعًا:

- ما سأقوله يمكنه الانتظار، فأنا أحاول التعلم منك متى أتحدث ومتى أصمت.

ارتشفت جدتها القهوة ثم قالت مبتسمة:

- اسألي كما يحلو لك. أنا أيضًا كان لدي الكثير من الأسئلة عندما دخلت البيت أول مرة.

- لم يختفي ضيوف البيت عند الساعة الثالثة فجرًا؟

وضعت سوسن قهوتها:

- أسباب كثيرة؛ والدي قال لي إن عمه أخبره أن هذا وقت اشتداد الظلمة قبل بزوغ الفجر، وبالتالي الأرواح يمكنها الخروج والدخول بحرية دون أن يراها أحد؛ فلا تنسي أن تلك منطقة أرياف. وهناك تفسير

آخر؛ يقول إن ألبرت قتل في الـثالثة فجرًا. كما قرأت الكثير من الكتب عن دلالة هذا الوقت، وعرفت أن له دلالة نفسية؛ حيث الروح تكون في أضعف حالاتها وأكثرها حساسية.

قلبت هبة كلمات جدتها، وتذكرت مشاهدتها لفيلم سويدي قديم يدعى «ساعة الذئب»، استهل مخرجه بكلمات موحية:

«ساعة الذئب هي الوقت بين الليل والفجر، إنها الساعة التي يموت فيها معظم الناس، ويكون النوم عميقًا جدًّا، وتكاد الكوابيس تتحقق. إنها الساعة التي تتملك فيها أعمق المخاوف نفوس السهارى، وتكون الأشباح والشياطين في قمة القوة. إنها نفس الساعة التي يولد فيها معظم الأطفال».

- ولكن لو كان هذا صحيحًا، ألن يختفي السكان من خارج المنزل كذلك؟

- سألت نفسي هذا السؤال كثيرًا.

- هذا معناه أن موضوع الساعة الثالثة من قوانين البيت، ليس من قوانين الطبيعة.

نظرت إليها جدتها وهي تبتسم:

- بدأت في تقبل فكرة البيت!

- من الجنون أن أرفض شيئًا ملموسًا، ولكن هذا ليس معناه تقبلًا مطلقًا.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أني تأكدت من وجود أشياء غريبة تحدث في هذا المكان، وأرواح تظهر وتختفي، ولكني لم أوافق على ما يحدث هنا.

اتسعت عيناها غضبًا:

- ومن ينتظر موافقتك أو تقبلك؟

- أظنك لم تتقبلي البيت أنت أيضًا.

نظرت إليها جدتها ثم بدأت في نوبة ضحك هستيري:

- كيف؟ هل تعرفين كم عامًا مر علي وأنا في هذا المنزل؟

- للأسف أعرف، وأعرف أيضًا أن البيت أخذ منك ابنك مرتين؛ مرة وهو صغير، لأنك أُجبِرتِ على التخلي عنه، ومرة وهو شاب، لما قتل أمام عينيك.

ضربت سوسن بيدها على الطاولة صارخة:

- عندما دخلت هذا البيت عرفت أنني سأضحي، وأي شخص يدخل هنا لا بد وأن يضحي بشيء ما.

- أعرف هذا، ولكنك ضحيت أكثر من أي شخص. أنت لم تتقبلي هذا البيت أبدًا. أظنك حتى تكرهين ضيوفه.

وقفت سوسن فجأة:

- مـــ.. ما الذي تقولينه؟

أيقنت هبة أنها أيقظت الوحش، فقالت مفسرة:

- أنت منعت الضيوف الجديدة من أن تدخل البيت، وقللت من الحفلات، كما جعلت الكناس يأكل الضيوف القديمة، و...

- كيف عرفت كل هذه الأشياء؟

- من فوزية.

- فوزية! حسنًا، اصعدي إلى غرفتك الآن وأنا سأتحدث مع فوزية.

شعرت هبة بالذنب على الفور، لقد ساعدتها فوزية كثيرًا لفهم المنزل، والآن هي سببت لها مشكلة كبيرة.

- ماذا ستفعلين بها؟

- اذهبي إلى غرفتك من فضلك! كلا، انتظري هنا.. ماذا تعرفين عن الكناس أيضًا؟

قالت هبة مترددة:

- لا شيء، كل ما أعرفه أنه هو ألبرت، أليس كذلك؟

تراخت سوسن في مقعدها:

- حسنًا، إلى غرفتك!

- لماذا؟ هل هناك شيء آخر علي معرفته؟

- كلا.

أرادت هبة معرفة المزيد، ولكنها تراجعت عن سؤالها، ستسأل فوزية. لا، بالتأكيد لن تتحدث معها بعدما أوقعتها في مشكلة. ربما خادمة أخرى، أو ربما تجمع معلومات من ضيوف المنزل، ولكنها ستعرف المزيد حتمًا.

راقبت سوسن حفيدتها وهي تغادر الغرفة، ثم من خلفها ظهرت فوزية:

- حضرتك طلبت حضوري.

اعتادت سوسن ظهور خدم المنزل من العدم عندما تحتاج إليهم، لذلك لم تفاجأ كثيرًا بظهور فوزية من خلفها بتلك الطريقة المخيفة، بل سألتها:

- لم تأخرت؟

- لم أحب الظهور أمام الآنسة هبة.

- خفت أن تفزعيها بظهورك هكذا ولم تخافي مما قلته عن الكناس؟

أسرعت فوزية وجلست على أقرب مقعد مواجهة لسيدتها لتمسك بيدها:

- من فضلك يا سوسن هانم، أنا لم أقصد. أرادت فهم ما يحدث في المنزل؛ وقصة أدت إلى أخرى. تكلمنا عما حدث مع فيفيان، فاضطررت أن أخبرها عن الكناس. ولكن عليك معرفة شيء مهم، الآنسة هبة لم تخف، بل بالعكس، شعرت بالراحة عندما عرفت أنها كانت مدفوعة للانتحار.

سحبت سوسن يدها بهدوء، لقد هدأت ثورة الغضب. فوزية محقة، هبة تغيرت كثيرًا، وبأي حال كانت ستعرف عن الكناس.

- حسنًا، سأسامحك، ولكن بشرط.. امتنعي عن الحديث معها، أريد أن أكون أول شخص يتحدث معها ويشرح لها قواعد البيت وضيوفه.

- حسنًا يا هانم.

- حسنًا، عودي لغرفتك، استريحي بمفردك في هذا اليوم.

ظهرت علامات الحزن على وجهها وهي تحني رأسها في أدب، ثم غادرت مسرعة. تراخت سوسن في مقعدها وهي تفكر فيما حدث، وتساءلت عن أسباب غضبها من فوزية. لسنوات فكرت في إيجاد وريث لها، حتى إنها حاولت التواصل مع أبناء عمومتها. لماذا إذن تخاف من إخبار هبة كل شيء؟

ربما لأنها تحكم عليها بحياة من العزلة والشقاء، أو ربما تشعر بالغيرة، نعم، الغيرة؛ المنزل تغير حقًا منذ دخول هبة، الضيوف والخدم أحسوا بذلك، حتى الكناس تغير معها، يظهر كثيرًا رغم حالة السبات التي كان فيها لسنوات. ربما كل ما في الأمر أن هبة هي الوريث الحق لهذا المنزل، أخبرها والدها عن الوريث الذي سيعيد للمنزل بريقه السابق ويسمح للأحياء والأموات أن يوجَدوا معًا ثانية. أخبرها أن المنزل تم إعداده لمهمة أخرى، غير أن يكون مجرد منزل ضيافة للهو واللعب. كلمات فؤاد بيه له كانت: «هذا البيت ليس له قاع، وأسراره كثيرة، من الصعب أن يتحملها شخص واحد، ولحوائط المنزل قصص أكبر من أن نستوعبها أنا وأنت».

نظرت سوسن إلى الحائط المقابل لها، وللحظة فكرت.. ربما تلقي بهذا الحمل الثقيل على هبة وتهرب هي، نعم، يمكنها التحرر أخيرًا منه.

***

أكملت هبة طريقها إلى غرفتها وهي تفكر في مصير فوزية. توقفت فجأة بسبب الظلام الدامس في الممر رغم أنها الواحدة ظهرًا. اجتاحتها مشاعر الخوف، وأحست وكأن أحدًا ما معها، هناك شخص أو شيء ما يأخذ الهواء ويزفر البرد والخوف. أمعنت النظر إلى الظلام وهي تتوقع خروج الكناس، ولكن لا شيء. اقتربت أكثر، ثم أخذت تضيء المصابيح واحدًا تلو الآخر. لا بد وأنها تتخيل، لذلك أسرعت إلى غرفتها وأغلقت الباب. تفحصت غرفتها، ولكنها لم تفكر في النظر إلى السقف، فهناك قبع الكناس يراقبها من إحدى زوايا السقف المظلمة. الشيء الذي لا تعرفه هبة أنه يفعل ذلك منذ دخولها إلى المنزل؛ يتربص في غرفتها ويتأملها صامتًا. سوسن محقة، هبة بها شيء مختلف.

أمسكت هاتفها وهي تلعن. محمود يقف على صفيح ساخن؛ عليها إنهاء الأمر ومهاتفته. ولكن ماذا ستقول له؟ هل تطلب منه إمهالها بضعة أيام؟ أم تهرب معه الليلة وتنهي كرنفال الرعب الذي تعايشه الآن؟

طرقات هادئة على بابها أيقظتها من تفكيرها، فقالت بصوت متوتر:

- تفضل.

ألقت بالهاتف وهي تتجه إلى الباب لتفتحه أكثر.

- أبـ...

توقفت عن قولها؛ لا يمكن لهذا الشاب أن يكون أباها، لم تتخيله بتلك الطريقة.

- لم توقفت؟ تمنيت عمري كله أن أسمعك تقولينها.

- آسفة، أنا مـ...

- لا بد وأن الموقف غريب عليك، ولكن لا يوجد أغرب مما رأيته هنا.

- أعرف، ولكن أنا...

- هل تسمحين لي بالدخول؟

أفسحت المكان ليدخل، فجلس على أقرب مقعد:

- أنا أعترف، الموقف غريب، ولكني لا أريد منك التسرع وقرار أي شيء الآن. هبة، هل سأكون أنانيًا لو طلبت منك قضاء بضعة أيام معي؟ أعرف أن ابن خالك ينتظرك في الخارج. وأنا أيضًا أريدك خارج هذا المنزل، وعدم رجوعك إليه ثانية، ولكن أريد التعرف عليك قليلًا. لنتحدث معًا؛ أنت ابنتي، وأنا لا أعرف عنك أي شيء.

تلاشت رغبتها في الهروب من المنزل، وأسرعت بالجلوس بجانبه:

- أنا أيضًا أود التحدث معك؛ هناك الكثير من الأشياء التي أريد قصها عليك.

ابتسم سليم وربت على رأسها:

- ما رأيك في تناول كوبين من الشاي معًا في الحديقة؟

هزت رأسها موافقة، وشعرت بسعادة عارمة لم تشعر بها من قبل، وكأن جبلًا من الهموم أزيح عن كتفها.

وقفت في منتصف الغرفة:

- هل يمكن أن تنزل أنت؟ سأقوم بمكالمة ثم أعود لك.

خرج سليم، وأغلقت الباب من خلفه، فهي لا تريد من أحد الاستماع لمحادثتها مع محمود.

رن الهاتف بضع رنات، ثم سمعت صوته:

- هبة، أخيرًا! كنـــ...

- محمود، من فضلك...

- وجدت مكانًا جيدًا واتفقت مع مالكه.

- من فضلك اسمعني، أنا لن أخرج من البيت الآن؛ أحتاج إلى وقت.

- وقت لماذا؟ هل نسيت اتفاقنا؟

- كلا، لم أنسَ، ولكني أحتاج إلى بضعة أيام ثم سأخبرك بقراري.

- صاحب الشقة لن ينتظر بضعة أيام.

- حسنًا، لم تكن من نصيبي إذن.

- هبة، تذكري من فضلك اتفاقنا.

- أتذكر جيدًا. من فضلك، هذا قراري، سأظل هنا و... محمود، شكرًا.

أغلقت الهاتف سريعًا كي لا يستمر في الحديث، لا تريد سماعه أكثر، فربما تغير قرارها وترحل معه. تأملت هاتفها وشعرت بالذنب بسبب طريقة حديثها معه، ولكنها أسرعت خلف أبيها.

***

بدأت في وضع مساحيق التجميل وهي تراقب الساعة في هاتفها. لقد اقترب منتصف الليل، واقتربت معه الحفلة اليومية. نظرت إلى انعكاسها في المرآة وشعرت بالرضا والسعادة، لأول مرة في حياتها تشعر بهذا الشعور، لطالما أحست وكأنها تطارد شيئًا ما لا تعرف كنهه، ولكنها وجدته أخيرًا؛ ربما حديثها المطول مع أبيها. لطالما اختلفت طباعها عن أمها، لا شيء يربطها بها غير اسمها، حتى تصرفاتها وطريقة تفكيرها، لذلك ظلت طوال حياتها تتساءل عن كيف يبدو أبوها، الآن تعرف الإجابة؛ يشبهها كثيرًا، لونه، ووجهه، كيف يبتسم ويتحدث. ورغم الفارق الزمني، إلا إن أفكارهما متشابهة.

شعرت بالشفقة على جدتها، لا بد وأن رؤية شخص يشبهه في كل تفاصيله مزقتها، والأشد إيلامًا أن ينتزع منك. الآن تشعر بالذنب لكونها لم تفكر في البحث عنها وهي صغيرة. غضبت من أمها قليلًا، ولكنها تذكرت شخصية جدتها القاسية، فطردت الفكرة من رأسها. انتهت من وضع اللمسات الأخيرة، وتأملت هيئتها للمرة الأخيرة ثم انطلقت لتقف بجانب جدتها.

- والليلة أيضًا!

ابتسمت هبة وهي تتفحص صف النساء وملابسهن البراقة:

- اتفقت مع أبي؛ سنتقابل في الحفلة.

توقفت سوسن عما تفعله، ونظرت إليها وصدرها يعلو ويهبط:

- سليم؟ سيحضر الحفلة؟ أيعقل؟

- لماذا؟ ألم يحضر أي حفلة من قبل؟

لم تجبها، ولكنها عادت لإلقاء الأوامر للفتيات، ثم التفتت إليها:

- أنت تعرفين جيدًا أنه يرفض البيت كفكرة، ويرفض كل ما يحدث فيه.

- ولكنه وعدني.

- سنرى.

رحلت لتلقي نظرة على تجهيزات المطبخ. تلاشى شعور السعادة لدى هبة، وحل محله الضيق والخوف. تذكرت شعورها يوم تركها أحمد؛ شعور الخذلان من شخص وثقت به، من شخص يمثل لها الأمان، وتساءلت: هل سيخذلها أبوها؟

عادت جدتها ووقفت بجانبها، وبدأ صف النساء في الاصطفاف بجانبهما. فوزية تقف على مقربة من جدتها. ألقت نظرة على وجهها فوجدته مصفرًّا، وتحت عينيها سواد غريب الشكل، وتذكرت اختفاءها المفاجئ في اليوم السابق.

دقت الساعة معلنة انتصاف الليل. صمت الجميع، وتوجهت سوسن لتقف عند بداية الدرج. تساءلت هبة: ألا يوجد زائرون من خارج البيت هذه الليلة؟

الدقة الثانية.. رفعت جدتها رأسها، ثم رسمت تلك الابتسامة المصطنعة التي تنير وجهها.

الدقة الثالثة.. ثم صوت الخطوات وهي تنقر الدرج، ليست خطوات ثنائية، ولكن هناك نقرة ثالثة. ظهرت قدمان لرجل حذاؤه من الأبيض والأسود، ثم العكاز. بضع خطوات، ثم ظهر رجل في الخمسين من عمره وهو يرتدي

الطربوش، وينحني ليقبل يد جدتها. رجل أسمر كأهل أسوان، لديه وجه جميل وبشوش.

- جابر باشا، نورت المكان!

قالت جدتها تلك الكلمات وهي تسير معه إلى قاعة الاحتفالات، التي أنيرت فجأة بضوء أصفر خافت. تعجبت هبة؛ ليست أنوارًا بهيجة وموسيقى صاخبة ككل يوم؛ إذن الحفلات تختلف باختلاف الضيوف! الآن الأمور أكثر منطقية، فلو حلت ضيفة على البيت لكانت حفلتها عبارة عن شاشة عملاقة وفيلم رعب يعرض، مع منامتها وبعض الفشار.

أسرعت الفتيات خلف سيدتهن، وقد لاحظت هبة ملابسهن المحتشمة نوعًا ما. ليست محترمة بالمعنى الفعلي، ولكن مقارنة مع الأمس، فهي بالتأكيد محتشمة. أمسكت بذراع فوزية قبل دخولها إلى القاعة:

- من هذا؟

قالت فوزية والإرهاق يتملك منها:

- جابر باشا الأسواني؛ واحد من أعيان الصعيد، استقر في القاهرة من الخمسينيات تقريبًا، مهتم بالفن والثقافة عمومًا، ونشاطه الأساسي التردد على الصالونات الثقافية.

قالت تلك الكلمات ثم رحلت. شعرت هبة باختلافها؛ عادة ما أعطتها قصة أكثر خصوصية عن كيف جاء الضيف إلى المنزل، وكيف عرف بهم، لكن ملخصها بلا روح. هل عنفتها جدتها؟ ولذلك هي تلخص المعلومات أم ماذا؟

تقدمت هبة إلى القاعة شبه المظلمة، ورأت أنها مختلفة في كل شيء؛ لا توجد مقاعد متوازية كمقاعد السينما، ولكن بعض المقاعد الوثيرة ترسم نصف دائرة، يتوسطها مسرح صغير عليه فرقة موسيقية من الرجال، يرتدون البدلات قديمة الطراز والطرابيش.

صعد رجل في منتصف العمر يرتدي نظارة سوداء. حيا الضيف، ثم جلس على مقعد وأمامه الميكرفون، وفي يده العود، وبدأ في الغناء:

«وحياتك وحياتك يا حبيبي.. ريح قلبي معاك..
غلب الحب معايا.. وتعبت وتعب الشوق وياك!»

إذن هذا المغني شبيه الموسيقار الرائع سيد مكاوي. اقتربت هبة وهي تنظر إلى الحضور القليل وهو يهلل في سعادة. الرجل صوته جميل، يشبه إلى حد ما صوت سيد مكاوي.

«متفوتنيش أنا وحدي.. متفوتنيش أنا وحدي..
متفوتنيش أنا وحدي.. أفضل أحايل فيك...
متخليش الدنيا تلعب.. بيا وبيك.
متفوتنيش أنا وحدي.. أفضل أحايل فيك..
خلي شوية عليا.. وخلي شوية عليك.. خلي شوية عليك..
خلي شوية عليك.. خلي شوية عليا.. وشوية عليك».

هلل الحضور أكثر عند سماعهم «متفوتنيش أنا وحدي» ضحكت هبة وهي تراقبهم، ثم اقتربت أكثر لتجلس قريبة من المسرح، فهي أحبت تلك الحفلة. لا تعرف السبب بالضبط؛ ربما الحضور القليل وغير المبهرج، أو ربما الأغنية، ولكنها سعيدة ومستمتعة بوقتها.

****

انتهى المغني من غناء أغنيته الرابعة، ثم انحنى في أدب للضيف واختفى خلف ستائر المسرح. مكان غامض آخر ستتفحصه يومًا ما. شعرت بيد تربت على كتفها.. نظرت خلفها وقفز قلبها فرحًا؛ أبوها يقف ويبتسم ابتسامته الدافئة.

- جدتي قالت لي إنك لن تظهر.

ضحك سليم:

- أنا لم أحضر حفلة من قبل، ولكن من أجلك سأفعل أي شيء.

طأطأت هبة رأسها خجلًا وهي تفسح له مقعدًا بجانبها:

- ولكن تلك الحفلة جميلة بحق، ليتك حضرت المغني السابق.

ابتسم سليم:

- أنا بالفعل رأيته، ولكني وجدتك مستمتعة بغنائه فلم أشأ إزعاجك.

- لماذا؟ لو كنت جلست بجانبي بدلًا من أن أجلس وحيدة هكذا.

- وما المانع في جلوسك وحيدة؟ تذكري دائمًا أن الوحدة ليست شيئًا سيئًا، بل على العكس؛ الوحدة تجعلك قوية، وتبنيك من الداخل كي لا تحتاجي إلى أحد. الوحدة ليست سيئة، ولكن الجمع الفاسد هو السيئ. لا تخشي أبدًا أن تكوني بمفردك ما دمت على حق.

ابتسمت هبة ولاحظت مقصد أبيها، لا بد أنه يتحدث عن المكان هنا؛ وحيد متمسك بمبدئه الخاص. شعرت بالاختناق وهي تتخيل قضاء سنوات عمرها في مكان مظلم كهذا، رافضة التفاعل مع ضيوف المنزل، ولا تملك رفاهية الرحيل.

هدأ الحضور القليل من حولهما، فتفحصت المسرح، لتجد تلك المرأة الجميلة؛ فتاة بلون الأبنوس الأسود، ترتدي فستانًا أبيض طويل الأكمام من الشيفون، ولون شفتيها أحمر كالدماء. ابتسمت للضيف، ثم أشارت إلى الموسيقيين من خلفها.

«راح الحب يا قلبي خسارة.. راح راح..
على أيام الحب الغالي..
راح من بعد ما فاتلي أمارة.. راح راح».

صوتها ملائكي رقيق، ولكنها لم تستطع التعرف على الأغنية.

- راح الحب، لسعاد محمد.

قالها سليم وفي عينيه نظرة حزن. تطلعت إلى وجه أبيها، فوجدته ينظر إلى أمه.

- كنت أحب الاستماع لهذه الأغنية كثيرًا.

فكرت هبة.. هل تجبر جدتها المغنين على غناء أغانٍ معينة؟ أم إنها مجرد صدفة؟ راقبت جدتها وهي تقترب منهما وعلى وجهها نظرات غريبة تجمع بين الابتسام والغضب.

- قررت الظهور أخيرًا؟

لم يعلق سليم، بل ظل يتابع المغنية وهي تشدو بصوتها العذب.

حاولت هبة تلطيف الأجواء:

- الحفلة مختلفة اليوم يا جدتي.

صرخت جدتها بغضب:

- سوسن هانم، قلت لك مئة مرة: «اسمي سوسن هانم».

نظر إليها سليم غاضبًا ووقف:

- هيا بنا نتمشى قليلًا في الخارج يا هبة.

قاومت دموعها وهي تنظر إلى جدتها الغاضبة. الآن تتذكر أنها تكرهها حقًّا، الآن تشعر بالغضب من نفسها لتعاطفها السابق معها.

- لا تحزني، أنا واثق أنها تحبك.

- أعرف، ولكنها تجعل تبادل الحب معها صعبًا للغاية.

ابتسم سليم وأشار إلى باب المنزل:

- هيا بنا إلى الحديقة.

- الحفلة انتهت باكرًا اليوم؟

التفتت هبة خلفها لترى قائل العبارة الثقيلة. اللعنة، إنه هو هذا الأحمق من نادي الرجال النازيين؛ الشاب الذي تفحص جسدها كذئب جائع. قال بالإنجليزية:

- Friend or a lover?

سليم: «من هذا؟».

ابتسمت هبة وقالت بالإنجليزية:

- Father.

- حقًّا! من هذا؟

قالها سليم وهو يشير إلى الشاب الإنجليزي وعلى وجهه خليط من التعجب والغضب. ضحكت هبة من أبيها، وقامت بسحب يده وهي تفتح الباب لتخرج. لطمها هواء الليل البارد، فتراجعت وهي تحتضن ذراعه.

- من هذا الأخ؟

- المفترض أن تقول أنت لي.

- هذه أول مرة أراه؟

- هه، ألم تدخل ناديًا للرجال فقط ولا مرة؟

- وهناك أيضًا نادٍ للرجال فقط؟

ضحكت هبة كثيرًا وهي تسير مع أبيها خلف المنزل، حتى وصلت إلى نافذة المطبخ. مرت بجانبها لتجد فوزية تنظر إلى اللاشيء ودموعها تتساقط في صمت. تراجعت لإعطائها مساحة خصوصية، وسحبت يد أبيها برفق.

- ربما من الأفضل ألا نمر من هنا.

- لماذا؟

ألقى نظرة على فوزية وهز رأسه متفهمًا.

- أنا السبب في حزنها.

- كيف؟

- ألححت عليها في السؤال عن البيت وتفاصيله وجدتـ... أعتقد أن سوسن هانم عاقبتها بسببي.

ألقى سليم نظرة عليها ثم قال هامسًا:

- لا أظن ذلك، الموضوع أكبر من هذا؛ أعتقد أن وقتها اقترب.

قالت هبة بتعجب:

- وقتها اقترب!

تنهد سليم وقال مفسرًا:

- كثير من ضيوف البيت يتعاملون مع صدمات نفسية أو أزمات شخصية شديدة، وتظهر عليهم أعراض الاكتئاب والقلق في نفس الوقت الذي دخلوا البيت فيه.

- هذه أول مرة أعرف بهذه المعلومة.

- للأسف أمي تظهر الجزء المبهج للبيت وسكانه. كثير منهم يعيش كالميت في هذا البيت، كثير منهم يعيش مأساته الشخصية كل يوم

وكل ساعة –مثل الفيلم– أكبر لعنة في حياتهم تتكرر أمامهم بكل قسوة.

تساءلت هبة عما يخفيه المنزل. هي لم تفكر يومًا في الضيوف بتلك الطريقة، ربما نهمهم للحياة يرجع لإحساسهم بالحسرة. أبوها لديه نظرة علمية إلى الأمور هنا تشبه كثيرًا نظرتها إلى الحياة؛ طريقة تفكير تعرضت للوم بسببها ممن حولها. هناك دائمًا وجه آخر للحقيقة.

- حسنًا، وما أزمة فوزية؟

تراجع سليم قليلًا، وقال بصوت منخفض:

- جل ما أعرفه أنها كانت خادمة عند أميرة من أيام الملكية، وللأسف تورطت مع ابنها وحملت منه، لتصر على الزواج، فصارح الشاب والده، الذي رفض وهدده بالحرمان من الميراث، وأمره بقتلها كي لا يعرف أحد، وللأسف الولد نفذ كلام أبيه. لكن الأميرة شعرت بالذنب، وقررت الإتيان بها إلى هنا قبل أن تلفظ نفسها الأخير.

شعرت هبة بغصة في حلقها:

- وهذا هو وقت وفاتها؟

- ليس وفاتها فقط، ولكن وفاة طفلها أيضًا. لا تنسي؛ فهي كانت حاملًا.

تراجعت قليلًا وهي تفكر كم إن الحياة قاسية مع البعض.

سحب أبوها يدها:

- لا تتعاطفي معهم كثيرًا؛ ففي النهاية تم تخييرهم. جميعهم اختاروا هذا المصير، بالطبع قابلوا في حياتهم ظروفًا قاسية، ولكن الله –عز وجل– لا يظلم أحدًا، وُجِدَت في حياتهم أشياء جميلة كذلك.

- مخيرون؟ لا أفهم.

ابتسم سليم:

- وهذا هو أهم قوانين المنزل، ولكن بالطبع لم يخبرك أحد. أي ضيف تعرض عليه صفقة: الذهب مقابل الظهور في المنزل وعيش حياة جديدة. لكن لا بد وأن يكون حرًّا في اختياره هذا، يطلبها بنفسه. ولا تنسي أن الموت راحة، ولكن لمن يفهم.

- أليس كل من يموت هنا يظهر؟

- كلا، بالطبع لا. ألم تسألي لم ملاك البيت الأوائل لا يظهرون أبدًا؟

- لأنهم ماتوا بشكل طبيعي.

- هذا سبب من الأسباب بالطبع، ولكنهم أيضًا عرفوا أن الموت ليس النهاية. اختاروا إكمال الطريق وترك الحياة خلفهم؛ فهم يعرفون البيت حق المعرفة. كمقولة: «طباخ السم لا يذوقه».

زفرت هبة:

- ولكن الناس بالداخل سعيدة، ترقص وتغني. وأنت تصور لي المنزل وكأنه غرفة تعذيب كبيرة.

هز سليم كتفيه:

- هذا البيت مثل الحياة التي نعيشها؛ ناس حياتها سعيدة ومريحة، لديهم الكثير من المال يستمتعون به دون ندم، وستجدين أناسًا أيضًا أغنياء، ولكنهم يعيشون حالة حزن وكآبة. هناك ناس فقيرة، ترضى بنصيبها، ولديهم سعادة وتقبل لأمر الله، كما يوجد فقراء بداخلهم إحساس النقص والحقد. سكان البيت نفس المثال؛ البعض سعيد بوضعه، والبعض حاقد أو حزين، أو لديه شعور مميت بالندم.

خفق قلبها بسرعة وسؤال يدور في عقلها: هل تسأله كيف يكون رافضًا لكل هذا ومع ذلك هو يقف أمامها الآن؟

- وأنت يا أبي، إذا كنت تكره البيـ...

ابتسم سليم في حزن:

- تعرضت للخداع. لا أنكر أني ضعفت، وأمي استغلت ذلك. أنا مت وعدت بسببها، أعيش كالميت بين السماء والأرض. عرفت عن البيت منذ كنت طفلًا، وعرفت كذلك أنه لعنة؛ لأنه حرمني من أمي. منذ كنت طفلًا وأنا أوقن أن هذا أسوأ مصير؛ ألا تكون ميتًا أو حيًّا.

صمت سليم، وشعرت هبة بضيق شديد. عاشت طوال حياتها ولم تكن تعرف أن أباها يعذب هنا. نظر إليها سليم ثم ابتسم:

- ولكن تذكري؛ أنا أيضًا عشت أيامًا جميلة، فلم تكن حياتي كلها كئيبة.

ابتسمت هبة وربتت على كتفه، فأخذ يدها وقبلها:

- سأدخل لأتحدث مع أمي. هبة، لا تغضبي منها.

- لست غاضبة، ادخل أنت أولًا وسأتبعك بعد دقائق.

راقبت أباها وهو يدلف إلى المنزل، ثم نظرت حولها.. الظلام دامس، والهواء بارد قليلًا. على الرغم من أن المنزل بني قديمًا، إلا إن الحضر لم يزحف إليه بعد. ما زال قائمًا بمفرده وسط الأراضي الزراعية، التي تحولت إلى أرض بور الآن. من بعيد بعض الأضواء الخافتة لأعمدة إنارة، ولكنها لا تبدد الظلام، في الحقيقة هي مرعبة أكثر. يمكنك التحديق إلى الظلام وعدم رؤية شيء، أما وجود ضوء ضعيف يجعلك ترى الظلال الصغيرة وهي تتحرك. اللعنة، هناك ظل يقترب منها بشكل مريب! يتقدم مسرعًا نحوها ويكبر شيئًا فشيئًا. تراجعت هبة وهي تنوي الصراخ، ولكن الشكل المريب اقترب أكثر لتتبين وجهه. اللعنة، إنه محمود.

- أنت مجنون!

- من هذا؟

- ماذا؟

- مع من كنت تقفين؟ من قبل يدك؟ وتركته يلمس جسدك؟

اللعنة، إنه يراقبها إذن. ماذا تقول لتخرج من هذا المأزق؟ لن يصدق أبدًا أنه أبوها. لتكذب، ولتكن كذبة متقنة.

- هذا قريبي؛ ابن خالة أبي، يرحمه الله.

ما زالت نظراته تشي بالجنون:

- ولم تتركينه يلمسك هكذا؟

قالها وهو يقترب أكثر. عندها قررت هبة تغيير دفاعها، ستهاجم:

- وما شأنك؟

صدره يعلو ويهبط، وتشي نظراته باقتراب الانفجار:

- وما شأني! وطلبك الرحيل عن هنا؟ وموضوعك مع أحمد؟ وكل الحزن والكآبة التي تحملتها منك؟ وفي النهاية ما شأني؟

- محمود، من فضلك! أنا لم أطلب منك أن تتحملني، أنت من كنت تتصل بي كل بضع دقائق.

صرخ محمود فجأة وتوجه إليها دافعًا جسدها لأقرب حائط:

- أنت مجنونة! من المستحيل أن تكوني غبية لهذه الدرجة، أنت أكيد شيطانة، إنسانة أنانية تفكرين في نفسك فقط.

- أنت مجنون، محمود، اتركني من فضلك.

تراجع محمود ليتركها تتنفس:

- لقد أخطأت عندما جئت إلى هنا. أوقفت حياتي من أجلك، وأنت هنا تصادقين الرجال وتعيشين قصة حب.

- محمود، أنت بالتأكيد مجنون؛ من رأيته هذا مثل أخي، من المستحيل أن يكون بيننا شيء. أتوسل إليك، لتهدأ وتخبرني: ماذا تقصد بكلامك هذا؟

تراجع محمود:

- اعتبري أن هذه آخر مرة ترينني فيها.

حاول الركض خارج الحديقة، ولكنها أمسكت بذراعه:

- محمود، لن أجري وراءك، من فضلك أخبرني: ماذا تقصد؟

تخلص من يدها وقفز إلى سيارته، فأسرعت تدخلها من الجهة الأخرى.

- محمود، من فضلك!

- اخرجي!

- كلا، أخبرني ماذا تقصد؟

راقبته وصدره يعلو ويهبط، ثم نظر إليها والغضب يملأ عينيه:

- حقًّا! ألا تشعرين بأي شيء تجاهي؟

تسارعت ضربات قلبها:

- محمود، ما الذي تقوله؟ أنت أخي.

ابتسم بألم:

- حسنًا، اخرجي الآن من فضلك.

- لا! أنت تقصد أنه توجد مشاعر بيننا؟ ولكنك لم تخبرني أي شيء قط. أنت حتى لم تلمح لي من بعيد، والآن، الآن تلومني وكأنني فتاة خائنة؟

نظر إليها وهو يوشك على البكاء:

- لأنني أكرهك، أو ظننت أني أكرهك. طوال حياتي وأبي يقارن بيننا؛ أنا الفاشل وأنت النابغة، في كل شيء. أكثر من مرة يقول لي إنه يتمناك بدلًا مني لتكوني ابنته. أنت.. أنت كنت شيئًا كبيرًا جدًا؛ لا يصح أن أنظر إليها وأحبها. كان لا بد وأن أكرهك وأغار منك فقط. حتى وصول أحمد، ورؤيتك معه. اشتعل صدري كلما رأيتك معه، تخططين لمستقبلكما معًا، وترسمين تفاصيله. أنت لا تتخيلين فرحتي عندما قررت هنا سرقة أحمد منك؛ أخيرًا ستعودين لتكوني وحيدة ثانية.

- أنت تمزح، أليس كذلك؟

- لا يمكنني الاستمرار هكذا في حياتي، خاصة بعد اليوم الذي احتضنتني فيه وقبلتني وكأنك.. كنـ...

صرخت هبة في غضب:

- هذا الموضوع مرة أخرى؟ أنا لم أفعل هذا الشيء أبدًا، أنت بالتأكيد مجنون أو تحت تأثير مخدر ما.

خرجت مسرعة من السيارة وهي تقول:

- عليك اللعنة وعلى خيالاتك الجنسية البحتة!

أسرعت إلى المنزل وهي تتلفت كي لا يباغتها محمود من الخلف ممزقًا ملابسها. إنه مجنون، الآن هي متأكدة من ذلك، فلتتصرف على هذا الأساس.

دخلت إلى المنزل وهي تغلق الباب بقوة، ثم توجهت إلى غرفتها.

- اللعنة عليك أيها الأحمق، لقد أفسدت يومي.

***

بدأت الخادمة في رفع أطباق الطعام من أمامها. نظرت إلى الساعة ثانية للتأكد.. الرابعة عصرًا. استيقظت من ساعة. من اعتادت الاستيقاظ في

السادسة صباحًا تستيقظ الآن مع غروب الشمس. لا بد وأن جسدها يتأقلم مع أسلوب الحياة في هذا المنزل. طعامها يتكون من وجبة الغداء والفطور معًا. لا بد وأن معدتها تسبها الآن.

اعتذرت لها جدتها عن تصرفها ليلة أمس، ظنت انسحابها من الحفلة بسببها. جيد أنها لا تعلم بأمر محمود، وهذا أفضل.

نظرت إلى الساعة مرة أخرى، ثم صعدت إلى غرفتها. لا بد وأن أباها شعر بالخذلان عندما انتظرها ولم تظهر. ستنتظره، ربما يمكنها قضاء ليلة أخرى معه. اللعنة عليك يا محمود!

***

هذه المرة لم تكن مهتمة بوضع مساحيق التجميل، أو ارتداء هذا الفستان البراق الذي جاءت به الخادمة أثناء قيلولتها. كلا، سترتدي بنطالًا من الجينز، وبلوزة صيفية جميلة وانتهى الأمر؛ ملابس تغيظ جدتها، وهي في المزاج المناسب لذلك.

توقفت عن الحركة لأنها تسمع الدقة الأولى للساعة.. الهدوء المنتظر، ثم الدقة الثانية.. ثم الثالثة.. بضع ثوانٍ ثم عاد المنزل للحياة.

تلك المرة قررت النزول متأخرة؛ لم تكن رائقة المزاج، أو ربما تريد معاقبة جدتها. لا يمكنها إسقاط غضبها عليها كل مرة وهي تتقبل هذا. مشطت شعرها وعقصته خلفها، ثم وضعت أحمر الشفاه. انتظرت قليلًا، ثم أمسكت مقبض الباب لتخرج. انطلق هاتفها معلنًا وصول رسالة، ولكنها لم تهتم. محمود يتصل بها منذ الأمس ويبرر ما فعله، يتوسل إليها كي تنسى ما حدث ليعودا أصدقاء، ولكنها لا تستطيع. لا يمكنك البوح لأحدهم بحبك ثم ترجوه كي يعود صديقك. اقشعر جسدها وهي تفكر في محمود كحبيبها؛ لطالما اعتبرته أخاها، فلماذا الآن يتحول؟ فهو أخ نموذجي مزعج وفظ؛ يأكل طعامها، ويسرق حلواها، يرفع من صوت الكاسيت عندما تذاكر دروسها، ويزعجها بالحديث بصوت مرتفع لو طلبت منه خفض صوته، أشياء كتلك سخيفة. بالطبع لها نصيب من معاكسته، فاعتادت التقليل منه أمام أي فتاة تعجبه. تخرج درجاته الدراسية المتدنية للجميع، تعبث بأواني الطبخ عندما يتحدث مع صديقته، وتصرخ أن ابنه مصاب بالإسهال. تذكرت تلك المرة التي

وقف يتحدث مع فتاة على الهاتف، وقررت هي وأخته أن تلعبا بالكرة وهو واقف بينهما. الكرة صدمته، وتسببت في تهشيم هاتفه. بالطبع قفز فوقها ليخنقها، كانا طفلين لا يفهمان الأمور الجنسية بعد. تعاركا كشقيقين، وليس كفتى وفتاة، حتى جاءت أمها صارخة لتبعد جسديهما المتلاحمين.

توقفت هبة عن نزول الدرج وهي تتذكر هذا اليوم. اللعنة، هل علمت أمها؟ فما زالت تتذكر نظرة الغضب واللوم التي رمقتها بها وقتها، أم إنها تتوهم الآن؟ هل أحبها في هذا الوقت؟ هل كان يحبها عندما حملها داخل المنزل؟ هل فعل؟

تشتت تفكيرها بسبب صوت الموسيقى، فأسرعت بالدخول إلى القاعة. لا أضواء براقة اليوم، ولا موسيقى صاخبة، ليلة أخرى هادئة، وإن كانت أقل في المستوى من الليلة الماضية، وأكثر ازدحامًا أيضًا. هناك مغنٍ شاب ضئيل الحجم يغني، ولكن صوته الضعيف جعل من الصعب فهم كلمات الأغنية. يبدو شبيهًا بالعندليب، أو ربما يتقمص شخصيته.

ساقها الفضول لتعرف ضيف الليلة، فاقتربت أكثر من المسرح؛ لترى الضيف رجلًا في الخمسين من عمره، رفيعًا وطويلًا، يعتمر قبعة بنية، ويرتدي بدلة زيتية بها مربعات غريبة الشكل. هذا الرجل يتقمص دور الفنان، خاصةً أنه يشير إلى المغني كي يبطئ في هذا المقطع ويسرع في آخر، مما زاد الأغنية نشازًا.

انتهى المغني أخيرًا وجفف عرقه بمنديل قماشي ضخم، ثم نزل عن المسرح وهو يقبل يد الفنان العظيم. أشباه الفنانين، أو معدومو الموهبة مثل من يتسلق في عالم لا ينتمي إليه، أو ربما يريد الانتماء له. أليست تلك رغبتنا كبشر؟ أن ننتمي لشيء ما؟ شعرت بالذنب قليلًا لمهاجمته في عقلها، فاقتربت أكثر. عندها لاحظتها جدتها، فابتسمت في غيظ وهي تتفحص ملابسها.

جلست تتابع الحفلة، فخرج رجل آخر ضئيل الحجم وأمسك الميكروفون، ثم تنحنح بصوت أنثوي:

«سنراقبهم.. سنراقبهم يا صديقتي العزيزة

يحتفلون بأعياد ميلادهم المبالغ فيها.

سنراقبهم.. سنراقبهم وهم يرتدون ملابس السهرة غالية الثمن،
ويحضرون حفلة زفاف تلو الأخرى،
ونحن ها هنا لا نغادر قبورنا أبدًا.

سنراقبهم.. سنراقبهم وهم يقتلون كل شيء لا يروق لهم فينا..
لأننا قبح على حد قولهم. ولكنهم نسوا أن الله خلقنا وخلقهم.

سنراقبهم.. سنراقبهم وهم يتحولون ليصيروا ترابًا..
وفي النهاية سنراقبهم.

لقد مللت من رؤية الجميع يعيش حياته إلا أنا..
لقد مللت من رؤية الجميع يحظى بالحب إلا أنا..
لقد مللت من رؤية الجميع يعرف ماذا يريد إلا أنا».

نفس الكائن العجيب الذي ألقى تلك الكلمات تنحنح قائلًا بصوت أنثوي:

- أود تحية السيد الأستاذ الفنان ممدوح الباشا.

ثم لوح بيده وجلس على أحد المقاعد، يفتش في أوراقه ليخرج قصيدة أخرى. الآن هبة في حيرة من أمرها؛ يبدو كفتى، ولكن صوته كامرأة. تقدمت امرأة أخرى وأمسكت الميكرفون:

- شكرًا أستاذة عفاف، دائمًا تبهريننا بقصائدك الجميلة. والآن أحب أن أغني أغنية ألفتها بنفسي، ولحنها لي الأستاذ الفنان ممدوح الباشا.

أشارت إلى الفرقة الموسيقية، ثم بدأت بصوتها المبحوح تغني أغنية غير مفهومة الكلمات، تبدأ بوعد الحب، تتخللها كلمات مثل: الهوى، وغدر الأحباب.

عادت هبة تتفحص الأستاذة عفاف؛ بالطبع هي امرأة. مسترجلة كثيرًا في ملابسها وأسلوبها، ولكنها امرأة. لو وُجدت تلك الفتاة في عالمنا الحالي لاتهمها الجميع بالشذوذ. الجميع يتهم الجميع بالشذوذ هذه الأيام، أو على الأقل التعاطف معهم. وكل فريق يأتي بآيات قرآنية لإثبات وجهة نظرهم. صراعهم على مواقع التواصل الاجتماعي يذكرها كثيرًا بأيام الثورة؛ الجميع يتهم الجميع بالخيانة، والعمالة، أو ازدراء الدين. لطالما تساءلت: هل يوجد أفراد متخصصون لنشر البلبلة الفكرية في مجتمع ما؟ وما نهاية موضوع

الشواذ هذا؟ الجميع يتحدث، ولكن لا أحد يبحث عن حلول لتلك المصيبة، وكأنهم ينوون تغيير مسار تفكير مجتمع بأكمله؛ في البداية ستسب من يفعل تلك الفعلة الشنعاء، ثم يأتون لك بقصص حزينة تجعلك تتعاطف معهم، ولكن صوتًا ما يقول لك لا. في النهاية، لتنهي الصراع بداخلك ستتقبل الفكرة. ربما لم ولن تتقبل الفعل، ولكنك مجبر على تقبل الأفراد. البعض يتحدث عن نظرية المؤامرة، وأن بعض المؤسسات الأجنبية ترغم الدول الإسلامية دولة تلو الأخرى على الاعتراف بشيء كهذا، ولكن في النهاية ما الفائدة؟ لقد احتلونا اقتصاديًا منذ قرن أو أكثر، وأصبحنا نعتنق أفكارهم الغريبة بكل أريحية.

أنهت المغنية أغنيتها غير المفهومة، ثم صعدت الأستاذة عفاف ثانية وبدأت في رص أبيات شعرية لا تحمل أي معنى، فصفق الحضور بشدة، ووقف السيد الأستاذ الفنان ممدوح الباشا يهلل كعادته. مرة أخرى تصعد المغنية ذات الصوت المبحوح، لتلقي على مسامعهم كلمات خاوية، ولكنها تحرك يديها في الهواء بطريقة مستفزة تتماشى مع يد السيد الأستاذ الفنان ممدوح باشا. إذن الرجل يتبنى كل المواهب الفاشلة أو الغريبة، ربما يومًا ما تخرج من تحت يديه موهبة واعدة.

سمعت هبة اسمها يتردد من خلفها، فاستدارت لتجد نوال –هند رستم المنزل– شعرها الأصفر المصبوغ، وفستانها الجلدي الضيق، وأحمر الشفاه الفاقع. حيتها برأسها وتمنت أن يظهر أبوها الآن ليأخذها ويخرج من هنا، ولكن تبددت أحلامها عندما اقتربت نوال لتجلس بجانبها.

- الحفلة مملة، أليس كذلك؟

- بسيطة، ولكن من هو السيد الفنان؟

قالت نوال مصححة:

- السيد الأستاذ الفنان ممدوح الباشا، سيغضب لو نسيت لقبًا من ألقابه.

- هذا الرجل أنتيكة.

ضحكت نوال:

- جدًا، ولكنه طيب. أنت لا تتخيلين كم الفنانين الذين فتح لهم أبواب المجد والشهرة.

- هذا فتح باب المجد لأحدهم؟ إنه يريد فتح رأسه.

نظرت إليها نوال بلوم:

- هو بالفعل شكله غريب، ولكنه طيب القلب حقًا. لو كان شريرًا لاستطاع أخذ حقه وصنع اسم لنفسه مثل نجوم هذه الأيام.

تذكرت هبة أن نوال جاءت من عصر مختلف، من يأخذ حقه في عصرهم يعتبرونه شريرًا. حسنًا، عالمنا الآن للأسف يحتاج إلى أشرار.

- أيمكن أن أسألك سؤالًا؟

تطلعت نوال إلى وجهها وكأنها تحاول معرفة ما يدور برأسها:

- أعرف؛ ستسألين عن قصتي.

هزت هبة رأسها:

- إن لم تحبي إخباري سأتفهم.

- الأمر عادي. عمومًا أنا قصتي لا تحدث إلا في الأفلام، أنا يا «مدموزيل» هبة كنت مطربة، وأعرف أن أهز قليلًا. ولكني توقفت لأعمل في الحفلات الخاصة فقط. وفي حفلة من الحفلات رأيت شيئًا لم أستطع السكوت عنه. ولتعرفي أني رأيت الكثير في بيوت الأكابر ورجال الدولة، رأيت الكثير، ولكني لم أفتح فمي. اعتادوا إرسال رجل أو اثنين محملين بالمال أو الهدايا في اليوم التالي. البعض كان غبيًا، فمزق جثة حيوان وألقاها أمام باب منزلي، وكأني سأخاف بتلك الطريقة.

خفق قلب هبة بقوة:

- ماذا رأيت؟

- شيئًا لا يمكن تقبله. في مهنتي تلك كنت أحيي الحفلات، وعندما يمل الضيوف أكون أنا الحفلة. لا يمكنني إخبارك بعدد المرات التي حبست فيها مع رجال قذرين واستطعت النجاة بنفسي. كم مرة اقترب الموت مني وأفلت منه، وكم مرة فعلوا بي أشياء وصمت، كي يمشي المركب.

لكن.. لكن آخر مرة لم أستطع السكوت. شيء واحد يجعلنا نتحمل تلك الحياة القاسية، شيء واحد نقي، وحبه لنا حقيقي دون مصلحة.

عرفت هبة على الفور ماذا تقصد؛ لقد أخبرتها سوسن، ورغم كل الأكاذيب التي نسجتها جدتها، إلا إن قصة نوال حقيقية.

- وجود أطفال في الحفلة.

- سوسن هانم قالت لك؟

هزت هبة رأسها، فأكملت نوال:

- لم يصدقني أحد في البداية، واتهموني بالجنون، وأدخلوني بالفعل مستشفى المجانين. ولكن هربت إلى منزل صديقة لي، أو هكذا ظننت. ولكن للأسف رجال الكلب صاحب الحفلة أمسكوا بي و...

- وماذا؟

- فعلوا ما يريدونه في جسدي. تخيلي خمسة رجال فوق جسدي، وصديقتي تجلس تشرب فنجان قهوتها.

ترقرقت عينا هبة بالدموع، فأسرعت لتدير وجهها. ربتت نوال مبتسمة على كتفها:

- لا تحزني؛ لقد انتقمت منهم جميعًا.

قطبت هبة جبينها:

- كيف؟

ابتسمت نوال في غرور:

- ما فعلته بهم لم ولن يستطيع أحد فعله بعدي.

قالت هبة يقتلها الفضول:

- حسنًا، ماذا فعلت؟

- واحد من زبائني المعتادين، رحيم باشا، أحبني بجنون. سمع بما حدث لي، وذهب إلى المستشفى حيث أصارع الموت، وأدخلني إلى هنا بعدما دفع الذهب. وفي اليوم التالي كنت أرقص وأغني. البيت بالطبع أحبني، وعرف أني هدية ثمينة، لذلك أظهر كلما أريد وأذهب إلى أي مكان.

لاحظت هبة النرجسية وجنون العظمة في صوتها، ولكنها حاولت تعطيل حاسة الاعتراض لديها حتى تنهي نوال قصتها. جدتها لم تبالغ عندما وصفتها بالجنون.

- المهم يا «مدموزيل» هبة، لا أريد الإطالة عليك.

- بلى، أَطِيلِي؛ أريد معرفة التفاصيل.

ابتسمت نوال بغرور مطوحة شعرها الأصفر خلف رأسها، بالطبع شخص مثلها يحب وجود جمهور له.

- انظري وتعلمي يا حلوة، أنا فعلت ما لا يستطيع أحد هنا فعله. انتظرت حتى هدأ الموضوع، ثم انتقمت من الجميع، أولهم الخائنة التي باعتني.

قالت هبة بنفاد صبر:

- نعم، ماذا فعلت بالتحديد؟

مررت أصابعها في شعرها الأصفر:

- اتصلت بها بعد منتصف الليل، وأعلمتها أني ما زلت على قيد الحياة، وهددتها بأني سأفضحها، واتفقت معها على موعد هنا، في المنزل، فوافقت على الفور. تلك العاهرة...

لاحظت هبة تسارع أنفاسها ونظرات الحزن التي اعتلت وجهها، فقالت مهدئة إياها:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

تحولت نوال فجأة، وقالت مبتسمة:

- الغبية في خلال ساعتين وقفت أمام باب المنزل مع كلاب سيدها.

أطلقت نوال ضحكة مائعة ثم أكملت:

- ولكن الكناس استوصى بهم.

- مـ.. الكناس؟ نوال، من فضلك تمهلي وأخبريني عما حدث بالضبط.

- سأخبرك.. في خلال شهر كنت تعلمت كل شيء عن المنزل؛ طبعًا أنا أسرع واحدة تعلمت هنا. وفكرت في فكرة مجنونة، ثم وقفت في منتصف الممر لأختبرها...

- أي فكرة؟

- وقفت في منتصف الممر المظلم وأخبرت الكناس أنه لن يهدأ لي بال طالما لم أنتقم بنفسي؛ أريد رؤيتهم أمواتًا أمامي، بل أريد قتلهم بنفسي. وقتها شعرت أنه وافقني على خطتي.

- شعرت! كيف؟

- كل واحد هنا له طريقته المعينة في التواصل مع البيت؛ هناك ضيوف البيت يحبهم، ويظهرون مثلي وقتما يشاؤون، وهناك ضيوف البيت لا يطيقهم، ويظهرون في يومهم على مضض. لكن البيت يحترم وعوده مهما كان الشخص.

- تتكلمين عن البيت كأنه شخص يحس!

- كل شيء يحس بنا. عمومًا، الكناس وافق، والبيت أحبني.

- هل تقصدين أن الكناس شيء والبيت شيء آخر؟

- طبعًا.

- عمومًا أكملي.

- حسنًا.. اقتحمت هي ورجالها البيت؛ فقام البيت بالمطلوب، والكنـــ...

- انتظري، ما هو المطلوب؟

- ألا تعرفين؟

قالت هبة غاضبة:

- كلا، لا أعرف.

- أسوأ شيء يمكنه الحدوث هو أن يدخل أحدهم البيت دون رضاه؛ رد فعله يصبح عنيفًا، وغالبًا يظهر الكناس ويفعل ما يريد بالمقتحمين.

- ماذا يفعل بالضبط؟

ضحكت نوال وهي ترجع شعرها للوراء، ثم وقفت:

- ما زلت حتى الآن أسمع صوت تعذيبهم في الغرف المظلمة، وأحيانًا يسمح لي الكناس برؤيتهم وهم يتألمون، وعندها أستطيع النوم بسلام على موسيقى صراخهم.

ألقت تلك الكلمات كقنبلة، ورحلت تاركة هبة خلفها في حالة ذهول. من هؤلاء الناس؟ وما هذا المكان؟ نوال جاءت في الستينيات على أقل تقدير؛ أي منذ ما يزيد على أربعين عامًا. أربعون عامًا أو أكثر والمنزل يعذب أولئك الأشخاص، أربعون عامًا أو أكثر وما زالت نار الانتقام لم تهدأ. اللعنة، عليها الخروج من فوهة الجحيم تلك.

***

قُضيَت آخر حفلة منذ يومين وهبة ما زالت في حالة صدمة مما قالته نوال. يمكنها الذهاب وسؤال جدتها، ولكنها تعرف مقدمًا أنها ستزيد الطين بلة، وستصرخ في وجهها في النهاية. ربما تذهب لسؤال فوزية، ولكن حالتها النفسية لا تسمح بالحديث، كما إنها لا تظهر الآن. في اليومين الماضيين لم يكن هناك أي احتفال، مجرد منزل مظلم وميت، كل شيء به ميت، حتى أثاثه. لا شيء ينبض بالحياة هنا إلا تلك الساعة الغبية، التي تدق ثلاث مرات فقط في منتصف الليل، ومرة أخرى في الثالثة صباحًا.

رن هاتفها فألقت نظرة، أمها تتصل للمرة الخمسين. أجابت بفتور وهي تحاول الظهور بمظهر الفتاة القوية، حتى سألتها أمها عن مكان محمود؛ فالأحمق لم يعد إلى المنزل منذ بضع ليالٍ. أنهت المكالمة ثم بدأت تبحث عن رقمه.. بضع رنات ثم جاء صوته الناعس يخبرها أن تذهب إلى الجحيم، ثم أغلق هاتفه. صرخت هبة في وجهه، ثم ألقت بهاتفها.

تنفست لتهدأ، ثم بدأت في الكتابة؛ فمحمود كأي رجل أحمق، بضع كلمات من الدلال وسيلين ويتصل بها. بعثت رسالتها التي تقطر ميوعة ودلالًا في رأيها، ثم انتظرت مكالمته. مرت الدقائق المملة، ثم ساعة كاملة، ثم لا شيء، لم يتصل. أمسكت بهاتفها.. لقد قرأ الرسالة؛ العلامات الزرقاء الصغيرة تخبرها بذلك. ولكن لم لا يتصل بها؟ قرأت رسالتها للمرة الأخيرة، وأيقنت أن كاتب الرسالة يعاني من شلل رباعي وعسر هضم، فألقت به بعيدًا واستسلمت للنوم.

تخللت أحلامها كيانات سوداء، وبعض الرجال ضخام الجثة يطاردونها في أرجاء المنزل ويحاولون النيل منها. جدتها تحاول إنقاذها، ولكنها تكتشف أنها خدعتها، فالكيانات السوداء معها في الغرفة. تهرب صارخة، لا

تعرف كيف خرجت من الغرفة، ولكن شيئًا ما أنقذها. استيقظت في النهاية وهي تتصبب عرقًا وتشعر بالإرهاق. نظرت إلى هاتفها؛ الساعة الواحدة صباحًا، لقد استغرقت في النوم، وهناك حفلة في الأسفل تنتظرها. ارتدت فستانها الأسود المعلق أمامها، ثم أسرعت إلى الحفلة. حفلة أخرى بطابع أوروبي. بحثت عن جدتها، فوجدتها بجانب الضيف؛ امرأة هذه المرة. تبدو كمرضعة أحمس، إن كانت لأحمس مرضعة. ملابسها الفاضحة، والتي تظهر كل تفاصيل جسدها المجعد، أصابتها بالغثيان، صوتها المتحشرج، والذي ينم عن كثرة شرب الخمر والسجائر، يجعله أشبه بصوت الرجل. ضحكاتها المستفزة والخليعة، ودلالها الذي يناسب فتاة في العشرينيات، وليس امرأة على حافة التحلل.

جلست قريبة من المسرح، لعل أباها يظهر الليلة. دارت بعينيها تبحث عنه، ولكنها توقفت عند هذا الشاب الإنجليزي من نادي الرجال فقط. ابتسم لها وهو يرفع كأسه. حيته بتكلف، ثم عادت لمراقبة المسرح. إذن الوغد يمكنه الخروج من كهفه. حاولت فهم ما تقوله تلك المغنية السمينة، إنها تقول شيئًا ما بالفرنسية، حاملة زجاجة خمر يتساقط معظمها، وتحرك يدها في الهواء وكأنها توشك أن تكيل السباب والشتائم للجميع.

نظرت خلفها لعل أباها يأتي، ولكن لا شيء. حفلة الليلة مزدحمة وصاخبة، ليست نوعها المفضل. لترحل إذن وتتجول في المنزل، علها تقابل أباها. همت بالوقوف، ولكنها اصطدمت بفتاة من فتيات المنزل، فاعتذرت الأخيرة مسرعة.

- هدى، أليس كذلك؟

قالتها هبة وهي تبتسم. ترددت المرأة:

- تحت أمرك.

- لو ظهر أبي، هلا طلبت منه انتظاري هنا؟ سأتجول في المنزل قليلًا ثم أعود.

- تحت أمرك يا هانم.

ابتسمت هبة ثانية لها، ودعت الله أن تكون تلك الفتاة صادقة وغير خاضعة لسلطة جدتها المستبدة.

خرجت من القاعة ولم تقرر بعد ما الوجهة التي ستقصدها؛ ربما تصعد إلى غرفتها، أو تستكشف المنزل أكثر، نعم، لتتسكع في المنزل قليلًا، ربما هذه آخر ليلة لها هنا. إن قابلت أباها ستخبره بقرارها النهائي؛ سترحل، نعم، سترحل وتترك كل هذا خلفها. لا يمكنها تحمل كل تلك الأمور. ربما تقبلت المنزل كفكرة، ولكن لا يمكنها أبدًا الموافقة على قوانينه، خاصة بعدما عرفت بتعذيب بعض الأشخاص. المنزل براق من الخارج، ولكن تلك الحفلات تنطوي على ألم لا يمكنها تحمله. كما إنها أصبحت أفضل؛ لقد حدث ما تمنته، تخطت أحمد. اللعنة، لقد تخطت كل شيء. الآن ستبجل كل لحظة في حياتها؛ سترقص، وتغني، وتسافر، وتقع في الحب مع مئة شاب، ستتذوق الحياة أخيرًا، وربما يومًا ما، نعم، يومًا ما تجرب علاقتها مع محمود، ربما ستتخذه زوجًا إن استمر حبهما، نعم، ستفعل، ولكنها تحتاج إلى رؤية أبيها أولًا؛ ستخبره بكل هذا وتودعه. ربما تأتي لزيارته يومًا ما، أو ربما لن تفعل، هي لا تعرف بعد، ولكنها متأكدة أنه لا يريد لها الحياة في هذا المنزل القبيح.

استيقظت من أفكارها لتجد أمامها هذا الباب الخشبي الضخم، مختلف عن باقي ديكور المنزل. تفحصت الباب بتفاصيله الدقيقة، والذي يشبه لوحات المستشرقين عندما سجلوا الحضارة الإسلامية قديمًا. وقفت تتأمله قليلًا، ليدفعها الفضول إلى معرفة ما خلفه.

فتحت فمها على اتساعه وهي تراقب تلك الجنة بأشجارها الكثيفة وثمارها الناضجة، كأنها خطت داخل حديقة من حدائق اليمن. أغلقت الباب الثقيل خلفها، ثم سارت خلف تلك الأشجار التي تتخلل فروعها أشعة الشمس. أليست الساعة الثانية بعد منتصف الليل؟ أم إن هذا المكان له توقيت خاص به؟ غاصت أكثر في تلك الحديقة، فإذ بطاووس أبيض ضخم يستعرض ريشه الطويل في دلال. أصوات الطيور تغرد من حولها، ونافورة ضخمة تبعث بماء متدفق رائحته كالمسك. رفعت رأسها لترى هذا القصر الضخم على الطراز الإسلامي، بألوانه الزرقاء، وحروفه العربية المزينة بالذهب. سمعت صوتًا بشريًا، فتخفت خلف شجرة ضخمة لتراقب مصدر الصوت. فتاة صغيرة

تقترب، لا تتعدى السادسة عشرة، جميلة؛ ببشرتها البيضاء، وشعرها البني المجدول خلف ظهرها. فستانها من القماش الشفاف، الذي يظهر عورتها جلية، خاصة مع ضوء الشمس القوي. انحنت الفتاة تملأ جرة ماء تحملها، فظهر ثديها أكثر، ثم اعتدلت ودخلت القصر.

فكرت أنها رأت ما يكفي، فلترحل. ولكن صوتًا سرى في عقلها يخبرها أن تتوغل أكثر لتفهم ما هذا المكان. هل مثلما للرجال نادٍ خاص بهم فللنساء جنة خاصة بهن أيضًا؟ سيقتلها الفضول طوال حياتها إن لم تفك لغز هذا المكان. اقتربت من تلك البوابة الصغيرة التي دخلت منها الفتاة توًّا، وخلف شجرة ضخمة وقفت تتفحص المكان. مجموعة من النساء يجلسن على مغطس صغير، بعضهن يسبحن عرايا، أما الأخريات فيرتدين ملابس من الحرير والشيفون تكشف عوراتهن. البعض نائمات في سلام على مضاجع من حرير، غير عابئات بما يظهر من أجسادهن. هناك فتاة سمراء البشرة يتدلى شعرها على كتفها، تمسك بعود في يدها وتعزف لحنًا عربيًّا قديمًا، وأخرى خلفها تعزف على قيثارة ضخمة. اقتربت فتاة منها، فتراجعت هبة ظنًّا منها أنها رأتها، ولكن الفتاة مدت يدها إلى أقرب فرع شجرة تقطف ثمرة وتعود في هدوء لمكانها وهي تربت على رأس طاووس أزرق اللون، وتقضم ما في يدها مبتسمة. تفحصت هبة المكان أكثر، وحاولت أن تحصي عدد النساء. لا بد أنهن أكثر من مئة امرأة؛ بعضهن لا يتعدى الرابعة عشرة، والأخريات يقتربن من عقدهن الرابع. لقد اكتفت من هذا المكان. تراجعت وهي تعلق عينيها على النساء كي لا تبدأ وصلة صراخ، ثم التفت فاصطدمت بجدار لتقع أرضًا.

وقفت هبة وهي تمسك رأسها وتعيد الأحداث في رأسها؛ فهي لا تتذكر وجود جدار هنا. التفت لتراه.. سحبها من ذراعها بقوة، ثم قذف بها إلى الأرض أمام النساء، اللاتي ارتعبن وبدأن في ستر عوراتهن.

تفحصت هبة المعتدي، لتجده شابًّا ضخم الجثة، يغطي الشعر الكثيف ذراعيه وصدره، ولا يرتدي من الملابس إلا ما يخفي عورته.

- من أي جحيم أبلجت يا امرأة؟

- ماذا؟

لمعت عيناه، وأمسك ذراعها بقوة ليسحبها خلفه. صرخت هبة من الألم محاولة التملص منه، ولكنه قذفها إلى جدار القصر، واقترب منها وعلى شفتيه شبح ابتسامة:

- لا يدخل أحد هذا المكان إلا بإذني، فمن أنت؟

اختفت اللغة العربية القديمة إذن. فكرت هبة وهي تحاول التحكم في الألم:

- بل من أنت؟ وماذا تفعل بكل هؤلاء النساء؟

تراجع الشاب وابتسم:

- ما رأيك بهن؟ هل تحبين العيش معنا؟

بحثت بعينيها عن طريق للهروب، فمد ذراعه أمامها ليستند إلى الجدار. لا بد وأنه عرف ما تحاول فعله.

- أعتذر عن إخافتك بتلك الطريقة؛ ظننتك رجلًا بملابسك تلك. ما رأيك أن ندخل القصر ونتحدث قليلًا؟

نظرت هبة إلى عينيه وعرفت على الفور أي نوع من الرجال هو، لقد قابلتهم كثيرًا، شخصية هارون الرشيد؛ يريد الاعتزال بمليون امرأة في قصر ضخم. يمارس تخيلاته الجنسية معهن، ويوفر لهن بالطبع حياة كريمة أشبه بالأميرات. نوع موجود بكثرة، ولكن الظروف الاقتصادية السيئة حالت دون تنفيذ الشق الثاني من التخيلات، فرفضت النساء الشق الأول.

مد يده ليخرجها من أفكارها ويسحبها إلى القصر، ولكن صوت امرأة شق الصمت وجعله يتوقف.

- سمو الأمير!

صرخت هدى بتلك الجملة وهي تندفع لتمسك بهبة وتجرها خلفها وهي تكمل:

- من فضلك يا آنسة هبة، هذا المكان ممنوع على أي أحد.

أسرع الأمير ليقف معترضًا طريقهما وهو ينظر إليها بعيني الذئب:

- ولكنها دخلت مكاني؛ إذن هي من حقي، هذا هو الاتفاق، أي امرأة تدخل هنا تصير ملكي.

همت هبة بالصراخ في وجهه؛ لديه ما يزيد على مئة امرأة ويريدها هي. ولكن هدى أسرعت:

- الآنسة ليست من ضيوف البيت.

تراجع الأمير وهو ينقل نظراته بينها وبين هدى، ثم ابتعد صامتًا. أسرعت تجرها خلفها، ثم حركت الباب الضخم وخرجتا مرة أخرى إلى المنزل المظلم.

صارعت هدى لتأخذ نفسها وهي ترميها بنظرات غاضبة.

- آنسة هبة، لا يعقل ما فعلته؛ تخيلي ما كان سيحدث لو لم أتدخل في الوقت المناسب.

- لو لم تتدخلي لغيرت ملامح وجهه.

همت هدى بقول شيء ما، ولكنها توقفت لتنفجر ضاحكة. تراخت هبة وهي تنظر إليها، ثم معًا صعدتا الدرج إلى غرفتها.

- الحفلة انتهت؟

- منذ فترة.

- أنا آسفة لو أني سببت لك مشكلة، وأتمنى ألا تعرف جدتـ.. سوسن هانم بما حدث.

- لا تقلقي، لن تعرف شيئًا. ولكن ساعديني من فضلك وتوقفي عن هذا الفضول القاتل.

تفحصتها هبة؛ فهدى مختلفة قليلًا عن بقية الفتيات في هذا المنزل، حتى ملابسها في الحفلات أكثر حشمة وهدوءًا.

- من هذا؟

- تقصدين سمو الأمير هارون الرشيدي؟

- هذا اسمه بحق؟

ضحكت هدى كثيرًا وأكملت:

- هكذا ينادونه، ولكن أظن أن اسمه الحقيقي سلطان باشا.

- لم تبتعدي كثيرًا عن الوصف. ما حكايته؟

- لا حكاية ولا رواية؛ كل الموضوع أنه ولد متأخرًا 300 سنة.

- حقًّا!

- أدمغة البعض ليست معقدة. سلطان باشا ولد في وقت ظهرت فيه الحركات النسوية في أوروبا وانعكست على مصر. هذا غير الثورة الصناعية الهائلة، وعلى عكس كل الناس، هو أراد العيش في الريف؛ حيث الهدوء والسلام.

- واضح. ويحضر جاموستين لحلبهما صباح كل يوم؟

ضحكت هدى من مزاحها وأكملت:

- تخلي عن أفكارك الهجومية للحظة وفكري أن بعض النساء لا يردن هدم الكون وإعادة بنائه مثلك، بعض النساء يوددن لو يفنين حياتهن مع رجل يدللهن ويجيب كل طلباتهن.

- وهل تكون هذه حياة؟ أكل ونوم و...

- للبعض هذه أجمل حياة؛ الجنة بالنسبة لهن.

- ولو، كما إن شكله مقزز.

- من؟ سلطان باشا؟ ما لا تعرفينه أن كل نساء المنزل يهمن به.

- حقًّا! لماذا؟

- لأنه يعرف كيف يسعد امرأة. حتى نوال كانت ستجن لتنضم إلى نسائه، ولكنه رفضها؛ فهو يحب الفتيات الخام.

- تقصدين الأطفال؟

ضحكت هدى ثانية وقالت من وسط دموعها:

- كلا هؤلاء لسن أطفالًا، بالفعل توجد فتيات يبدون كالأطفال، ولكن أؤكد لك أنهن لسن كذلك.

- الحيوان جرني إلى القصر.

- لا تخافي؛ إنه ليس من هذا النوع، كان سيصطحبك في جولة بداخل القصر لتشربا معًا، ثم يحاول إقناعك بوجهة نظره، ولو وافقت ستقضين معه ليلة أو أكثر، ولو لم توافقي سيتركك ترحلين.

- حقًّا! بهذه البساطة؟

- ليست كل الأمور معقدة.

- إنه حقًّا حيوان؛ كل هؤلاء النساء وينظر إلى غيرهن. أخبريني، كم امرأة معه في هذا المكان؟

- مم.. تقريبًا 200، أو أكثر.

صرخت هبة:

- اللعنة، ومن أين يأتي بصحة لكل أولئك النساء؟

لم تتمالك هدى نفسها، وظلت تضحك حتى تقطعت أنفاسها.

راقبتها حتى هدأت، وألقت سؤالها التالي:

- من أين أحضر كل هؤلاء النساء؟

- «باردون»، لم أفهم.

- أقصد النساء، متى وقررن العيش معه؟ أم هو من قتلهن ليصرن معه؟

- لا هذا ولا هذا، ببساطة البيت حقق له مبتغاه.

- تقصدين أن البيت هو من أحضر له كل هؤلاء النساء؟

- طبعًا، وأحيانًا ضيوف البيت يقضون معه يومًا أو اثنين لو أرادوا، النساء فقط بالطبع.

- بالطبع. ولكن أَيُعقل أن يبني المنزل لضيف واحد قلعة كتلك؟ ويوفر كل هؤلاء النساء؟

هزت هدى كتفيها بعدم اهتمام، فأكملت هبة:

- حسنًا، كم دفع السلطان؟ أقصد.. من غير المعقول أن يدفع مثل باقي ضيوف المنزل.

- كلا بالطبع. من المعروف أن السلطان دفع كل ثروته؛ صناديق من الذهب والمجوهرات.

- كل هذا ليموت هنا؟

- تقصدين ليعيش هنا؛ السلطان لم يمت.

- ماذا؟!

- السلطان حالة فريدة من نوعها؛ هو ليس ميتًا، بل قرر العيش هنا وإمداد البيت بالطاقة التي يريدها.

- طاقة؟

- نعم، ألا تعرفين؟

- أعرف ماذا بالضبط؟ من فضلك اشرحي لي.

سكتت هدى قليلًا، فتخيلت هبة الحوار الذي يدور في رأسها. ربما مثل فوزية، تخاف التحدث بسبب جدتها؛ لذلك لم تحاول الضغط عليها بأي شكل.

جلست هدى على أقرب مقعد:

- أقصد أن البيت يحتاج إلى طاقة ليعيد الضيوف كل ليلة، مثل حجر بطارية.

- لم يخبرني أحد بتلك المعلومة من قبل.

- البيت أسراره كثيرة، وستتعلمين كل شيء بمرور الوقت.

أرادت هبة الصراخ وإخبارها أنها لن تستمر في هذا الجحيم، ولكنها تراجعت، فهي لا تعرفها حق المعرفة.

ابتسمت وودعتها، ثم ألقت بنفسها على الفراش. البيت حقًّا غريب، والأغرب أن يقرر أحدهم عزل نفسه لتمضية حياته كلها في قصر من الخيالات. ألا يريد التغيير؟ ألا يريد الهدوء؟ ألا يريد مفاجآت الحياة؟ ألا يريد الموت يومًا ما؟ فهو نهاية لكل شيء، سيئًا كان أو جيدًا، ولكنه النهاية الحتمية.

***

استيقظت فجأة وهي تصارع كي تلتقط أنفاسها. تفحصت غرفتها الهادئة وهي تقسم؛ منذ أقل من برهة كانت هناك حرب في هذا المكان. لا تتذكر بالطبع شيئًا، ولكنها تذكر الازدحام، والصراخ، والدم. تمددت في الفراش وهي تفكر: هل تعود للنوم؟ أم ماذا تفعل؟ قررت أخيرًا النهوض، فهي لن

تتحمل حلمًا آخر مفزعًا كهذا. ربما كوب من الماء يهدئها. دفعت الأغطية ثم توجهت إلى الدرج، البيت مظلم كقبر كافر. عادت لتضيء مصباحًا صغيرًا ليرمي ببعض أشعته على الدرج. فكرت أن الضوء جعل المكان أكثر رعبًا، مرة أخرى تظن أن الظلام الدامس أفضل؛ فهو يجعلك لا ترى شيئًا، وبالتالي لن تفزع، أما تلك الأشعة الضعيفة تجعلك ترى خيالات، أو ربما مخيلتك تصنعهم. تحرك شيء أمامها، فتسارعت ضربات قلبها وهي تحاول التعرف على هذا الشيء قبل أن تطلق العنان لصرخاتها. تحرك الشيء متجهًا إليها، فتراجعت وهي تحاول الصراخ، ولكن الشيء أمسك بها ووضع يده على فمها. على ضوء المصباح الضعيف استطاعت أن تراه، بعينيه السوداوين وشعره الناعم الذي يغطي جبهته.

صرخت بصوت مكتوم:

- محمود!

سحبها محمود إلى الأسفل قائلًا بصوت هامس:

- ستأتين معي الآن.

دفعته هبة بعيدًا:

- هل أنت مجنون؟ آتي معك إلى أين؟

توقفت عن الحديث لأنها تذكرت قصة نوال عن مصير من اقتحم البيت من قبل. لذلك أسرعت إليه، ثم أمسكت بيده وفتحت باب المنزل وهي تقول:

- محمود، ارحل الآن من فضلك وسأشرح لك كل شيء لاحقًا. سأغادر هذا المكان، ولكن علي فعل شيء ما أولًا، ثم أقسم لك سأرحل معك.

أمسك بها محمود كالمجنون:

- لن أتركك، أنا.. أنا أحبك، ويستحيل أن أتنازل عنك ثانية.

تجمدت هبة مكانها. ما كانت تخشاه حدث؛ الأحمق اعترف بحبه.

- محمود من فضلك، ارحل الآن.

قالتها ثم دفعته إلى الخارج:

- يوم أو اثنان ثم نتحدث.

همت بإغلاق الباب وعيناها معلقتان به، حتى صرخ ممسكًا جانبه الأيسر. فزعت وفتحت الباب، ليسقط تحت أقدامها وترى السكين المغروسة في جسده. نظرت إلى ظلام الليل لتجد الخواجة بنيامين، وبجانبه حارسه الشخصي وهو يمسح يديه من الدماء. صرخت محاولة الهرب، ولكن الحارس الضخم أمسك بجسدها ليقذفها إلى الحائط، فوقعت أرضًا وهي تتلوى من الألم، ثم قفز فوقها مطبقًا يديه على عنقها يخنقها. حاولت دفعه، ولكنه كالجبل، لا يتحرك. حاولت الصراخ، ولكن لا يوجد هواء ليحمل صراخها. حاولت زحزحته مرة تلو الأخرى، ولكن لا شيء. ربما القوة ليست الحل؛ لذلك وضعت إبهامها على طرف عينيه وبدأت الضغط. صرخ الرجل، فاستطاعت إزاحته لتتنفس من جديد. حاولت الوقوف وهي تبحث عن محمود، فوجدته يحاول إخراج السكين من جسده. فتوجهت نحو الدرج، لعل أحدًا من سكان البيت يغيثها، ولكن الخواجة أسرع ليدفعها بقوة ليصطدم رأسها بأرضية البهو. آلمها رأسها كثيرًا، وحاولت التحرك، ولكن جسدها لم يستجب. اقترب منها الخواجة وهو يبتسم، فعرفت على الفور أنها النهاية؛ سيفعل ما يريده بجسدها ولن يوقفه أحد. ولكن محمود اندفع فجأة ودفعه بعيدًا عنها، ثم حاول رفعها، ولكن الحارس أمسك به وأزاحه من طريقه، وحاول الوصول إليها، ولكن محمود اندفع وغرس السكين في رأس الحارس من الخلف فبرز نصلها من جبهته، فوقع كلاهما أرضًا. وقف الخواجة وهو ينظر إلى حارسه، ثم صرخ غاضبًا، وتوجه إلى محمود مخرجًا سكينًا من طيات ملابسه. صرخت هبة وحاولت التحرك، ولكن رأسها كالحجر يأبى التحرك. أنفاسها متقطعة، والدماء حولها في كل مكان. صرخت للمرة الأخيرة، ثم رأت شيئًا ما يقترب. بدا كرجل، ولكنه أطول بكثير. ظل يقترب أكثر ليصغر في الحجم، حتى أصبح على بعد خطوات من الخواجة ومحمود. رفع الخواجة رأسه، ثم انطلق إلى خارج المنزل. حاول هذا الغريب الإمساك به ولكنه فشل؛ لذلك اقترب من محمود، ورفعه بيد واحدة. عندها صرخت هبة؛ لا يوجد رجل يستطيع رفع محمود مفتول العضلات بيد واحدة، ولذلك عرفت أن هذا الشيء ليس بإنسان. ترك الشيء محمود يسقط، ثم نظر إليها وكأنه يراها لأول مرة. اقترب منها، فحاولت الابتعاد، ولكن رأسها رفض التحرك، لذلك صرخت مرة أخيرة، ثم فقدت الوعي.

الفصل الثالث

العودة

استيقظت أخيرًا محاولة التقاط أنفاسها. تفحصت المكان حولها لتعرف أين هي، فوجدت الظلام والبرد يغلفان كل شيء. هناك ضوء ضعيف يأتي من بعيد، حاولت اتباعه، ولكنها كلما اقتربت أخذ الضوء في الابتعاد. تهرول في الفراغ، ولكن دون فائدة. وقعت أرضًا تبكي وهي تدعو الله لينجي محمود. سمعت صوت خطوات يقترب منها، فمسحت دموعها. امرأة بثوب أسود غريب الشكل تتقدم، فتراجعت خوفًا، ولكن المرأة رفعت يدها وطلبت منها اتباعها.

سارت المرأة أمامها وهي تتساءل: هل تتبعها؟ أم تبقى هنا؟ أسرعت خلفها؛ فلا فائدة من بقائها وحيدة في الظلام.

- أين نحن؟ ومن أنت؟ وأين محمود؟

نظرت إليها المرأة ولم تنطق، بل أشارت إليها لتتقدم. تطلعت هبة إلى وجهها الذي بدا مألوفًا، ثم تتبعت يدها التي تشير إلى الأمام، حيث يقبع باب خشبي. تقدمت هبة وفتحت الباب بيدها.

نظرت إلى ما وراء الباب، ثم حدقت إلى المرأة. لم تكن تعرف ماذا تفعل، ولكنها سعيدة لانتهاء هذا الكابوس. أسرعت بالدخول إلى تلك الغرفة الشاسعة على النظام الأوروبي القديم، ثم تبعتها المرأة. غرفة ساحرة بفراش ضخم ذي أعمدة نحاسية، تتدلى منها ستائر بيضاء، وتلك التماثيل لنساء يحملن دلوًا من الماء تتوسط أعمدة المدفأة، والشموع الموضوعة لتبدد الظلام؛ كأنه مشهد من فيلم. سمعت صراخًا في الخارج وأصوات تحطم، فتراجعت إلى إحدى الزوايا، ولكن المرأة لم تأبه، وتقدمت لتفتح باب الغرفة. استطاعت هبة

رؤية مجموعة من الأشخاص يحملون جسدًا مهرولين به إلى إحدى الغرف. لم تستطع تبين الأصوات، ولكن تعرفت على صوت رجل يتحدث بالعربية الأقرب إلى اللهجة النوبية.

اقتربت بخوف من الباب حتى وقفت بجانب المرأة ذات الثوب الأسود وهي تراقب المشهد أمامها. رجل أسمر البشرة بلهجته النوبية يأمر مجموعة من الرجال بإحضار طبيب، وآخر بتجميع الرجال وحمل السلاح لتتبع شخص ما. أما الغرفة التي قبع بها المشهد الدامي، فهناك شاب مغشي عليه، وملوثة ثيابه بالدماء. بجانبه تجلس امرأة تتحدث الإنجليزية وتبكي، ورجل ضخم يحاول إيقاف النزيف وهو يصرخ قائلًا: «ألبرت! ألبرت!».

فهمت هبة على الفور ما يحدث أمامها؛ تلك هي حادثة ألبرت. نظرت إلى المرأة بجانبها، فتسللت دموعها على خديها في صمت.

اللعنة!

فهمت هبة أخيرًا من هي تلك المرأة. إنها السيدة بوركهارد، والدة ألبرت، بنسختين؛ نسخة ترافقها في جولتها، ونسخة تصرخ بجانب ابنها. تقدمت هيلين ذات الثوب الأسود ودخلت الغرفة، حيث ألبرت يصارع الموت. لا أحد يلتفت إليها أو يراها، فوقفت تراقب المشهد. اقتربت هبة بخوف، ثم تشجعت أخيرًا لتقف بجانبها. أمعنت النظر إلى وجه السيدة بوركهارد وهي تصرخ وتستنجد بزوجها، الذي يحاول يائسًا مداواة ابنهما.

- I am sorry!

قالتها هبة للسيدة وهي تقاوم رغبتها في البكاء. المشهد مؤثر حقًّا؛ كل تلك الدماء، كل تلك الصرخات.

رفعت السيدة بوركهارد يديها ليختفي المشهد من أمامهما، والغرفة بأكملها، ويظهر ممر مظلم نسبيًّا. أنصتت هبة إلى صوت خطوات تنقر الخشب في ثبات، ثم ظهرت السيدة بوركهارد بنسخة أخرى، ولكنها بدت غريبة. عيناها جاحظتان، وشعرها أشعث، وثيابها رثة، وخلفها الخادم الأسمر ذو اللهجة النوبية:

- أتوسل إليك يا هانم، أقبل يدك لتتوقفي، أنت لا تعرفين ماذا تفعلين.

قطعا الممر أمامها وهو يترجاها، وهي تسير بثبات أمامه غير عابئة بتوسلاته. تقدمت هبة لتتبعهما، حتى وصلا المطبخ، ومنه إلى باب خشبي فتحته السيدة ودخلت، وخلفها الخادم مستمرًا في توسلاته. تقدمت هبة أكثر لترى سلمًا حجريًا قديمًا يصل إلى غرفة في الأسفل. نزلت وهي خائفة من الانزلاق لترى ما يحدث في القبو؛ هناك بضع زجاجات خضراء بها مادة كثيفة وداكنة، وهناك نجمة خماسية على الأرض مرسومة بطبشور أبيض، وبعض الشموع السوداء.

هل السيدة بوركهارد ساحرة من نوع ما؟ تساءلت هبة وهي تنظر إلى السيدة ذات الثوب الأسود التي ترافقها في رحلتها الغريبة وهي تتقدم لتقف بجانبها، ثم عادت تراقب المشهد.

قالت السيدة بوركهارد للخادم بعربية ضعيفة:

- الفتاة.. أين؟

نكس الخادم رأسه في أسى، ثم أشار إلى هبة. تراجعت هبة، وبدا لها أن الجميع يراها فجأة. نظرت إلى السيدة بوركهارد التي تقف بجانبها، ليتحول وجهها إلى شيء شيطاني، لتضربها على رأسها بشيء ثقيل، ليسقط جسدها على السلم الحجري.

***

فتحت عينيها أخيرًا وصدرها يعلو ويهبط من فرط التنفس. هدأت قليلًا، ثم نظرت حولها، وعلى شعاع الضوء الضعيف استطاعت رؤية شخص ما جالسًا على مقعد بجانب فراشها، شخص ما جالسًا في سكون غريب لا يتحرك، خيل إليها أنه لا يتنفس أيضًا. مدت يدها تحاول لمسه، ولكن الشخص اقترب منها وربت على رأسها في حنان.

زفرت هبة عندما رأت جدتها وهي تبتسم لها، ثم تطلعت إلى غرفة جدتها ذات الأثاث الرث وهي تحمد الله على استيقاظها من هذا الكابوس. تحسست رأسها فوجدته ملفوفًا بشاش طبي، فنظرت إلى جدتها متسائلة.

- أنت بخير، لا تقلقي.

هزت هبة رأسها ثم صرخت:

- محمود!

ربتت جدتها على كتفها وقالت وهي تمسح دموعها:

- حتى الآن هو بخير، ولكن علينا التحدث قليلًا. كيف تشعرين؟

- حمدًا لله، رأسي يؤلمني قليلًا، ولكني بخير.

- حسنًا.. هبة، أريدك أن تكوني قوية، ولتعلمي أن ما حدث ليس بسببك.

قطبت هبة جبينها وهي تعتدل:

- جدتي، ما الأمر؟

تساقطت دموع سوسن، ثم رفعت رأسها بشموخ:

- هبة، محمود أصبح من ضيوف البيت.

حدقت هبة إلى وجه جدتها. إنها لا تمزح، تلك المرأة لا تمزح أبدًا. صرخت باكية، فاحتضنتها جدتها كاتمة صوت نحيبها.

الآن عرفت، محمود ليس بخير، محمود مات، وبسببها.

***

راقبتها جدتها وهي تتناول بعض الحساء بسرعة غريبة. ليس بسبب جوعها، ولكن بسبب الاتفاق الذي عقدته معها، والذي ينص على أن تتناول طعامها كاملًا لتسمح لها برؤية محمود. مر يومان منذ استيقاظها، يومان وهي تتوسل إلى جدتها كي تراه، ولكن دون فائدة. أخبرتها أنه يحتاج إلى وقت كي يفهم المنزل. طمأنتها أيضًا أنه لا يمر بتلك التجربة وحيدًا، بل تدخل أبوها ليرافقه في مأساته. أخبرتها الكثير والكثير، ولكن هبة استمرت في الصراخ والبكاء طوال الوقت كي تراه، حتى أتى أبوها بنفسه وطمأنها. عندها بالطبع استغلت جدتها الفرصة لترمي بشروطها؛ عليها أن تأكل جيدًا وتستحم، وتتأكد أنها هي أيضًا بخير كي تسمح لها برؤيته. مر يومان وهبة تنفذ الاتفاق، تأكل وتستحم، وتسترد صحتها بطريقة عجيبة؛ فقط كي تراه وتطمئن بنفسها. الآن حان الوقت لتراه، لذلك فهي تنهي طعامها بسرعة البرق، وجدتها تراقبها في صمت.

- انتهيت، الحمد لله.

قالتها وهي تمسح فمها بكم قميصها.

- وهل تنوين الذهاب إلى محمود بهيئتك تلك؟

ابتسمت هبة لأنها عرفت؛ مجرد سؤال جدتها يدل على أنها تنوي تنفيذ وعدها.

- بالطبع لا، لقد جهزت فستانًا أنيقًا لمقابلته.

قالتها ثم أسرعت تخلع قميصها وترتدي فستانًا أزرق قصيرًا. مشطت شعرها، ثم وضعت أحمر الشفاه، وقالت لجدتها:

- أنا جاهزة، هيا بنا.

وقفت جدتها مترددة، ثم توجهت إلى الباب، ولكن قبل أن تمس يدها المقبض التفت:

- وأحمد؟ ألا تودين رؤيته هو الآخر؟

فوجئت هبة بالسؤال. أحمد من؟ هل تعني أحمد خطيبها الأول؟ ولكن ما شأنه بها الآن؟ اللعنة، هل كان في المنزل هو الآخر؟ هل حدث له شيء؟

أيقظها سؤال جدتها التالي:

- أعني ألا تفكرين فيه؟ ألم يمر على بالك في الأيام الماضية؟

قطبت هبة جبينها وهي تهز رأسها بالنفي. ما بال جدتها؟ لم تذكرها بأحمد الآن؟ ربما لهفتها على محمود جعلت جدتها تذكرها بخطيبها كي تتمهل. ولكن.. إنها ليست معه الآن؛ فلم تتحمل عبء احترامه؟ أو احترام علاقتهما؟ فكرت كم إن جدتها مريبة حقًا وغريبة التفكير!

حركت سوسن الباب، فأسرعت خلفها. تقدمت أكثر، ثم فتحت الباب لترى محمود جالسًا على طرف الفراش، وأباها يجلس أمامه يتحدثان عن شيء ما، وما إن رآها سليم حتى وقف مبتسمًا:

- هبة، تعالي معي، أريد تبادل بضع كلمات معك.

أرادت إعلان رفضها، ولكن سليم أسرع وأمسكها من ذراعها ليقودها إلى الخارج تاركًا خلفه محمود مع أمه.

- أنا آسفة أنك تمر بتلك التجربة.

رفع محمود رأسه وتساقطت دموعه فمسحها سريعًا.

- لا! تذكر اتفاقنا، لتكن قويًّا أمامها، ليس من أجلك، ولكن من أجلها. وبالطبع كما قال لك سليم؛ أنت على رأسي هنا في المنزل.

هز محمود رأسه وابتسم، فأكملت سوسن تعليماتها:

- وإياك وأن تخطئ أمامها بأي كلمة، فهي ما تزال تشعر بالذنب.

- أنا لن أفعل، أبدًا، أنا فقط...

اختنق صوته وخانته دموعه ثانية، فمسحها ونظر إلى النافذة شاردًا. أرادت سوسن قول المزيد؛ عليها ذلك، تلك هي قوانين المنزل. ولكن الفتى المسكين، إنه مجرد ضحية أخرى للمنزل، أو بالأحرى للوغد بنيامين.

دخلت هبة الغرفة وهي توافق أباها على شيء ما في استسلام. إذن سليم يقوم بدوره على أكمل وجه. ابتسمت سوسن وهي تنظر إلى ابنها وفكرت؛ ربما تلك هي المأساة التي ستجعله يرتمي في أحضانها مجددًا.

وقف محمود ينظر إلى هبة مبتسمًا ومقاومًا دموعه. اقتربت هبة وترددت. ما الذي يجب عليها فعله؟ خاصة أن أباها وجدتها يراقبان المشهد. نظرت إلى جدتها، التي قالت بحزم:

- هيا بنا يا سليم، لنتركهما بمفردهما.

قالتها وهي تسحب سليم المعترض، فنظرت هبة إلى محمود وابتسمت:

- محمود، هل أنت بخير؟

ابتسم محمود في ألم، ثم توجه إليها وقام باحتضانها بقوة. تساقطت دموعه على ملابسها، واعتصر جسدها بذراعيه. أراد الشعور بها، ود لو أوقف آلامه، وكأنه بضمه لها سيدخلها جسده ليحميها. أبعدت هبة جسدها، ثم نظرت إلى وجهه. هي أيضًا تبكي.

- محمود أنت بخير، أليس كذلك؟

ابتسم محمود وهو يمسح دموعها، ثم اقترب أكثر وطبع قبلة على شفتيها. تراجعت هبة محاولة الاعتراض، ولكنه أمسك بها بقوة وظل يقبل شفتيها. تلك المرة لم تحاول مقاومته.

***

وضعت فوزية الكؤوس أمامهما، ثم ابتسمت لهبة ورحلت مسرعة. أمسكت كأس العصير وناولتها لمحمود، فقفزت إلى رأسها تلك الأفكار عن تغذية ضيوف البيت؛ إنهم موتى، فهل يفيدهم الطعام حقًّا؟ ابتسمت له وهي تتجرع ما بكأسها، فابتسم لها وتناول ما في كأسه.

- هل شرح أبي كل شيء لك بخصوص المنزل؟

هز محمود رأسه ثم ابتسم:

- العم سليم، لا أستطيع استيعاب الأمر بعد.

ابتسمت بدورها:

- هل تتذكر عندما رأيتني معه؟ وظننته صديقي؟

- آسف، لقد تسببت في أذى كبير لك.

- لا تقل ذلك، بل أنا سبب هذه المأساة.

قالتها ثم بدأت في البكاء. اقترب منها وضمها إلى صدره، وهم بتقبيلها، ولكنها أبعدته:

- محمود من فضلك، نحن بالمطبخ؛ أي شخص يمكنه الدخول ورؤيتنا.

ابتسم محمود بأسى، ثم ابتعد عنها قليلًا. شعرت هبة بالذنب؛ فهو مات بسببها وهي ترفضه.

- هل ستحضر حفلة الليلة؟

- كلا، لست رائق البال، سأؤجل ظهوري لبعض الوقت.

قال تلك الكلمات ثم وقف:

- أنا متعب وأريد أن أستريح، بعد إذنك.

غادر المطبخ سريعًا وخلفه هبة تحاول إيقافه. ربما تطلب منه أن يقبلها كيفما يريد؛ فقط كي لا يرحل ويجلس معها قليلًا.

صعد إلى غرفته وتمدد على الفراش؛ أخيرًا بمفرده. ترك دموعه تنساب بغزارة، الآن كل شيء تغير، وعليه القيام بالاختيار. هل يكمل؟ أم ينسحب؟ هكذا أخبرته سوسن هانم، تلك هي قوانين المنزل على حد قولها. عليه التفكير مليًّا وتحديد خياراته. عليه أيضًا التفكير في هبة، بالرغم من تحذير سوسن

هانم الباهت، تحذير يجعلك ترغب في البقاء وليس الانسحاب. بالطبع هي تعرف بمشاعره تجاه حفيدتها، وستستغل ذلك كي ترغمها على البقاء.

أمسك برأسه كي لا ينفجر، وأوشك على الصراخ، عندما سمع طرقًا على باب غرفته. مسح دموعه سريعًا ثم وقف:

- سوسن هانم!

- هل يمكننا التحدث قليلًا؟

- آه.. بالطبع، تفضلي.

أغلق محمود الباب ثم جلس أمامها. ابتسمت سوسن:

- هل تحدثت مع والديك؟

- كلا، ليس بعد.

- حسنًا، لتطمئنهما سريعًا، فأنت تعلم؛ المنزل لا يحتاج إلى أعين الفضوليين.

- أعرف، ولكني أنتظر لأتحدث مع هبة أولًا.

- ولم ستتحدث معها؟

- لا، قصدت رؤيتها والاطمئنان عليها.

- آه.. حسنًا يا عزيزي، لقد أجلت التحدث في هذا الأمر كي لا أؤثر على اختيارك، ولكن من واجبي أن أعرفك الصورة كاملة، فتلك قوانين المنزل.

هز محمود رأسه وابتسم:

- بالطبع.

- جيد، لتعرف أن كل قرار ستأخذه سيكون في مقابله رد فعل.

قال محمود وهو يضغط على أسنانه:

- كيف؟

- أقصد لو قررت الانسحاب لا يمكنك الرجوع مرة أخرى، بمعنى آخر لن تستطيع رؤيتها، أعني.. قرار انسحابك من المنزل يعني اختفاءك التام من حياة هبة.

- حسنًا، فهمت الآن.

ظهرت علامات الغضب على وجهها:

- لكن لو قررت الاستمرار معنا ستكون أكثر من مجرد ضيف.

قطب محمود جبينه:

- كيف؟

- لا أستطيع إخبارك الآن؛ لأنها أسرار المنزل، وطالما لم تقرر بعد فلا أستطيع إطلاع شخص غريب على أسرارنا.

- حقًّا؟ من سيصدقني لو أخبرته عن هذا المكان.

- لا أعلم، ولا يعنيني في شيء، مسؤوليتي الحفاظ على المنزل وأسراره.

- حسنًا، اكتملت الصورة أمامي الآن وسأعلمك بقراري.

- متى؟

- لا أعرف.

ابتسمت سوسن وهي تخرج من الغرفة، ثم قالت دون أن تلتفت:

- الليلة هناك حفلة، وستنتهي في الثالثة فجرًا. الثالثة والربع سأكون أمام غرفتك لتخبرني بقرارك، وغدًا؛ إما أن تنسحب، أو تحل ضيفًا علينا لما تبقى من حياتك.

اتجه محمود إليها وأغلق الباب بعنف خلفها؛ سلوك اعتاد فعله وهو صغير، حتى ضربه أبوه ضربًا مبرحًا كي يكف عنه. الآن أبوه لا يستطيع مساعدته، الآن لا أحد يستطيع فعل أي شيء له. سقط أرضًا وهو يبكي واضعًا رأسه بين يديه متسائلًا عما سيفعله. كل قرار سيتخذه سينزع جزءًا من روحه، عليه الاختيار الآن. أي الأجزاء من روحه يمكنه العيش دونه؟

***

- لا أعرف ما حاجتي إلى كل هذا.

قالت هبة تلك الكلمات والخادمة تقوم بكي شعرها وتدبيس كل جزء على حدة.

سوسن هانم: «اليوم مميز، وعليك أن تكوني مميزة كذلك».

- مميز كيف؟ ها؟ إنها حفلة كسابقتها، فما شأني أنا بكل هذا التعذيب؟

نظرت الخادمة إلى سيدتها، فأعطتها إشارة كي ترحل، وتقدمت هي لتكمل كي شعر هبة وهي تصرخ من الألم.

- من الضروري أن تكوني مختلفة وجميلة الليلة، لأن محمود سيحضر الحفلة، ومن المهم أن يراك أجمل امرأة.

تطلعت هبة إلى انعكاس جدتها في المرآة:

- حقًّا؟ ولكنه أخبرني أنه لن يحضر.

هزت جدتها كتفيها:

- ومن الممكن أن يظهر، ولا يصح أن تحضري الحفلة ببنطال جينز و«تي شيرت»، أليس كذلك؟

هزت هبة رأسها بشرود وغاصت في أفكارها الخاصة؛ الآن محمود مختلف عنها، فهل سيظل يميل إليها؟ أم سيقرر اختيار شخص آخر ليكون رفيقه؟ شخص كـنوال مثلًا؟ أو... أو ربما له تخيلاته الخاصة. فكرت في السلطان ذي الجواري المئتين وصرخت وهي تطرد تلك الفكرة. صرخت جدتها فيها كي لا تتحرك، وأكملت فقرة التعذيب.

تفحصت هبة انعكاسها في تململ، فصرخت جدتها:

- لن تغيري الفستان؛ فأنت تبدين جميلة، انتهى الحديث!

مررت أصابعها على فستانها الوردي دون أكمام. يظهر جزءًا من صدرها ثم ينتفخ من الأسفل، وفي نهايته ذيل قصير مطرز.

- إنه عارٍ قليلًا.

- لن يوجَد غرباء بيننا اليوم.

- حسنًا، ولكن محمـــ...

- دون لكن، تعالي معي.

تقدمت سوسن حفيدتها، التي انتبهت أخيرًا إلى الوقت. الساعة الثانية عشرة ليلًا إلا ثلاث دقائق، فلم جدتها معها ولا تقف عند أسفل الدرج تستقبل ضيف اليوم؟

سحبتها جدتها خلفها، ثم شبكت أصابعهما معًا وقالت وهي تبتسم:

- مستعدة؟

هزت هبة رأسها في استسلام، فتقدمت سوسن حتى وصلت إلى بداية الدرج. عندها صدع صوت الدقة الأولى للساعة معلنة انتصاف الليل، ثم الدقة الثانية.. عندها تحركت سوسن وهي تمسك بيد حفيدتها.

هبطتا الدرج معًا، ولكن لم تجدا أحدًا في استقبالهما؛ لا خدم، ولا حشم، ولا شيء، فقط المنزل مضاء جيدًا والهدوء يعم المكان. تقدمت سوسن حتى وصلت القاعة، وما إن خطت هبة بداخلها حتى تحول كل شيء؛ أصوات فرقعة وزهور، وأشياء ملونة تنتثر فوق رأسها، وخادمات يحملن مشروبات وطعامًا على صحائف ذهبية يعرضن عليها تذوق كل شيء. حاولت إرضاء الجميع؛ فأخذت كأسًا بيد، وباليد الأخرى حملت بعض المقبلات غريبة الشكل شهية الطعم.

أخذتها جدتها ضاحكة، ثم اقتربت من رجل ما وقدمتها:

- جابر باشا، أقدم لك هبة، حفيدتي.

مد الرجل يده، وتذكرته هبة على الفور، فحيته بابتسامة وهي تفكر: لماذا تكشف جدتها صلة القرابة بينهما الآن؟ أليست شخصيتها سرية لا يجب على أحد معرفتها كي لا يؤذيها؟ أليست تلك كلمات جدتها؟ فلماذا الآن تعرفها بالجميع؟ ولم يوجد أكثر من ضيف؟ أليس هذا هو السيد الأستاذ الفنان ممدوح الباشا يقترب منها ليلقي التحية عليها مبتسمًا؟ مئة يد تمد إليها الآن لتحيتها، ولكن السؤال الأهم: لم الآن؟

جلست هبة في الصف الأول بعد إلحاح من جدتها، وبجانبهما جلس جابر باشا الأسواني الوقور، وخلفهم الكثير من ضيوف المنزل. هدأت القاعة، وصعدت كوليت الفرنسية. اللحن بدا مألوفًا لهبة، بدأت كوليت الغناء، فأيقنت أنها تعرف تلك الأغنية؛ إنها أغنية Edith Piaf - La Foule، أغنية مفضلة لها! إذن جدتها تتحكم حقًّا فيما يقدم في الحفلات، فهل لو كانت تحب عمرو دياب أو غيره، فهل سترغم جدتها أحدهم على الغناء له؟ ماذا لو كانت تفضل أغاني المهرجانات؟ ضحكت هبة من الفكرة وودت لو رأت ماذا ستفعل جدتها حينها.

أغنية تلو الأخرى؛ وكأن أحدهم سرق قائمة أغانيها المفضلة التي اعتادت سماعها قديمًا. جدتها تبتسم وتلوح للجميع في سعادة، وهبة تتساءل: من ضيف هذا اليوم؟ محمود لم يظهر بعد، وهي تشعر بالملل والاختناق، لذلك همست في أذن جدتها:

- سأرحل.

قطبت سوسن جبينها وسحبتها بعيدًا عن المسرح:

- ترحلين إلى أين؟

- إلى غرفتي.

- والحفلة؟ والضيوف؟ و...

- وماذا أيضًا؟ محمود لم يظهر حتى الآن. حضرت الحفلة من أجله، ارتديت هذا الفستان الخليع من أجله، كل هذا ولم يفكر في الظهور لدقائق.

قالت جملتها الأخيرة وهي توشك على البكاء، فربتت جدتها على كتفها:

- محمود يحتاج إلى الجلوس مع نفسه للتفكير.

- يفكر في ماذا؟

- تحديد مصيره.

قطبت هبة جبينها:

- تحديد مصير ماذا؟ إنه من سكان البيت، أليس كذلك؟

ظهر التردد على سوسن، فقالت وهي تتابع الحفلة الغنائية:

- كلا، ليس بعد؛ محمود أمامه مهلة ثلاثة أيام ليقرر هل سيكون من سكان المنزل أم لا.

- ماذا تقصدين؟ هل من الممكن أن يختفي؟ ويـ.. يموت للأبد؟

قالت كلمتها الأخيرة وهي شاردة الذهن. هذا المجنون، لو فكر في الرحيل، عندها ماذا ستفعل؟ لن تراه مرة أخرى، للأبد. إنها غير مستعدة لتوديعه، ولكنه على أي حال هذا قراره. كلا، اللعنة، ليس قراره بمفرده، إنه قرارها هي أيضًا.

***

خرجت من القاعة مسرعة. لم تشأ الاستماع لمزيد من الأغاني أو الاحتفال، في الحقيقة هي تريد الصراخ والبكاء. محمود لم ولن يحضر الحفلة، إذن لم هي مجبرة على البقاء؟ ستذهب إلى غرفتها.

توقفت عن صعود الدرج عندما رأته أمامها؛ محمود، ببدلة سوداء يبتسم لها. ارتعش جسدها وتسللت دموعها فمسحتها سريعًا.

- ظننتك لن تأتي.

- آسف، تأخرت.

أرادت قول شيء ما لتعنيفه؛ فقد جعلها تنتظر، ولكنه أسرع وسحبها إلى القاعة ثانية. كوليت ما زالت تغني بصوتها الرقيق. أمسكها من خصرها وبدأ في الرقص، هكذا دون مقدمات. ألن ينبهر بالحفلة؟ ألن يتساءل عن كل أولئك الضيوف؟ ألن يرحب به أحدهم؟ فقط يرقصان بجانب باب القاعة بمفردهما.

حدق إليها، فتجنبت النظر إلى عينيه. لم تكن يومًا شجاعة لتنظر إلى عينَي رجل ما. طوال سنواتها مع أحمد لا تتذكر مرة اضطرتها الظروف أن تنظر إلى عينيه، ولا تتذكر أنها رقصت معه مرة. تتذكر أن المسكين حاول، ولكنها صدته دائمًا، أما مع محمود فهي لا تستطيع مقاومته؛ ربما لأنها تعرفه منذ طفولتهما، أو ربما لأنه مات بسببها، ربما ما يجعلها لا تعارضه أنها فرصته الوحيدة للشعور بالحياة، ربما ما يحركها ليس الحب، ولكن الشعور بالذنب والشفقة. اعتصر محمود خصرها بقوة فنزعها من أفكارها. نظرت إليه فابتسم:

- عندما نكون معًا، لا تفكري في شخص آخر.

قال جملته ثم طوحها بعيدًا، ثم سحبها نحوه ليعيدها مرة أخرى إلى أحضانه، ولكن تلك المرة كانا مقتربين بشكل مبالغ فيه. احتضن خصرها بكلتا يديه، وقرب وجهه منها وهي تحاول إبعاده؛ فأبوها في القاعة بالتأكيد. ولكنه بالطبع لم يبتعد، بل ظل يعتصر جسدها وعلى شفتيه تلك الابتسامة الهادئة.

- محمود، أتوسل إليك!

ضحك، ثم أرخى يديه قليلًا فعادت لتتنفس:

- هل تقبلين الزواج بي؟

توقفت هبة عن الرقص وهي تنظر إلى عينيه:

- توقف عن المزاح.

- لا أمزح! هبة.. أنا أحبك، فهل تحبينني أنت أيضًا؟

- محمود، هذا الحديث لا يدار هنا، علينا التفكير أولًا.

ترك جسدها أخيرًا، وفي هدوء خرج من القاعة. أسرعت هبة خلفه وهي تصرخ:

- انتظر من فضلك! علينا الجلوس والتفكير بهدوء.. ونتـ...

التفت إليها:

- الحب ليس موضوعًا للنقاش، من يحب حقًا لا يفكر.

- كل شيء يدعو للتفكير، خاصة الحب.

ابتسم محمود وجلس على الدرج وهو يدعوها لتجلس بجانبه:

- الحب في القلب، وليس العقل.

تخلت عن غضبها قليلًا وهي تجلس بجانبه:

- القلب مجرد عضلة تضخ الدماء، العقل وظيفته أن يحب ويكره.

- هبة، لم أنت هكذا؟ لم عليك تحليل كل شيء وتفسيره تفسيرًا علميًا؟ الحب شعور تلقائي وانسيابي، اتركي مشاعرك لتنطلق وتتنـ...

- هل تقصد أني جافة المشاعر؟

- كلا، أقصد، أنك تضيعين حياتك هباء في التفكير بدلًا من أن تعيشي بحق.

- وأنت تضيع حياتك في الهلس والمسخرة بدلًا من أن تبني لنفسك مستقبلًا.

- على الأقل أنا أعيش حياتي.

همت هبة بقول شيء، ولكنها تذكرت حالته، فصمتت. عندها تغيرت ملامحه:

- هــ.. هل تتزوجين بي؟

بلعت هبة ريقها:

- حسنًا، سأتزوجك، ولكن لتعدني أن تتغير.

- أنا لن أتغير، اقبلي بي كما أنا أو اتركيني.

نظرت إليه وصدرها يعلو ويهبط:

- حسنًا، أنا موافقة.

- موافقة على الارتباط بي أنا فقط طوال حياتك؟

- أوافق.

- ولن تستطيعي الخروج أو العمل أو تحقيق ذاتك؟

تصبب العرق منها فمسحته:

- أوافق.

- احذري، سنعيش هنا للأبد.

- أعرف، وما زلت موافقة.

- وأنت موافقة لأنك تحبينني أم لأنك تشعرين بالذنب؟

صمتت هبة قليلًا؛ يمكنها الإجابة بأنها تحبه، ولكنها لم تشأ الكذب عليه، فقالت ودموعها بدأت في التسلل رغمًا عنها:

- سأتزوجك لأني السبب في تدمير حياتك. ولكن.. هذا ليس معناه أني لا أشعر بشيء تجاهك. محمود، طوال حياتي وأنا أعتبرك أخي، ولكن في الفترة الأخيرة كنت خير سند لي؛ شعرت وكأنك أبي. محمود، أنا لا يمكنني تحديد مشاعري تجاهك، ولكني أود اكتشافها معك.

- تودين اكتشافها؟ هل هي لغز؟

- محمود، من فضلك! أنا أعرف أني أحبك. كنت سأموت لما عرفت أنــ..

عم الصمت قليلًا إلا من دموعهما التي أغرقت وجهيهما، لذلك اقتربت منه أكثر وأكملت:

- محمود، يمكننا العيش في سعادة لو فهمنا طبيعتنا. أنا سأحبك بطريقتي أنا لا بطريقتك.

- كيف؟ لا أفهم.

- محمود، أنت حبك عنيف؛ من تكون معك لا بد وأن تسلم جسدها وقلبها وروحها لك، وأنا، أنا لا أستطيع فعل هذا.

ابتسم محمود في سخرية:

- ستصبحين زوجتي!

- هذا ليس بمبرر، لا بد وأن أتقبل كل تلك الأشياء.

- وهل يا ترى تقبلتها مع أحمد؟ أم لم تفعلي؟

وقفت هبة غاضبة:

- أحمد لم يحاول أن يلمسني قط؛ لأنه يعرف جيدًا أي نوع من النساء أنا.

وقف محمود، فظهر فرق الطول بينهما، وقال بسخرية:

- أحمد لم يجرب أن يلمسك لأنه لم يحبك بتلك الطريقة أبدًا.

- أي طريقة تلك؟

- طريقة حب الرجل للمرأة. وبالطبع ما إن رأى امرأة تثيره حتى تخلص منك.

تراجعت هبة قليلًا. لقد فهمت ما يقصده؛ لم تكن يومًا رمزًا أنثويًّا يثير غرائز الرجال، ونوعًا ما هي تفتخر بذلك. إنه محق، ولكن هذا شيء لا تعاب عليه، هي ستحب شريكها وتحتويه، وتقدم له كل شيء كما لم تفعل أي أنثى من قبل، في حالة أن يحبها شريكها بإخلاص.

جلس محمود على الدرج:

- آسف لأني أخبرك بذلك، ولكنها الحقيقة. وكما أعرف، فإنك تعبدين الحقيقة والواقع.

هزت هبة رأسها. أخرسها حديثه. هو محق، ولكنه لا يفهم؛ حبها ليس جنسيًّا بحتًا، حبها نوعًا ما أفلاطوني. أحمد سايرها، ولكن محمود كعادته؛ يصدمها بطبيعته كرجل. بالطبع هو الأصدق، ولكن كلماته كالشهب المتساقطة، تحرق وتدمر في نفس الوقت.

- بعد إذنك.

قالتها هبة ثم صعدت إلى غرفتها. عليها الرحيل من أمامه؛ لطالما تجنبت حدوث تلك المشادة بينهما. هل تتخلى عنه وتتركه؟ لا تعرف بعد، ولكنها لن تتخذ قرارًا الآن. لتنم قليلًا، نعم، إنها تحتاج إلى النوم.

***

ودعت سوسن آخر ضيف بابتسامتها المعهودة، ثم راقبته وهو يختفي عند الحدود الخارجية للحديقة؛ طقوس اعتادتها، ولكن قريبًا ستتوقف عنها، قريبًا ستتحرر.

دقت الساعة معلنة الثالثة صباحًا لتنتشلها من أفكارها؛ الدقة الأولى فتتوقف أصوات الهمهمة، الثانية فتخفت الإضاءة، ثم الثالثة ليغرق المنزل في الظلام والسكون. عندها تذكرت محمود. الآن عليه إعطاؤها قراره. لا تعرف ما الذي ستفعله لو رفض. كلا، لا يمكنه الرفض؛ فهو مجنون بحبها، بقاؤه سيضمن بقاء هبة؛ وريثتها الوحيدة، وبالطبع ستتحرر هي.

تأكدت من أن الخادمات نظفن المكان، ثم نظرت إلى الساعة. الآن الثالثة والربع. صعدت حتى وصلت باب غرفته، ثم طرقته. لم تنتظر كثيرًا، لا بد وأنه ينتظرها بفارغ الصبر. ابتعد قليلًا ليفسح لها المجال لتدخل، ثم أغلق الباب.

***

تقلبت هبة في الفراش بكسل دافعة الأغطية عنها. الجو بارد، هذا ما شعرت به أولًا، ثم رأت ما ترتديه؛ رداء نوم أبيض حريري، تلمسته وهي تحاول التذكر. متى لبسته؟ فهي لا تملك شيئًا كهذا. تفحصت المكان حولها، تلك ليست غرفتها؛ غرفة شاسعة أخرى مزينة بنباتات وديكورات أوروبية تناسب القرن التاسع عشر، إذن هي تحلم ثانية بمنزل بوركهارد! سمعت جلبة بالخارج، فأمسكت مقبض الباب وترددت. هل تخرج؟ في المرة الماضية لم يرها أحد حتى ضربتها السيدة بوركهارد على رأسها، فهل سيتكرر الموقف؟ اتخذت قرارها ثم فتحت الباب لتصرخ.. أمامها هذا الشاب عاري الجذع يبتسم لها وهو يحمل زجاجة خمر. تراجعت هبة، ثم ذكرت نفسها؛ هذا مجرد حلم سخيف. اقترب الشاب أكثر وهو يبتسم لها، حتى تدخل هذا الرجل وأمسك به وهو يضحك ويقول شيئًا ما بالإنجليزية. اقتربت أكثر لتتعرف عليه؛ هذا هو ألبرت، المقتول غدرًا.

أسرعت هبة تسير خلفهما وهو يسحب صديقه المخمور ليضعه في إحدى الغرف ممازحًا إياه، ثم أغلق الباب بالمفتاح. عندها استدار وتحدث بعربية ثقيلة:

- جهزت كل شيء يا خضر؟

نظرت هبة خلفها لترى الواقف في ركن بعيد؛ كبير الخدم ذا البشرة السمراء.

هز خضر رأسه وبدا عليه الحزن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

التفت ألبرت إليه:

- حزين أنت يا خضر؟

- ليس مقامي أن أحزن أو أفرح.

ابتسم ألبرت واقترب منه، ثم ربت على كتفه:

- بلغ الهانم أن كل شيء جاهز.

هز خضر رأسه في استسلام، ثم ألقى نظرة أخيرة على الباب حيث يقبع الشاب السكير، ثم تحرك لينفذ طلب سيده.

راقبه ألبرت حتى اختفى، ألبرت الذي بدا مختلفًا؛ فقد وزنًا وقص شعره، وحلق شعر وجهه. بدا وكأنه من عصر مختلف.

التفت ألبرت إلى الباب ثانية، ثم رسم على وجهه ابتسامة مفتعلة وفتح الباب ليدخل. تذكرت هبة على الفور ابتسامة جدتها التي ترسمها عند مقابلة ضيوفها. ما الذي يحاول الحلم أن يقوله لها؟ ولم تحلم بتلك الأشياء؟

اختفى المشهد من أمامها ليظهر القبو. وجدت نفسها في منتصفه؛ تستطيع الشعور بالتربة الطينية أسفل قدميها. تفحصت المكان على ضوء الشموع البسيط. النجمة الخماسية تزين الحوائط، حولها جثث معلقة لحيوانات مجهولة الهيئة بسبب التشويه الواقع عليها. زجاجات غريبة الرائحة متناثرة في كل مكان، وصندوق خشبي يقبع في أحد الأركان بحجم تابوت ملوث بمادة سوداء لزجة. اقتربت أكثر، ثم ابتعدت خائفة؛ إنها دماء، ليست مادة سوداء، ولكن الظلام يخفي الكثير من الأشياء. ماذا حدث هنا؟ رأت ما يكفي؛ لذلك قررت ألا تبقى هنا أكثر. حاولت التحرك، ولكن شيئًا ما أمسك بها

فجأة. ظهرت النجمة الخماسية أسفل منها وكأنها برزت من الأرض. صرخت هبة وحاولت تحرير قدميها، ولكن دون فائدة.. عندها سمعت خطوات متثاقلة تهبط الدرج الحجري. حاولت تحرير نفسها، ولكن دون فائدة؛ فاستعدت للدفاع عن نفسها. اقترب ألبرت وهو يمشي بخطى متثاقلة وكأنه يتوقع وجودها.

- أنت تحلمين، أنت تحلمين!

كررتها أكثر من مرة، لكن ألبرت ما زال يتقدم نحوها وعلى شفتيه تلك الابتسامة الساخرة. وقفت تنظر إليه وهي تبكي من الخوف، فاقترب حتى لمس وجهها ليمسح دموعها المتساقطة بغزارة. عندها تجمدت من الخوف، إنه لا يراها فقط، ولكنه يستطيع لمسها أيضًا! تساقطت دموعه هو الآخر، ثم أمسك بذقنها وقبلها، عندها شعرت بألم يجتاح جانبها الأيسر. ألقت نظرة لتراه يغرس السكين في جسدها قائلًا بالإنجليزية:

- There is no difference between a wise man and a fool when they fall in love.

صرخت هبة وأبعدته لتقع أرضًا. حاولت الوقوف ثانية، ولكن شيئًا ما لا يزال يثبت ساقيها. نظرت حولها لتجد نفسها أسفل الفراش تصارع ملاءة السرير. حلم آخر مزعج، بل كابوس يسبب لها الغثيان. حررت ساقيها من ملاءة السرير، ثم جلست على فراشها وهي تمسح جبينها من العرق البارد. اللعنة، لم كل تلك الأحلام؟ ولم الآن؟ تذكرت القبلة، فلمست شفتيها، ثم تذكرت محمود على الفور. ظلت طوال الليل تفكر في قرارها. تعرف؛ في النهاية ستتزوجه، ولكن تخاف الوقوع في حبه ليتحطم قلبها مرة أخرى، هي لن تستطيع تحمل كلفة تلك المشاعر ثانية.

نعم اعترف بحبه قبل كل تلك الدراما، ولكن الزواج شيء آخر. ما الذي سيثبت لها أنه يريدها كزوجته لأنها هبة وليس لأنها المرأة الوحيدة في المنزل؟ تذكرت؛ الآن محمود حر في اختيار شريكة حياته، لو لم توافق على الزواج به يمكنه اختيار أي امرأة من ضيوف المنزل، كنوال أو.. اللعنة، لا، أي امرأة إلا نوال، ربما امرأة أخرى، كـكوليت، أو... اللعنة، ستكون لعنة حقًا لو اكتشف قصر السلطان بنسائه العاريات.

جعلتها الفكرة كالمجنونة. محمود سيضيع من يديها؛ إنها لا تملك ذرة جمال أو أنوثة مقارنة بالعاهرة نوال، أو نساء السلطان تحت السن القانونية. اللعنة! ربما، ربما السلطان لا يحب المشاركة. نعم، نعم، رجل مثله بالتأكيد لا يحب مشاركة نسائه، خاصة مع رجل كمحمود. ولكن ربما يعطيه فكرة لبناء قصر مثله ليحظى هو أيضًا بعدد لا متناهٍ من النساء. اللعنة! تقلصت معدتها وهي تفكر في عدد النساء اللاتي سيتخذهن محمود في فراشه كل ليلة.

فتح الباب فجأة، فصرخت هبة وصرخت الخادمة.

هدى: «أنت بخير؟».

قالت هبة وهي تلتقط أنفاسها:

- نعم، أنا بخير.

قالت هدى بتردد:

- «مدموزيل» هبة، هل أنت حقًّا بخير؟

قالتها وهي تحدق إليها. ألقت هبة نظرة على انعكاسها في المرآة، ففهمت لم تنظر إليها بتلك الطريقة؛ ملابسها مبللة من العرق، شعرها الأسود منكوش، وملابسها تبدو وكأنها خرجت توًّا من معركة مع ثلاث نساء من أحراش المناطق الشعبية.

عدلت هبة من شعرها وملابسها سريعًا، ثم قالت وهي تحاول إنقاذ كرامتها:

- هل استيقظت سوسن هانم؟

- استيقظت، وتتناول قهوتها في الحديقة.

- حسنًا، سأبدل ملابسي وألاقيها.

هزت هدى رأسها ثم رحلت. نظرت هبة إلى انعكاسها وسبت وجهها القبيح.

أبعدت فوزية فنجان القهوة الفارغ من أمام سيدتها ثم همت بالانصراف.

- ماذا بك؟ لم أنت متجهمة هكذا؟

قالتها سوسن وهي تطالع مجلة في يدها.

تركت فوزية ما تحمله ونظرت إلى عينيها:

- كيف يا سوسن هانم تتركينه يرحل هكذا؟

عادت سوسن لمطالعة الجريدة:

- سيعود.

- وإذا لم يفعل؟

- وأنا أقول لك سيعود. محمود يحبها، وسيرجع من أجلها.

- ولكن ما طلبناه منه مستحيل؛ شاب كهذا لديه عائلته وأصدقاؤه وعمله، يحب السفر والسهر.

قالت سوسن بدلال:

- وهل يوجد أفضل من هذا المنزل ليسهر فيه؟

- هذا البيت وهم، الحياة الحقيقية بالخارج، وهو يعرف ذلك.

تحولت ملامحها إلى الغضب وهي تنهي الحوار:

- لا تصدعي رأسي بكلامك الفارغ هذا، ارحلي!

عم الصمت عندما رأت سوسن من نافذة المطبخ حفيدتها وهي تبحث عن طعام. قالت معاتبة خادمتها:

- ألم أنبه عليكن أن تعلمنني ما إن تستيقظ؟

أسرعت فوزية لتدخل المطبخ وخلفها سوسن، ولكن هبة أسرعت لتقطع عليهما الطريق وتسبقهما إلى الخارج. همت جدتها بالاعتراض، ولكنها أسرعت وجلست على أقرب مقعد.

فتحت سوسن فمها لتتحدث، ولكنها بادلت فوزية نظرات الدهشة والتعجب. أمارات الذهول الممزوج بالخوف تغطي ملامحهما.

- ما الأمر؟ ماذا بكما؟ لمَ تنظران إلي هكذا؟

ما زالت سوسن تفتح فمها لتستجدي الكلمات لتخرج، ولكن لا شيء. عندها وقفت هبة وقالت صارخة:

- أين محمود؟ هل قرر؟ هل رحل؟ لن أراه ثانية؟

أسرعت فوزية لتهدئ من روعها:

- كلا، كلا بالطبع، كل ما في الأمر أن جدتك ظننتك نائمة، أليس كذلك يا سوسن هانم؟

هزت سوسن رأسها مقطبة الجبين، ثم جلست وهي تشد ذراع هبة إلى أسفل لتجلس، وقالت بصوت أقرب إلى الفحيح:

- هل أنت بخير؟

- الحمد لله.

مرة أخرى نظرت بذهول وتعجب إلى فوزية، فوجدتها مبتسمة وهي تحملق إلى هبة وكأنها تراها لأول مرة.

سوسن: «بالطبع جائعة. فوزية، هلا أمرت أحدًا ليحضر الفطور لها!»

قالت فوزية بسعادة مفاجئة:

- سأحضره بنفسي.

تعجبت هبة من تصرفاتهما:

- حقًّا، ما الأمر؟ لقد مررت على غرفة محمود لأجدها خالية. جدتي، من فضلك أين هو؟

تجرعت سوسن ما تبقى من فنجان قهوتها الباردة:

- انعزل بضعة أيام ليفكر.

- يفكر؟ مرة أخرى؟

- هبة، ألم نتفق؟ عليه اتخاذ قراره بنفسه.

تساقطت دموعها:

- أظنه لن يظهر ثانية؛ أنا تعاركت معه ليلة أمس.

تركت سوسن الفنجان يسقط من يدها:

- أجننت؟ ألم أقل لك لتترأفي به وتجذبيه إليك؟

انفجرت هبة في البكاء:

- حاولت، ولكن هو أراد أنـــ...

- ماذا أراد أيتها المصيبة؟

- احتضاني، وتقبيلي، وأشياء أخرى، ولكني صددته.

قالت كلمتها الأخيرة وهي تبكي.

وقفت سوسن ليسقط المقعد من خلفها وهي تقول بغيظ:

- كان يجب أن تتركيه أيتها المعاقة يفعل ما يريد؛ فمصيركما الزواج في النهاية.

صرخت هبة:

- جدتي، ما الذي تقولينه؟

- ما الذي أقوله؟ هل تعرفين؟ سأخنقك بيدي العاريتين هاتين وأخلص الجميع من غبائك هـــ...

توقفت سوسن لما رأت سليم يقف على باب المطبخ ينظر إليها غاضبًا. اعتدلت هبة ومسحت دموعها. اقترب سليم منها حتى جلس بجانبها بهدوء:

- كيف حالكما الآن؟

- الحمد لله.

- ورأسك؟ أما زال يؤلمك؟

قال جملته وهو ينظر بعتاب إلى أمه. لاحظت هبة نظراتهما، فقالت:

- كلا، الألم اختفى.

ابتسم سليم برغم نظرة الحزن في عينيه:

- حسنًا، اطمأننت عليك. هل تحبين تناول الفطور معي؟

هزت هبة رأسها موافقة، ثم اتبعته إلى داخل المنزل تاركة جدتها تغلي من الغضب بمفردها.

***

دقت ساعة الحائط لتعلن السابعة مساءً.

- هل كنت مخطئة؟

قالتها سوسن لنفسها وهي تنظر إلى الساعة للمرة الألف هذا اليوم. أخرجت الهاتف الصغير الذي تملكه، وهمت بالاتصال به، ولكن للمرة العاشرة تتراجع عن قرارها.

- هل كنت مخطئة؟

ربما محمود يحب الحياة أكثر من هبة. لطالما راهنت على الحب؛ المنزل جعلها تؤمن بذلك، فكل شيء يتحرك هنا بالحب، أخبرها والدها بذلك. الحب هو المحرك والوقود لهذا المنزل؛ حب السيد بوركهارد لولده جعله يحول المنزل إلى هذا الكائن، حب السلطان للحريم جعله يضحي بسنوات شبابه ليكون بطارية حية للمنزل، حب الضيوف لذويهم هو ما يوقظ المنزل كل ليلة. بعض الحب منحرف الطبيعة؛ كحب نوال للانتقام، أو كحب بنيامين للتعذيب، ولكن دعونا نتفق أنه نوع من أنواع الحب.

راهنت على حب محمود لها، فهل خسرت الرهان؟ أم إن الحب لشباب اليوم لا يعني كما كان سابقًا؟ أصبح مشوهًا، تشوبه الماديات والتظاهر الفارغ بمشاعر غير موجودة أصلًا، ربما سمة العصر أن الجميع يتحدث عن الحب، والقلة فقط هم من يملكونه.

أخرجت الهاتف ثانية، ولكن قبل أن تطلب الرقم توقفت. ليقرر بمفرده، يمكنها إخباره الحقيقة. ربما تطلب منه المكوث لأربعين يومًا فقط ثم يكون حرًّا، لكن هبة لا تستحق ذلك. إن لم يظهر محمود مع نهاية اليوم ستخبر حفيدتها بكل شيء، ستخبرها وليذهب المنزل إلى الجحيم، ستفقد بتلك الطريقة كليهما، وستظل هي حبيسة هذا المكان، ولكن هبة تستحق أن تمنح الاختيار هي الأخرى. ربما تقرر البقاء لتستلم ميراثها، أو ربما ترحل لتفعل ما يحلو لها. لقد حاولت، يشهد الله وسكان المنزل أنها حاولت، ولكن ما باليد حيلة.

***

لم يتركها أبوها طوال اليوم؛ تلك أطول مدة قضتها في حياتها معه. شعرت بالسعادة، ولكن سعادتها يشوبها بعض الحزن؛ فمحمود لم يظهر بعد. هل قرر الرحيل؟ سيموت في هدوء ولن تراه ثانية، لم يسمع اعتذارها بعد، لم تخبره بحقيقة مشاعرها. كيف ستواجه عائلتها؟ ماذا ستخبرهم؟ محمود مات دفاعًا عنها ضد يهودي سادي؟ وبالمناسبة هو شبح مات منذ أكثر من نصف قرن؟

أرادت البوح بالمزيد من الكلمات والمشاعر له، لكن أكثر ما يؤلمها المقارنة؛ سيرحل ولن يعرف أنه سيفوز في كل المقارنات مع أحمد، تلك هي الكلمات التي أرادت قولها.

رأت جدتها تجلس بالقرب منها، فبادرت بسؤالها عن محمود للمرة المئة. أشاحت جدتها بوجهها بعيدًا:

- الاختيار ليس سهلًا يا هبة، أعطِيه وقتًا.

هزت رأسها في استسلام، ثم قفز إلى رأسها سؤال لم تفكر فيه من قبل:

- جدتي، نوال قصت لي حكايتها عن الأناس الذين حاولوا اقتحام البيت، ولكن الكناس انتقم منهم. لماذا إذن الكناس لم يتحرك للدفاع عني أو عن محمود؟

- لأن مقتحمي البيت في قصة نوال كانوا أحياء، لكن بنيامين ميت.

الرد جاهز، هذا ما فكرت فيه هبة، وكانت محقة. فسوسن قتلت نفسها من كثرة التفكير، لماذا المنزل لا يحمي عائلتها؟ سليم في الماضي، والآن...

ألقت سوسن نظرة على وجه هبة، وعرفت أن الإجابة غير كافية، لذلك بدأت الهجوم:

- مر أسبوع، وتسألين الآن؟

- حقًّا؟ أسبوع؟ أشعر أنها حدثت أمس. ولكن أليس من المفترض أن يتحكم المنزل في الأموات وليس الأحياء؟

فكرت سوسن أن محمود كان مصدر إلهاء لا بأس به؛ الآن ستسأل وتفكر وتستنتج حتى تصل إلى الحقيقة. فقط يمر أربعون يومًا، وعندها ستخبرها بكل شيء.

- وكيف يظهر بنيامين وقتما يريد؟ أليس من المفترض أن كل ضيف له وقت ليـ...

قالت سوسن صارخة:

- الخواجة ليس من ضيوف البيت!

نظرت إليها هبة بغضب، فتراجعت سوسن وقالت بهدوء:

- هبة، حبيبة قلبي، أخبرتك منذ البداية أن البيت له الكثير من الأسرار، وأنا أعرف القشور فقط؛ لذلك لا أستطيع إجابتك، فأنا مثلك لا أعرف ما حدث ولماذا.

قالت هبة بشرود:

- وكأن البيت أراد قتل محمود.

تلك هي الجملة القاتلة. سوسن عرفت الحقيقة التي لم تشأ البوح بها بصوت مرتفع؛ المنزل أراد موت أحدهم.

***

انتهت أمه أخيرًا من البكاء، أما أبوه فظل صامتًا طوال الوقت؛ مما جعله مرتبكًا أكثر. التعامل مع أمه سلس، التعامل مع شخص يظهر مشاعره سهل، حتى وإن كانت تلك المشاعر سلبية أو عاصفة، أما أبوه فهو كالحجر؛ لا يظهر أي مشاعر، ولا يتحدث على الإطلاق، فقط يجلس في ركن الغرفة يشعل لفافة تبغ تلو الأخرى.

قطعت أمه الصمت أخيرًا وهي تمسح دموعها:

- هل هذه هي النهاية؟ سترحل ولن أراك ثانية؟

- أمي، من فضلك! أنا أخبرتك بكل شيء.

- وأختك؟ ماذا سأخبرها؟ وأبناؤها؟ لن يكون لهم سند.

- أبي موجود، ليطِل الله في عمره.

قال جملته الأخيرة وهو ينظر إلى أبيه، الذي قرر أخيرًا فتح فمه:

- لتعتنِ بهبة.

قالها ثم خرج من الغرفة مسرعًا. عندها انفجرت أمه في الصراخ مطالبة إياه بمنع ابنه من الرحيل.

أمسك محمود برأسه. لقد حاول تبسيط الأمور، ولكن كلمة وداعًا صعبة، خاصة عندما تقولها لأمك. سيهاجر مع هبة، سيرحل ولن يعود، حاول تحميلهما الذنب، خاصة أنهما من دفعا هنا إلى سرقة خطيبها منها. تلك حجة ممتازة توصل إليها بعد تفكير عميق. إشعار الطرف الآخر بالذنب خطة

دنيئة، ولكنها فعالة دومًا. أبوه يشعر أن شيئًا ما خاطئ، ربما يظنه استغل الظروف النفسية السيئة لهبة وفعل شيئًا بها، لكنه لا يهتم بالظهور كوغد أمام أبيه، المهم الآن ألا يبحثا عنهما.

ودع أمه للمرة الأخيرة، ووعدها بالاتصال بها كل يوم، ثم توجه إلى أبيه وقبل يده. ألقى على عاتقه مهمة إخبار عمته سامية عن زواجه بابنتها، ولكنه ترجاه أن يخبرها بعد عقد القران وليس قبله. ودع أصدقاءه، ثم ركب سيارته ورحل. الساعة العاشرة مساءً، وهو لم يحاول التحدث مع هبة أو سوسن هانم. نوعًا ما أراد الانتقام من كلتيهما؛ هبة لأنها لا تحبه بما يكفي، وسوسن لأنها عاهرة متحجرة القلب.

أوقف السيارة أمام المنزل. كم يبدو بريئًا من الخارج! صامتًا، ومظلمًا، ولكن من الداخل.. هذا موضوع آخر. اقترب من الباب، وقبل أن يمسه فتح. هل تلك طريقته للترحيب به؟ الظلام والبرد يشعان من الداخل. سرت قشعريرة في جسده وهو يخطو بداخله. عليه اعتياد تلك الأمور الآن. أراد سبه، ولكنه يعلم عن الكناس الآن، فمن الأفضل الاحتفاظ بألفاظه النابية في عقله.

توجه إلى الدرج مباشرة فوجدها أمامه. لم يعلق، بل ظل يصعد حتى اقترب منها. تخطاها وكأنها غير موجودة؛ مما أغضبها.

- تأخرت!

- أين هبة؟

اشتعل رأسها غضبًا، ولكنها تحكمت في انفعالاتها:

- لا أعرف، ربما اختفت هي الأخرى.

أراد دفعها من أعلى الدرج كي تسقط ويكسر عنقها، ولكنه التفت إليها:

- أين هي؟

تراجعت سوسن عن موقفها:

- نائمة، لتتحدث معها غدًا.

تفحص محمود المنزل المظلم:

- ألا توجد حفلة الليلة؟

- لا توجد، والأفضل ألا تخرج من غرفتك الليلة.

أراد السخرية منها، ولكنه استمر في السير حتى وصل إلى غرفته. يحتاج إلى رؤيتها، لن يهدأ له بال حتى يراها ويطمئن قلبه. بخطى سريعة وصل إلى غرفتها ودخلها. سوسن محقة، إنها نائمة. اقترب أكثر ليراقب تنفسها.. يكفي هذا، ليرحل. ألقى نظرة أخيرة عليها، فوجد الكثير من المناديل الورقية المبللة؛ لقد قضت ليلتها في البكاء إذن.

جلس بجانبها وربت على رأسها. سيوقظها، يحتاج إلى سماع صوتها، ليطمئنها ويرحل بعدها مباشرة. فتحت عينيها أخيرًا بعد عدة محاولات، ثم انتفضت خائفة:

- محمود، أنت هنا؟

ابتسم لها وهز رأسه.

حكت رأسها، فناولها كوبًا من الماء، ثم توقفت في منتصفه:

- هذا معناه أنك قررت البقاء لتصير من ضيوف المنزل!

ابتسم بحزن وهز رأسه، فتساقطت دموعها ودفنت رأسها في أحضانه. حاولت قول شيء، ولكنه لم يسمع إلا نحيبها. بضع دقائق مرت حتى هدأت واستعادت قدرتها على الحديث.

- محمود، هناك شيء مهم أخبرني أبي به.

- ما هو؟

- أبي أخبرني أن هناك حالة نفسية تحدث لضيوف المنزل كل عام في نفس الوقت الذي قتـ...

توقفت عن الحديث أمام ابتسامته الحانية، فتراجعت:

- أنا لا أريدك أن تندم، أنا...

- لو أردت تطفيشي فلن تقولي تلك الكلمات.

قال تلك الكلمات أمام عينيها الذاهلتين، ثم بدأ في الضحك. ضربته على كتفه فاقترب منها أكثر.

- محمود، اهدأ.

لم يهتم بتحذيرها، واحتضنها بقوة. بالطبع هو يشتاق إليها، ولكنه احتضنها كي لا ترى دموعه وهي تتسلل من عينيه. الآن سيبقى، فقط من أجلها، سيبقى وليذهب كل شيء آخر إلى الجحيم.

***

- محمود ظهر أمس.

أسقطت كوب الشاي الساخن من يدها وأعطتها ظهرها قائلة والسعادة جلية في صوتها:

- آه، عرفت؛ هو تحدث معي.

قالت جدتها بتعجب:

- تحدث معك!

- أقصد استيقظت فوجدته؛ لذلك عرفت.

بالطبع لم تصدق سوسن أيًا من كلامها غير المرتب، ولكنها قررت ألا تضيق الخناق عليها، فلتتركها مع أكاذيبها السخيفة.

- جدتي، هل محمود سيظهر كل يوم؟ أم في يوم وفاتــ...

- لا تقلقي، محمود ضيف جديد، ويمكنه الظهور في أي وقت، أو كما يحب.

ابتسمت في سعادة جعلتها تنسى تحضير كوب شاي آخر ورحلت. أحست سوسن بمشاعرها تجاه محمود، فهل هو يؤمن حقًا بأن هبة تحبه؟ وجوده ضروري لتوازن المنزل، أو بالأحرى لتوازن الحالة المزاجية لهبة. لم يحظَ المنزل من قبل بزوجين أحدهما على قيد الحياة. ربما تتغير الأمور على يديهما، أو ربما يحترق كل شيء، أما الآن فعليها التحدث معه. ظهرت خادمة من العدم وانحنت في أدب منتظرة أوامر سيدتها.

- أحضري محمود بيه.

انحنت الخادمة مرة أخرى ثم اختفت. تناولت سوسن ما تبقى من فنجانها، وحاولت ترتيب أفكارها. عليها التركيز والتخلي عن عنفها لتكسب محمود في صفها؛ قريبًا سيصير من حكام المنزل، وهي لا تتحمل كلفة معاداته، كما إنها لا تعرف أين سيقع ولاء الكناس بعد تلك التغييرات، لتحسن العلاقة معه الآن.

لم تمر إلا دقائق وكان محمود يقف أمامها وخلفه الخادمة، التي انحنت في أدب. هزت سوسن رأسها راضية عن الخادمة. لم تختفِ أمامه حتى لا يشعر بالخوف، من المهم ألا يعرف كل أسرار المنزل دفعة واحدة.

- طلبت حضوري.

ابتسمت سوسن وأشارت إلى مقعد بجانبها:

- تعال يا محمود، اجلس بجانبي؛ يوجد الكثير من الكلام علينا قوله.

زفر محمود وابتسم بتكلف، ثم جلس على مقعد بعيد عنها. تحكمت في غضبها وقالت وهي ترسم ابتسامتها بغيظ:

- أنا لن أخفي عليك سعادتي بقرار رجوعك.

- أنا عدت من أجل هبة، وليس من أجل سعادتك.

إنه طفل وقح، هذا ما فكرت فيه وهي ترتشف ما تبقى من كأس الماء.

- لا تنكر أنه قرار صعب؛ أن تودع كل شيء في حياتك لتمكث في بيت محتضر، خاصة أنك ما زلت شابًّا ووسيمًا، وكما عرفت من هبة، أنك تحب السفر.

- أحيانًا أتعجب منك؛ كأنك تشجعينني على الانسحاب.

- «باردون» يا محمود، لم أقصد. كل ما قلته إن الاختيار مؤكد أنه صعب، ولن يلومك أحد لو قررت الانسحاب بعد الأربعين.

وقف محمود غاضبًا:

- أنا وافقت على الاشتراك معك في هذه الجريمة، فلا داعي لإشعاري بالذنب كل دقيقة. أنت احتلت على ابنك ووعدته بزوجته وابنته؛ لذلك قرر البقاء، فلا داعي لاستخدام نفس الأسلوب معي.

قال تلك الكلمات ثم غادر مسرعًا. وقفت سوسن وهي توشك على سبه واستدعاء الكناس من أجله، ولكنها توقفت. يجب أن تهدأ وتفكر في هبة. جلست ثانية وهي تفكر في إحضار الفتى الآخر.. ماذا كان اسمه؟ نعم، أحمد. ربما لن يكون وقحًا كهذا.

***

انتهى سيد المحامي من تجهيز كافة الأوراق؛ بعض الرشى والابتسامات من مساعدته الفاتنة جعلته يتم مهمته الصعبة. الآن هو أمام تحدٍّ آخر؛ عليه الذهاب إلى المنزل مرة أخرى، هذا البيت الملعون، الذي يقبع وسط المجهول. ما زال يتذكر آخر مرة، عندما أوشك على الموت؛ الجوع، والعطش، والخوف، و... والأشباح، اللعنة! عليه الانتباه هذه المرة. لا، لن يستسلم لأي فتاة جميلة تطلب منه أن يفتح لها الشباك أو يصعد معها إلى غرفتها ليرى، عله يظهر فستانها ملابسها الداخلية. كلا، سيكون ذكيًّا هذه المرة.

تأكد من جميع أوراقه، ثم حمل كل شيء وغادر. ترك مالًا يكفي زوجته لشهر؛ فلا يعرف كم يومًا سيغيب هذه المرة، ولكنه –على عكس المتوقع– مطمئن نوعًا ما فهو ليس بمفرده، بل يرافقه المأذون؛ رجل مسن و «بركة» على حد قول نسيبه. ربما وجود هذا الشخص المتدين يمنع ظهور الأشباح له.

***

- هو يوم مشؤوم.

قالها سيد وهو يغير إطار سيارته، والشيخ المسن في السيارة يطلب منه الرحيل وعقد القران في يوم آخر.

- يا شيخنا اصبر، سأغير العجلة وإن شاء الله نتحرك.

- يا سيد سيد، هذا الكلام قلته من ساعة، الآن الساعة العاشرة، وأنا أنام مبكرًا، كما إن المنزل بعيد. متى سأنهي الزواج؟ ومتى سأعود للمنزل؟ هذا غير الأمطار التي سدت الطريق.

جفف سيد الماء من على وجهه وشرع في استكمال تغيير الإطار؛ فهو يعرف أنه لا مفر من تنفيذ أوامر السيدة سوسن، تكفي نظرة واحدة منها كي يتحول إلى فأر صغير. امرأة تتحكم في بيت من الأشباح، فما الذي يمكنها أن تفعل به هو؟ ربما تبعث بعفريت يقتله وأهل بيته. انتهى أخيرًا قبل تململ الشيخ، وانطلق في تلك الليلة المشؤومة.

***

- المأذون وصل «مدموزيل» هبة.

قالتها الخادمة ثم رحلت. وقفت هدى:

- جاهزة يا أحلى عروسة؟

ابتسمت هبة وألقت نظرة على انعكاسها في المرآة. هدى صنعت معجزة حقًّا؛ تبدو كفتيات الإعلانات بفستانها الأبيض الطويل الضيق، وشعرها الطويل الذي يتدلى على جانبيها. لا تعرف حل اللغز بعد، أو كيف جعلت هدى شعرها طويلًا هكذا، ولكنها بالطبع صنعت معجزة.

أمسكت هدى بذيل فستانها، وسارت هبة أمامها، لتتوقف:

- أين أبي؟

- موجود بالأسفل مع المأذون، لا تقلقي.

تنفست هبة ثم خرجت من الغرفة.

- أين وكيل العروس؟

نظر محمود إلى سليم، فأسرعت سوسن:

- العروس وكيلة نفسها.

ابتسم سليم بحزن وأكمل المأذون الإجراءات الكتابية. فتح باب الغرفة ليبرز العم زغلول المسن وهو يجرجر قدميه.

قال سيد للمأذون:

- وهذا هو الشاهد الثاني يا شيخنا.

نظر إليه المأذون بتشكك، ثم طلب بطاقته هو الآخر. فتح الباب ثانية، ولكن تلك المرة برزت هبة بفستانها الأبيض، ووجهها المبتسم؛ فتغير جو الغرفة الكئيب، وابتسم المأذون لأول مرة اليوم:

- ألف مبروك يا عروستنا.

ابتسمت هبة وطأطأت رأسها خجلًا. وقف سليم وطلب منها الجلوس مكانه، أما محمود فكان ينظر إليها مذهولًا. إنها جميلة! وهي على بعد خطوات من أن تصير له.

شرع المأذون في إتمام الزواج.. طلب منه ترديد بعض الكلمات، أو إمضاء اسمه في أكثر من موضع. نفذ المطلوب بطريقة آلية شارد الذهن، نعم، لطالما تمنى هبة، ولكن الآن شيء ما تغير. يريدها، ولكن يشعر أنه لا يمكنه المساس

بها، وكأنها أصبحت نوعًا من «التابو Taboo» المحرم عليه، أصبح مختلفًا عنها، فهل يصح جمع عالمين معًا فيزيائيًّا؟ هل يجوز؟ أما طبيعيًّا فهو بالتأكيد محرم. ولكن للحق كل شيء في هذا المنزل لا يجوز فيزيائيًّا أو طبيعيًّا.

أيقظته من أفكاره تلك الزغاريد التي أطلقتها إحدى الخادمات. وقف سليم ليقبل رأس ابنته. الآن عليه أن يفعل المثل.. اقتربت هبة منه ونظرت إلى عينيه. ساقاه لم تعودا تتحملانه، سيصرخ الآن معترفًا بكل شيء. اقتربت أكثر، وطبعت قبلة على خده وابتسمت مبتعدة. تراخى جسده على أقرب مقعد، ثم نظر إلى سليم، الذي أشاح بوجهه.

- اللعنة!

قالها محمود قبل أن تأمره سوسن بالذهاب والوقوف بجانب هبة لتلتقط لهما الصور التذكارية.

***

دقت الساعة معلنة منتصف الليل، فنظرت سوسن إلى الجميع نظرة ذات مغزى. تحركت الخادمات يحملن الأكواب الفارغة والطعام. اقتربت من محمود:

- أظن أنه حان الوقت لتصعد مع عروسك.

هز محمود رأسه في استسلام، ونظر إلى هبة فطأطأت رأسها خجلًا. أمسك بيدها حتى قادها إلى إحدى الغرف التي أشارت عليها الخادمة. دخلا كلاهما، فأغلق باب الغرفة ونزع سترته سريعًا. جلست هبة على طرف الفراش، أما هو فبدأ في نزع ربطة عنقه، ثم فك أزرار القميص. لم يكن يقصد شيئًا، كل ما في الأمر أنه شعر بالاختناق. تلاقت أعينهما، فارتعشت خوفًا. نظر محمود حوله ففهم ما يدور في رأسها الآن.

اقترب منها وجلس بجانبها على الفراش:

- هبة، لا تخافي، أعرف أنك متعبة، أنا أيضًا متعب. فلتنامي على السرير، وسأفترش أنا الكنبة.

قالها ثم هم بالوقوف، فأمسكت يده.

- محمود، أنا لا أستطيع تخيل مشاعرك الآن، ولكن يمكنني التحدث عن مشاعري. أنا لست خائفة أو أشعر بالتقزز أو غير متقبلة للموقف.. محمود، أنا أحبك، ولا أشعر بأي تغيير تجاهك.

ابتسم جالسًا بجانبها:

- لا أريد الاستعجال في هذا الأمر كي لا تجدي نفسك تكرهينني. الحب لا يجب استعجاله، تلك كلماتك، كما إنه لا يأتي بالقوة أو الغصب. الآن نحن متزوجان، وأمامنا الحياة كلها كي نعتاد بعضنا بعضًا.

- حقًّا؟ هل تريد هذا؟ لا تظن أني أشعر بالتقزز أو أكرهك أو أي شيء آخر؟

ابتسم محمود:

- كلا، ليست تلك الأسباب؛ أنا فقط أريد أن يسير كل شيء بالطريقة الصحيحة هذه المرة.. كي لا نندم.

ابتسمت هبة، فقبل رأسها ثم توجه إلى الأريكة لينام. بضع دقائق وهي جالسة على طرف الفراش تنتظر أن يقول لها شيئًا ما، ولكنه أتقن دور النائم. لم يشأ التعامل معها الآن، الآن سينكمش على نفسه. ربما يبكي بعد ذهابها إلى النوم، ما الذي فعله؟ وكيف يفعل بها هذا؟ ربما هي لا تستغرب الموقف، ولكنه بالتأكيد لا يستطيع لمسها.

***

أنهى محمود المكالمة غاضبًا؛ فكلما تحدث معها تصرخ وتبكي وتتوسل إليه ليعود، تقسم له إنها لم تكن تعرف بعلاقة هنا بأحمد، ولكنه بالطبع لا يصدقها. تتوسل إليه ليرجع وستنهي علاقتهما، ولكنه يعرف أنها ستتراجع. في النهاية سبت هبة، لأنه يحبها أكثر منها. لم يستطع إكمال المكالمة، وأغلق الهاتف. فقط لو عرفت ما حدث لبكت حزنًا هي الأخرى.

الآن عليه أن يهدئ من نفسه؛ فطقوس الغداء مقدسة في المنزل. طاولة طويلة من الطعام وخلفهم قطيع من الخادمات. ربما يظن البعض أنه أمر طبيعي أو غير مهم، ولكنه يجد صعوبة في بلع الطعام بسبب وجود هذا الكم الهائل من الأشخاص يراقبونه.

أشعل لفافة تبغ وظل ينفث الدخان حتى هدأ. أطفأها وتوجه إلى غرفة الطعام. وجد الجميع في انتظاره وعلامات الغضب بادية على وجه سوسن.

- آسف!

ابتسمت هبة له ابتسامة حانية، كذلك فعل سليم.

- الأكل يوضع على الطاولة الساعة الرابعة، وأنت مؤكد تعرف القراءة والكتابة.

- جدتي، من فضلك!

ابتسم محمود:

- آسف، كنت أتحدث مع أمي، ما زالت لا تتقبل الموقف.

ربتت هبة على يده لإظهار دعمها، ولكنه نزع يده سريعًا، ثم ابتسم لها وأمسك بصحن فارغ ليملأه بشيء ما. تداركت هبة الموقف، وبدأت في سؤال جدتها عن موعد الحفلة القادمة. أجابتها باقتضاب، فما زالت تركز اهتمامها على محمود وتصرفه الأخير؛ مما جعل مهمة تناول طعامه صعبة بعض الشيء. لاك بضع لقيمات، ثم استأذن وغادر الطاولة.

ألقى سليم نظرة عتاب إلى أمه ثم غادر الطاولة هو الآخر. لم تعلق هبة، ولكنها استمرت في تناول طعامها رغم نظرات جدتها الفاحصة لها.

- ألم يفعلها بعد؟

قالتها سوسن بصوت أقرب إلى الفحيح.

لم تهتز هبة، بل ظلت تتناول طعامها بهدوء:

- كلا؛ لا نريد التعجل في هذا الأمر.

- التعجل! حسنا.

لم تفتها نبرة السخرية في صوت جدتها، ولكنها أكملت طعامها. لم تكن جائعة، بل تريد أن تبدو هادئة وكأن الأمر لا يؤثر عليها بتلك الطريقة. محمود يتجنبها طوال الأسبوعين الماضيين منذ عقد قرانهما. لا تعرف ما الذي حدث له، كان يحبها، أو هكذا أخبرها. لم يفوت موقفًا يجمعهما إلا وتحرش بها، فلماذا الآن لا يطيق لمسها؟ ماذا حدث؟ لماذا يتجنبها وكأنها الطاعون؟

***

- آسف.

قالها محمود لسليم قبل أن ينطق، فجلس بجانبه صامتًا.

- أعرف، من المفترض أن أكون قويًا، لكن.. أنا لا أقدر.

قالها ثم انفجر في البكاء. أصبح يبكي في الفترات الأخيرة كفتاة مراهقة تمر بتقلبات هرمونية. شيء لا يستطيع التحكم به، ولكنه على الأقل قوي بما يكفي كي لا يبكي أمامها.

ربت سليم على كتفه:

- أعرف أن الموقف صعب، لكنك ستعتاده.

- هبة لا تستحق ذلك منا، أشعر وكأني أخونها. علينا إخبارها؛ أنت أبوها، وهي مسؤولة منك، فلتعطها حرية الاختيار.

- هبة ليست في حالتها الطبيعية، ومن الممكن أن تتخذ قرارًا متهورًا ونندم عليه جميعًا.

- كلا، أنت أناني، تلك أنانية منا جميعًا. أنا سأخبرها.

ألقى تلك الكلمات ثم هب واقفًا ليسرع إلى الخارج، ولكنه وجد سوسن تقف خارج الغرفة تستمع لكل ما يقال.

قال محمود وهو يقف أمامها بجسده المفتول:

- أنت لن تمنعيني من إخبارها.

ابتسمت سوسن بتحدٍّ:

- هل أنت واثق من ذلك؟

قال محمود بتحدٍّ هو الآخر:

- هبة من حقها أن تعرف الحقيقة.

- ومن سيخبرها بالحقيقة؟ أنت!

اقترب سليم لتهدئة الأمور، ولكن سوسن أشارت بيدها فانغلق الباب في وجهه.

الآن تقف في الممر مع محمود بمفردهما، ارتعشت الأضواء وصار الهواء باردًا وثقيلًا.. تراجع محمود لتقترب هي وعلى شفتيها ابتسامة مجنونة.

- يلزم أن تعرف مقامك هنا، ويلزم أن تعرف أيضًا أن الحوادث تقع لأي شخص وفي أي وقت، وسيكون شيئًا حزينًا لو قضيت مدتك هنا دون أن يبادلك أحدهم الحب؛ لأني سأتأكد بنفسي ألا يحبك أحد هنا.

قالت تلك الكلمات لمحمود وهو يصارع ليلتقط أنفاسه. اقتربت وربتت على رأسه، وأشارت بيدها فعادت الأضواء، ومعها عاد الهواء لرئتيه.

أسرع سليم خارج الغرفة ليتفقده، ثم ساعده على النهوض ليجلسه على أقرب مقعد.

- إلى متى سنظل تحت رحمتها؟

قالها محمود وقد تحول وجهه إلى اللون الأحمر. ربت سليم على كتفه وقال بحزن:

- ليمر الأربعون يومًا ثم يمكنك الرحيل.

قال محمود صارخًا:

- وهبة؟ من المستحيل أن أتركها مع تلك المرأة!

- لن تكون بمفردها؛ سأساعدها حتى تمر تلك الأزمة.

- لكنه ليس اختيارها.

- وليس اختياري؛ الوقت سرق منا. أردت رؤيتها وهي تكبر أمام عيني، ولكن أمر الله نفذ. لكن هناك فرصة ثانية، لم لا أستغلها؟ محمود، أنا لن أجمل دوافعي؛ أنا بالفعل أناني. ستصبح أبًا يومًا ما وستتفهم شعوري. ستفهم عندما يقتطع الله جزءًا من روحك ويحوله إلى طفلة تكبر وتلعب، وتتحول لتصير امرأة لها أفكارها وأحلامها. لا أعرف هل هذه نقمة أم نعمة من الله، ولكني لن أضيع الفرصة.

- إذن أنت موافق!

- ثلاثة أسابيع مروا، لن أطلب أكثر من صبرك حتى ينتهي الأربعون.

تفحصه محمود وفي رأسه الكثير من الأفكار التي لا يستطيع البوح بها، تراخى في مقعده:

- عدني أنها ستكون في أمان، عدني أيضًا أنك ستحميها كي لا تتحول إلى سوسن هانم.

ابتسم سليم بحزن:

- أعدك.

اقتربت سوسن من حفيدتها التي تجلس في الحديقة تستمتع بضوء الشمس. ابتسمت ما إن رأتها:

- أين كنت؟ القهوة بردت.

ابتسمت سوسن بدورها وجلست على أقرب مقعد لها:

- هبة، أعرف أني لست أقرب شخص لك، ولكني امرأة طاعنة في السن، رأت الكثير من الأشياء. كما إن حياتي في هذا المنزل علمتني الكثير عن الحياة.

قالت هبة مستفسرة:

- أشياء؟ مثل ماذا؟

- هل تعرفين ما الشعور الذي اجتمع عليه معظم ضيوف المنزل؟

هزت هبة رأسها بالنفي، فأكملت سوسن مفسرة:

- الندم.

- الندم؟

- نعم يا هبة، أكثر شعور قاتل يمكن أن يحاصر الإنسان هو الندم؛ الندم قوة تدفعك لفعل أشياء كثيرة لم تكن من طبيعتك.

- كيف؟

- سأشرح لك.. تخيلي معي فتاة تحب، ولكنها تخاف مصارحة حبيبها، فيفوت الوقت ويضيع من أصابعها؛ سيدمرها الندم، وعندما تجد أي شخص يشبه حبيبها، حتى ولو من بعيد، تلقي بكل مشاعرها عليه، وعندها إما أن يكون حظها جيدًا وتعيش سعيدة، أو سيئًا لتجرح مرة أخرى.

هزت هبة رأسها في صمت، وبدا وكأنها تغرق في أفكارها الخاصة.

- هل فهمت لم أقول لك هذا الكلام؟

بدا الحزن ظاهرًا عليها وهي تهز رأسها:

- محمود...

- محمود أمامه أربعون يومًا ليقرر؛ في نهاية اليوم الأخير يحتاج إلى سبب قوي يلزمه بالبقاء.

انفجرت هبة باكية:

- حسنًا، ما المفترض أن أفعله؟ لقد حاولت كثيرًا معه، ولكنه يصدني. جدتي، أظنه لا يحبني.

ربتت سوسن على رأسها بحنان:

- أولًا: محمود يحبك، وقبل سماع اعتراضك، لنفترض أنه لا يحبك، إنه رجل وبالتأكيد يحب أشياء أخرى.

- مثل ماذا؟

- هبة، أنت الآن فتاة كبيرة ومتزوجة؛ لا بد وأنك تعرفين أن أي امرأة تملك أسلحة تمكنها من كسب معاركها.

مسحت هبة دموعها ونظرت إلى جدتها. عرفت سوسن على الفور أن حفيدتها لن تستخدم جسدها، ولكن عليها المحاولة:

- هل تريدينه أن يكمل حياته معك؟

هزت هبة رأسها، فأكملت سوسن:

- لتستخدمي جسدك الجميل، الذي لا أعرف لماذا تخفينه هكذا.

ألقت سوسن تلك الكلمات ثم غادرت. راقبتها هبة وهي تبتعد. ما المفترض أن تقوم به؟ هل كل ما تستطيع فعله هو إغراؤه بجسدها؟ ولكنه يرفضها! هل تدس له شيئًا في الطعام وتغـ... اللعنة، ماذا عليها أن تفعل؟

***

راقبت هبة الخادمة وهي ترفع آخر صحن عن طاولة العشاء. الآن سيتفرق الجميع؛ ستذهب جدتها لتراجع جدول الليلة مع فوزية، ويذهب أبوها إلى غرفته ليقرأ ويستمع للموسيقى، أما محمود فقد اعتاد الروتين الذي تحفظه

عن ظهر قلب: سيتوجه إلى الخارج ليجلس في الحديقة في هذا الركن البعيد الهادئ، يدخن سجائره ويشرب كوبًا من الشاي، ثم يذهب إلى غرفته مبكرًا لينام. لذلك صعدت سريعًا إلى حجرتها وتزينت، بعد أن ارتدت هذا الفستان الأحمر ذا الحمالات الرفيعة وقصة الصدر الكبيرة، التي تسمح بإجراء عملية قلب مفتوح لها دون خلعه. ربما هو أقرب إلى قميص نوم، ولكن لا يوجد خطأ فيما تنوي فعله؛ محمود زوجها، وعليها فعل أي شيء للحفاظ عليه.

ألقت نظرة أخيرة على وجهها بعد أن لطخته بكل تلك الألوان، ثم قررت الذهاب إليه. ستجلس في الحديقة معه لتتحدث حديثًا بريئًا، ابتسمت لنفسها في المرآة ثم انطلقت.

أكدت على الخادمات عدم تقديم شيء له. أمسكت بكوب الشاي الخاص به، ثم تحركت الخادمات يراقبنها ويبتسمن. ربما يرينها غبية، أو حمقاء، ولكنها لا تهتم؛ هي تريد الاحتفاظ به. وضعت كوب الشاي أمامه ثم جلست. ما زال يعبث بهاتفه دون الالتفات إليها.

- محمود، هل يمكننا التحدث قليلًا؟

رفع محمود رأسه ثم تجمد. حدق إلى جسدها وقطب جبينه:

- ما هذا الفستان المقزز؟

اعتدلت هبة وقالت بصوت مرتعش:

- ماذا به؟ أليس جميلًا على جسدي؟

- أقصد كيف ستحضرين الحفلة به؟

تراخت هبة في مقعدها وقالت ضاحكة:

- حفلة! هذا ليس من أجل الحفلة، إنه من أجلك.

- ماذا؟

- أقصد أنه لا يوجد بيننا غرباء، وسأجلس به معك.

هز رأسه ثم عاد للعبث في هاتفه غير مكترث بها. اقتربت أكثر بمقعدها، ثم مدت يدها لتمسك بيده التي تحمل الهاتف.

نظر إليها محمود غاضبًا، فابتسمت:

- لنتحدث معًا.

سحب يده:

- في ماذا؟

أوشكت على الصراخ في وجهه. لم تزوجها إن كان لا يهتم بها؟ لم اعترف بحبه إن كان لا يطيقها؟ تنفست لتهدئ من نفسها:

- محمود، نحن أصدقاء، أليس كذلك؟

هز رأسه دون رفعها، فأكملت:

- نحن إخوة كذلك. محمود، أنا فتحت قلبي لك وصارحتك بمشاعري، وأنت أيضًا أخبرتني بمشاعرك.

- حسنًا، جيد، ماذا تريدين؟

- أريــ.. أريدك أن تراني! محمود، أنت لا ترفع رأسك لتراني وأنا أتحدث معك. محمود، من فضلك!

قالت تلك الكلمات وهي تسحب الهاتف من يده، فنظر إلى وجهها ومد يده ليمسح الدموع التي بدأت تنساب على خديها. ابتسمت وهي تقبل يده.

- آسف، أنا فقط متضايق.

- وأنا أقدر هذا، لكني أود التحدث معك وإخبارك بأشياء كثيرة. لم تكن تتوقف عن الاتصال بي كل بضع دقائق!

- أعرف. كنت أتصل لأنك بعيدة عني، الآن أنا في السيرك القومي معك، وأرى كل شيء بنفسي.

ضحكت هبة وهي تمسح دموعها:

- كلا، من المستحيل أنك رأيت كل شيء. إياك والظن أن البيت مجرد حفلة في آخر الليل، هناك الكثير من الأشياء الأخرى.

- مثل ماذا؟

ترددت قليلًا، ثم قررت إخباره بكل شيء.

- هل تعرف قصر السلطان؟

- قصر ماذا؟

- قصر السلطان؛ قصر ضخم، به ما يقترب من مئتي امرأة، والسلطان بمفرده معهن في الداخل.

هز محمود رأسه مبتسمًا وكأنه لا يصدق.

- ألا تصدقني؟ هيا لتراه. كلا، انتظر، أنت لا تستطيع الدخول.

قال محمود مستنكرًا:

- لماذا؟

- لأن حريم السلطان لا يكشفن لرجل غريب.

- حقًّا؟

- أقسم لك، إنه قصر به النساء عرايا مع رجل واحد فقط.

انتبه محمود فجأة:

- نساء عرايا؟ ولا يوجد إلا السلطان؟ فكيف عرفت بهم؟

قالت هبة بصوت منخفض:

- دخلت المكان بالخطأ، ورأيت النساء بملابس شفافة، ومنهن عاريات تمامًا.

- وأنت وقفت لتتفحصيهن؟

خفق قلبها وأكملت:

- كلا، أنا ذهلت، خاصة عندما أمسك بي السلطان.

- أمسكك بك؟

ندمت هبة على قصها تلك الحكاية، الآن هو مقطب الجبين وغاضب.

- نعم، ولكن واحدة من الخادمات؛ هدى، هل تعرفها؟ أنقذتني وأخبرتني قصته؛ شاب قرر المكوث هنا في البيت ليعيش تخيلاته مع مئتي امرأة.

صرخ محمود:

- تخيلاته مع مئتين؟ ومن أين يأتي بصحة لكل هؤلاء؟

نظرت إليه هبة ثم انفجرت في الضحك. ضحك هو الآخر حتى دمعت عيناه. تركت مقعدها دون مقدمات لتجلس على حجره، ثم قربت شفتيها

وطبعت قبلة على شفتيه. رفعت رأسها.. لا يعارضها أو يطالبها بالتوقف، لذلك ابتسمت وظلت تقبله..

احتضنها بقوة وهي تلف يديها حول رقبته وتقبله بحرارة. أحست بيده تتسلل أسفل ردائها، وشعرت بقلبها ينخلع. محمود يحبها ولا ينفر منها. لماذا كان يرفضها إذن؟

كانت تستمتع بوقتها معه عندما شعرت بشيء يقترب منها. رفعت رأسها وصرخت! أحمد يقف في منتصف الحديقة وينظر إليهما. أخرج محمود يده من فستانها ووقف أمامها ليخفيها خلف جسده وهي تحاول شد فستانها لتغطية جسدها.

يتطاير الشرر من عينيه وهو ينقل نظراته بينهما.

قال محمود بصوت مرتعش:

- هبة زوجتي الآن، و... ومن المفترض أن تستأذن قبل الدخول إلى بيوت الناس.

رفع أحمد رأسه لينظر إليه وكأنه يراه لأول مرة، ثم صرخ وانقض عليه:

- هذه كانت خطتكما من البداية يا أولاد الكلب؟

كال أحمد اللكمات له على أرضية الحديقة وهو يسبه ويسب الجميع. حاولت هبة تفريقهما، ولكن دون فائدة؛ لذلك بدأت في الصراخ ليتجمع المنزل كله، وأولهم أبوها، الذي نجح أخيرًا في التفريق بينهما. رفع محمود عن الأرض:

- من هذا؟

هجم محمود على أحمد دون أن يجيبه، ولكن تلك المرة خرج بعض الرجال من المنزل ليفرقوا بينهما. استطاعت هبة التعرف على خافير، وشاب آخر رأته في حفلة كوليت، ولكن البقية لم تستطع التعرف عليهم. نصفهم يمسك بمحمود، والنصف الآخر يمسك بأحمد، وبينهم وقف سليم مع هبة، التي أسرعت لتقف خلفه لتخفي جسدها.

انتبه سليم لها فخلع قميصه ووضعه على جسدها. نظر أحمد بغضب إليه وحاول الهجوم عليه هو الآخر:

- ومن هذا أيضًا؟

نظر سليم إليه غاضبًا واحتضن هبة ليبعدها عن تلك المعركة. توقفت سيارة أخرى أمام المنزل لتنزل هنا منها وصدرها يعلو ويهبط من فرط التنفس.

تفحصت جسد هبة ثم نظرت إلى أخيها:

- أنت تزوجتها بالفعل؟

تذكر أحمد سبب زيارته؛ فحاول الإفلات من الرجال ثانية ليفتك بمحمود، ثم عاد الهرج والمرج.

***

تذكرت هبة ليلة أمس وهي ترتشف كوب الشاي وتراقب الفراغ.

- هل محمود بخير؟

زفرت هبة:

- لا أعرف، كل منا نام في غرفة منفصلة.

- مرة أخرى يا هبة؟

قالتها سوسن بغضب، فانفجرت هبة مبررة:

- وما ذنبي؟ كل شيء كان يسير على ما يرام حتى أتى هذا المجنون. محمود تجاوب معي، و...

- طوال عمرك وأنت منحوسة.

- وما ذنبي؟

زفرت سوسن بغضب:

- وهذا الفتى أحمد، من أين عرف بمكانك؟

- لا أعرف، لا أظنني أخبرته يومًا عن هذا المكان.

- مؤكد أنها أمك.

بادلتها هبة نظرة عتاب، فأكملت سوسن مفسرة:

- مؤكد أن خالك قال لها إن محمود تزوجك، وهي بدورها أخبرت أحمد. لذلك تلك الفتاة اللعوب جاءت خلفه.

- غريب فعلًا، هنا لا تعرف هذا المكان.

- أليس هذا الفتى هو من هجرك؟ لم أصابه الجنون لرؤيتك مع آخر؟

هبة وهي توشك على البكاء:

- لا أعرف يا جدتي، لا أعرف.

- ينتقم منه ربنا! كنت قد اقتربت وستتحولين إلى «مدام» أخيرًا.

صرخت هبة:

- جدتي، من فضلك!

- آسفة، آسفة، أعرف، أنت خجولة.

أرادت هبة البكاء والضحك في نفس الوقت؛ الموقف مضحك ومأسوي بعض الشيء. حاولت التقرب من محمود بعد معركة ليلة أمس لتضمد له جراحه، فنهرها غاضبًا وسبها بسبب فستانها الخليع الذي شاهده كل رجال المنزل.

- ماذا أفعل الآن يا جدتي؟

- اتركيه ليريح أعصابه بعض الشيء؛ لقد ضُرب بالأمس بقوة لا بأس بها.

- جدتي!

- ماذا؟ كلما قلت كلمة صرخت.

وقفت هبة وضربت الأرض بقدمها ثم غادرت سريعًا. تبدلت ملامح سوسن على الفور، وقالت بجدية لفوزية، التي ظهرت خلفها من الفراغ:

- كيف حال البيت الآن؟

بدا على فوزية التردد:

- كل شيء على ما يرام؛ العم زغلول أخرج الكناس ليخيف الضيوف ويعودوا لأماكنهم.

- وسكان الغرف المظلمة؟

- إلى الآن هادئون، ولكن...

- ماذا؟ انطقي!

- أنا لا أتحدث عن رأيي، أنا أخبر حضرتك الكلام الذي يقال؛ سواء بين الضيوف أو الخدم.

زادت سرعة تنفس سوسن:

- ماذا يقولون في الخفاء؟

- «أصبح للبيت وريث جديد».

تجمدت سوسن وزاغت عيناها، فأسرعت فوزية:

- أنا فقط أنقل لحضرتك الكلام.. لكني مـــ...

- شكرًا يا فوزية؛ لطالما كنت مخلصة.

أحنت فوزية رأسها في أدب وهمت بالمغادرة، ولكنها توقفت:

- سوسن هانم، هذا معناه أن البيت موافق على الآنسة هبة، أليس كذلك؟

هزت سوسن رأسها، فانصرفت فوزية عن سيدتها، التي غرقت في أفكارها الخاصة. فوزية ذكية، ولكنها لم تسأل السؤال الأهم؛ فمسألة أن يتقبل المنزل هبة أو لا مسألة منتهية، السؤال الأهم هو لم يستجيب المنزل لهبة وهي - سوسن هانم، حاكمة المنزل- ما زالت على قيد الحياة ولم تتنازل بعد لها؟

أمسكت سوسن برأسها التي أوشكت على الانفجار من كثرة التفكير. هبة قوية، المنزل شعر بذلك. أي شخص له قوة خاصة تغري المنزل بالهجوم عليه، ولكن هبة تختلف؛ قوتها تزداد يومًا بعد يوم، ربما لا يلاحظ أحد، ولكنها هي تلاحظ تلك الهالة حولها، التي تزداد قوة يومًا بعد يوم، وتلك الحادثة الأخيرة.. لم يلاحظ أحد غيرها، فوزية تظن أن سكان المنزل خرجوا بسبب انفعال هبة وخوفها على محمود، ولكن لم يلاحظ أحد غيرها قبل ذلك بثوانٍ؛ كانت مستمتعة مع زوجها، وهذا الشعور سرى على كل سكان المنزل، الشعور بالنشوة والحب، مشاعر سرت في حوائط المنزل لثوانٍ قبل أن تتحول إلى خوف وغضب. أمامها الكثير لتعلمه لهبة؛ أهمها التحكم في مشاعرها، خاصة الغضب.

تنفست سوسن وهي تضع بنودًا للخطة في رأسها، ثم توقفت.. هناك أيضًا محمود؛ محمود بطارية حية، ومع ذلك المنزل لا يؤثر فيه. الكناس لا يستجيب لأحد إلا ورثة المنزل، ولكنها تلاحظ فضول الكناس وملازمته لمحمود في الخفاء. اللعنة! من هو محمود حقًّا؟ ولم لديه تلك القدرة العجيبة؟ تلك أشياء لا يلاحظها أحد غيرها، ولا تعرف هل تحمد الله على ذلك؟ أم تلك واحدة من لعناتها؟ أن تكون وحيدة في أشد اللحظات ظلمة؟

***

حاولت ترتيب الكلمات في رأسها، ولكن دون فائدة. محمود جالس أمامها وهي تفكر في مئة طريقة لتفتح معه الحديث، ولكن الكلمات دائمًا ما تهرب من رأسها.

رفع محمود رأسه فجأة:

- من أين عرف أحمد بمكاننا؟

- لا أعرف.. جدتي تقترح أن أمي هــ...

لم تكمل حديثها، فكان ينظر إليها غاضبًا. إنه لا ينتظر ردًّا على أسئلته؛ إنه فقط يفكر بصوت مرتفع.

- هل ما زال يتصل بك؟

- كلا، وحتى إن فعل، أنا لن أجيبه...

- تقصدين أنه يتصل؟

- أنا لم أقل هذا، أنا فقــ...

- أريد رؤية هاتفك!

- محمود، ماذا بك؟ هل تريد التعارك معي؟

- هاتفك، الآن وإلا...

أخذت الهاتف خاصتها ورمته أمامه غاضبة، ثم خرجت مسرعة من الغرفة وهي تسبه. إنه لا يلاحظ أي شيء آخر بها؛ لا يلاحظ فستانها، أو قصة شعرها الجديدة، لا يلاحظ لون أحمر الشفاه الذي تضعه خصيصًا لأجله. عليه اللعنة!

قالتها هبة وهي تركل الباب كطفلة، ثم همت بنزول الدرج، لتجد أن باب البيت يفتح من الخارج ويد بشرية تظهر أمامها..

تجمدت هبة وهي تلاحظ هذا الشخص يدخل من باب المنزل وكأنه يتجسس. همت بالصراخ، ولكنها توقفت من فرط الصدمة.

قالت هبة بصوت مرتعش:

- محمود! ما... أنت... كيف؟ كنت توًّا.

اقترب محمود منها، ولكنه بدا مختلفًا قليلًا؛ ملابسه مختلفة، شعره ما زال طويلًا، ووجهه مختلف؛ أين الكدمات؟

- كنت أنتظرك في السيارة بالخارج؛ لقد كنت واثقًا أنك لن تتحملي هذا المنزل لدقائق. هبة، لم اختلف شكلك هكذا؟

نزلت هبة الدرج مسرعة نحوه وعقلها يعمل بسرعة غير عادية. كيف توجد نسختان من محمود؟ وما الذي يتحـــ..

لقد تذكرت؛ أول مرة أوصلها محمود إلى المنزل أخبرها أنه عاد لــيجدها في انتظاره، و... اللعنة!

- محمود، لترحل الآن، من فضلك!

- لن أرحل إلا وأنت معي. لكن، كيف تحولت لتصيري امرأة؟ وجميلة؟

- هذا ليس وقته، أتوسل إليك لترحل.

اقتربت منه أكثر لتدفعه خارج المنزل، ولكنها توقفت لتنظر إلى عينيه.. محمود الآن أمامها، ويرغب فيها، على عكس نسخته الـــ... نسخته الميتة!

تسللت بعض الدموع من عينيها، وتذكرت أنها السبب في موته؛ فاحتضنته وطبعت قبلة على شفتيه، ثم ابتعدت:

- محمود، لو كنت تحبني حقًّا لا تأت إلى هذا المكان ثانية.

هز محمود رأسه مذهولًا، فدفعته خارج الباب، ولكنه أمسك بها واعتصر جسدها وشفتيها. ظلت تقبله لبعض الوقت، حتى شعرت بشخص ما يقترب فأبعدته سريعًا:

- محمود، عدني أنك لن تأتي مرة أخرى، أبدًا.

هز محمود المذهول رأسه، ثم دفعته خارج المنزل وأغلقت الباب. عدلت من ثيابها وهي تنظر حولها لتتأكد من عدم رؤية أحد لها، ثم أسرعت تصعد إلى غرفتها، لتجد محمود أمامها مقطبًا جبينه.

- أين كنت؟

ارتعشت خوفًا. لماذا تشعر أنها خانته؟ لقد قبلته توًّا. محمود الــ. اللعنة، إنها خيانة؛ فهو لم يكن زوجها بعد!

- محمود، أنا...

- أنت ماذا؟

- أنا كنت معك توًّا، و...

قطب محمود جبينه وهو ينظر إليها، فسحبته من يده حتى وصلت إلى غرفتهما، ثم انفجرت باكية وأخبرته ما حدث توًّا. انفجر هو الآخر وبدأ في تحطيم كل شيء أمامه، ثم هدأ وغادر الغرفة.

نظرت إلى انعكاسها في المرآة، وبدأت في مسح أحمر الشفاه الملطخ حول شفتيها بسبب قبلاته.

***

- أنا آسفة!

قالت هبة ذلك لمحمود ثم جلست بجانبه. اعتدل سريعًا وابتعد عنها، فقامت وجلست بجانبه مرة أخرى.

- محمود، من فضلك، لم أفعل شيئًا خاطئًا؛ أنت زوجي و...

قال محمود غاضبًا:

- وماذا؟ ما مبررك؟ أتعرفين؟ لولا قبلتك تلك وما فعلته ما كنت لأفكر في العودة إلى هنا ثانية. ما كنت لأفكر فيك أصلًا. ما فعلته كان السبب في عودتي لأقــ...

توقف عندما وجد دموعها تنساب على وجنتيها؛ لقد بالغ في الأمر. نعم، هو غاضب منها بشكل عام، ولكن ليس لها ذنب فيما حدث. لا يمكنه لومها

على محاولة التقرب منه، فهو يتجاهلها عمدًا. اقترب منها ثم جلس، فأسرعت لتدفن رأسها في صدره وتبدأ بالنحيب.

***

- أوامرك يا هانم!

- هدى، اذهبي لتحضري محمود بيه، لكن إياك أن تراك هبة هانم.

أحنت هدى رأسها، ثم أسرعت لتنفذ أوامر سيدتها. بضع دقائق مضت، ثم وقف محمود بين يديها.

- اجلس يا محمود، أريد التحدث معك قليلًا.

جلس محمود على مضض، يراقبها وهي تعدل من نظارتها وبعض الأوراق أمامها. وضعت ما بيدها:

- أنت تعرف أن هبة وريثتي الوحيدة.

- بالطبع.

- ومن بعد هبة أنت من سترث كل شيء.

زفر محمود غاضبًا:

- سوسن هانم، من فضلك!

- يا بني اسمعني، أنا أحدثك بكلام مهم! أولًا: هبة مهمة جدًا للبيت؛ لذلك قررت إخبارها الحقيقة، ولكن بشرط.

تأهب محمود وقال متحمسًا:

- وما هو هذا الشرط؟

خلعت سوسن نظارتها:

- أنت من سيرث البيت. أقصد أنك أنت من ستكون مكاني.

قطب محمود جبينه:

- ولكن هل هذا يجوز أصلًا؟ أنا لست من دمك!

- البيت معقد أكثر من هذا. وعمومًا هو تقبلك حتى الآن، وهذا مؤشر جيد.

- إذن من الممكن أن أصير حاكم البيت؟

- بالطبع، لو أحببت.

- وهذا في مقابل أن تقولي لهبة الحقيقة؟

هزت سوسن رأسها في استسلام.

وقف محمود فجأة:

- أحتاج إلى وقت للتفكير.

- ولكن لتضع في اعتبارك أن المهلة اقتربت من الانتهاء؛ يتبقى ستة أيام والأربعون يومًا ينتهون.

- حسنًا، ردي سيكون جاهزًا غدًا، صباحًا.

- محمود، لو ورثت هذا البيت سترث ثروة ضخمة.

بدا عليه الضيق:

- قراري سيكون جاهزًا غدًا.

لقد أهانته بذكر المال، ولكنها تعمدت ذلك؛ المال دافع مهم، بل هو من أقوى الدوافع، حتى لو أظهر محمود عكس ذلك. ربما طريقتها دنيئة بعض الشيء، ربما يقرر أن يرث المنزل حتى ترحل هي ثم يحرقه، عندها لا يمكن لأحد أن يلومها؛ مهمتها تسليم المنزل لوريث مناسب، وقد قامت بتلك المهمة، أما ما يفعله الوريث فلا يخصها، أو بمعنى آخر: لا تهتم، فلم يعد المنزل مسؤوليتها، ولا يمكن أن تعاقب بسببه.

***

أغلق الهاتف وهو يسب. يريد ساعة واحدة هادئة ليقرر ما سيفعله فيما تبقى من حياته، ولكن الجميع يأبى تركه لساعة واحدة فقط. هبة أصبحت كطفلة، تريده أن يحتضنها كل خمس دقائق، وهنا لا تتركه يحظى بعشر دقائق دون الاتصال به وهي تصرخ وتبكي؛ أحمد انفصل عنها بشكل نهائي بعدما سبها وسب العائلة كلها. حاول تهدئتها، ولكنه فشل، خاصة أنها تلقي اللوم عليه، فقام في النهاية بتعنيفها غاضبًا وأغلق الهاتف في وجهها وهو يتساءل: لم أصبح مهمًا فجأة عندما تزوج بهبة؟ عائلته لا تعتمد عليه في أي شيء، ولا تهتم به على الإطلاق، فلم تحول الأمر عندما أخبرهم أنه سيتزوجها؟ ولم صوت هنا يحمل الغضب والتهديد أكثر من الحزن؟ لقد بارك علاقتها

مع أحمد، أو لا داعي لقول إنه دفعها قليلًا بدافع أن الحب عندما يأتي فيجب استغلاله، فهل تنوي إخبار هبة بذلك؟ أم إنها مجرد شكوك؟ سينكر الأمر على أي حال، كما إن هبة لن تتقبل أي هراء من أخته، ولكن أحمد سيشكل خطرًا حقيقيًّا؛ ربما تصدقه هبة، بل بالتأكيد ستصدقه، ربما حتى يقنعها أن الفترة الماضية مجرد مرحلة انتقالية، ويمكنهما استئناف علاقتهما بعيدًا عن هنا، بعيدًا عنه.

سقط محمود على أقرب مقعد وهو يتعجب من أمره. ما الذي يريده حقًّا؟ هبة أمامه، فلم لا يحظى بها؟ ما حدث صادم بالطبع، ولكن في النهاية هي أمامه؛ شابة وجميلة كما كانت دومًا، بل أجمل. يمكنه عيش الأبدية معها ولا يهرم أبدًا، فلم يحاول إخبارها الحقيقة؟ نعم، يخاف أن تعرف الحقيقة، وفي النهاية ستكرهه لذلك، ولكن ربما تحبه أكثر! لم إذن تلك الأفكار السوداء بأن الحب ليس من حقه؟ ربما تلك هي الحقيقة، أنه لا يستحق هبة؛ هي أفضل منه في كل شيء، لطالما كانت الأقوى، والأذكى، لطالما اشتعلت روحه كلما رآها مع أحمد. ربما ما دفعه لتدمير علاقتهما ليس غيرته عليها، ولكن غيرته منها؛ فهي لم تكمل عامها العشرين وقد حددت أي نوع من الرجال تريد، وأي حياة تبنيها، أما هو فلا يعرف كيف يشتري ملابسه دون أمه ونقود أبيه.

نعم، هو شخص سيئ؛ لقد آذاها حقًّا، ولكن لو أحبها أحمد حقًّا لما خانها أبدًا، ليتذكر ذلك. نعم، هبة أفضل من الجميع، ولكن هو ليس سيئًا إلى هذا الحد. ربما هو وغد، لكنه ليس خائنًا. سيذهب إليها الآن ويضمها، سيخبر سوسن هانم بقراره؛ هبة هي وريثة المنزل، وسيظل بجانبها كزوجها ليس أكثر.

سيذهب إليها الآن ويحملها إلى غرفتهما. كم هو غبي! إنها حب حياته، فليذهب الجميع إلى الجحيم. انطلق في المنزل يبحث عنها غرفة تلو الأخرى، حتى وجدها تجلس بمفردها في الحديقة. ابتسم وهو يراقبها تجلس حزينة، وأقسم على أن تمضي ما تبقى من حياتها في سعادة معه. وضع يده على مقبض الباب، ثم انطلق إليها.. ولكن سيارة ما اقتحمت الحديقة وأوشكت على الفتك به.

صرخت هبة، وتراجع هو كي يتفاداها. توقفت السيارة وخرج أحمد منها غاضبًا كعادته متوجهًا إليه، فأمسك شيء ما بمحمود وسحبه إلى داخل المنزل، ثم أغلق الباب. وقف محمود وهو لا يعرف كيف وصل إلى منتصف

الصالة بعدما كان في الحديقة. حاول الوصول إليها و.. أحمد! اللعنة، أحمد! أسرع وفتح الباب ثانية ليجد هبة تقف في منتصف الحديقة، وأحمد ممددًا بجانب السور ورأسه ينزف دمًا.

- ماذا حدث؟

صرخت سوسن من خلفه وهي تجري وخلفها بضع خادمات يصرخن، ليوقفوا نزيف الدم، وهبة ما تزال في مكانها معلقة عينيها على أحد الأركان البعيدة؛ ركن مظلم ورطب. الصور تتوالى في رأسه ببطء، لقد ارتفع في الهواء وشيء ما سحبه إلى المنزل، فهل نفس الشيء حدث لأحمد؟ أعني شيئًا ما قذفه إلى الحائط ليهشم رأسه؟

***

- ماذا حدث؟

- لا أعرف.

- وأنت؟ هل رأيت ما حدث؟

أراد محمود الكذب والقول إن كل شيء طبيعي، ولكن...

- كنت أتمشى في الحديقة، ولكن سيارة ما اقتحمت المكان وترجل منها أحمد... و...

قالت سوسن مسرعة:

- وماذا؟ لم خرست؟

قال محمود مغتاظًا من وقاحة سوسن:

- شيء ما سحبني إلى داخل المنزل، ولا أعرف ماذا حدث لأحمد.

نظرت إليه هبة غاضبة:

- أظن الكناس هو من فعل هذا.

تبادل الجميع النظرات. اقتربت سوسن منها:

- كيف عرفت؟

- لأني رأيته. ظهر في أقل من ثانية من وراء أحمد، ثم أمسك به وكأنه لعبة، ليلقيه على سور الحديقة.

أمسكت سوسن برأسها وتهاوت على أقرب مقعد.

- لم شكله غريب هكذا؟

قالت هبة تلك الكلمات وهي ترتعش ودموعها تنساب منها. أسرع محمود يحتضنها:

- استطعت رؤيته؟

قالت سوسن باستسلام:

- ليس المهم أنها رأته؛ أي شخص يمكنه رؤيته، ولكنها استطاعت أن تقـ...

توقفت سوسن عن الحديث، ثم نظرت إلى حفيدتها بلهفة:

- ما آخر شعور شعرت به؟

هزت هبة رأسها غير فاهمة، فاقتربت سوسن منها دافعة محمود جانبًا:

- آخر شيء شعرت به. تذكري معي.. الآن هناك سيارة ستفرم محمود، ومن خرج من تلك السيارة هو أحمد، من خانك وحطم قلبك...

نظرت هبة إليها بشرود:

- كنت خائفة على محمود، وخطرت لي فكرة أن البيت يتحول ليصير مثل أفلام الكارتون ويبلعه ليحافظ عليه... و...

- وماذا؟ أكملي!

- وأحمد عليه الاختفاء من حياتنا و...

أبعد محمود جدتها المتلهفة:

- هبة، اطمئني؛ أنا بخير، ولم يحدث لي شيء.

بدا أن هبة في عالم آخر:

- ولكني فكرت في فكرة أخرى؛ كي نعيش أنا وأنت حياتنا على أحمد أن يموت.

- لا تقلقي، أحمد لن يموت؛ سليم معه بالداخل، وهو طبيب معجزة، لقد أنقذني من الموت، وتـ...

توقف محمود فجأة متذكرًا الاتفاق. اللعنة! حدقت إليه هبة ودموعها ترفض التوقف.

- أنقذك من الموت؟ ولكن أنت! ألست أنت من؟

سقطت على أقرب مقعد:

- إنها أنا، أنقذك من الموت ولكن لم يستطع فعل شيء لي. أنا ميتة؛ لذلك استطعت رؤية الكناس، ولأني وريثة المنزل استطعت التحكم به أيضًا، أليس كذلك؟

ألقت تلك الكلمات واقتربت من جدتها صارخة:

- أليس كذلك؟ أنا... أنا ميتة، أليس كذلك؟

انهارت هبة وسقطت أرضًا. حاول محمود احتضانها، فوقفت مرة أخرى ونظرت إليه غاضبة وهي تدفعه:

- وأنت! أنت كنت تعرف ولم تخبرني بشيء. عرفت؛ ولذلك لم تستطع لمسي، أليس كذلك؟ بالطبع، كيف تنام مـــ.. مع جثة؟

اقترب محمود منها ثانية، ولكنها دفعته بعيدًا، ثم أسرعت خارج الغرفة وهو يتوسل إليها لتتوقف.

اقتربت فوزية وربتت على كتف سيدتها:

- سوسن هانم، ماذا سنفعل في هذا الولد بالداخل؟ أقصد لو مات...

- كلا، إلا هذا، الكناس لم يفعلها قط ويخرج من أجل أحد. الناس أحرقوا المنزل من الخارج ولم يستطع الكناس الخروج لحماية المنزل، الكثير من المصائب حدثت والكناس لم يتعدَّ جدران المنزل قط. ما تلك المصيبة يا ربي؟ ماذا سأفعل؟ كارثة تلو الأخرى.

بدأت سوسن في النحيب وهي تفكر بصوت مرتفع ولا تعطي أهمية لمن يسمعها. تلك المرأة الكتومة الحازمة تفترش أرضية المنزل، تولول منتحبة كبائعة خضار صادرت البلدية بضاعتها.

نظرت فوزية إلى باقي الخادمات وأشارت إليهن ليذهبن. ولكن قبل أن يتحرك أحد فتح الباب، وبرز سليم وهو يجفف الدماء من على يده. تبادل

النظرات مع فوزية وكأنه يسألها: لم يقف الجميع هكذا؟ ولم تفترش أمه الأرض وتتحدث مع نفسها وكأن الجنون أصابها؟

فوزية: «طمئنا يا دكتور!»

انتبهت سوسن لخروج سليم، فوقفت بصعوبة وأسرعت إليه:

- ها يا سليم؟ الولد مات؟

- كلا، إنه جرح سطحي، لكنه نزف كثيرًا. أحضروا لي كوب عصير وبعض الحلويات.

- ألم يمت؟

قالتها وكأنه شيء سيئ، فاعترضت فوزية:

- إنه شيء جيد، أليس كذلك يا سوسن هانم؟

قالت سوسن وهي تولول:

- طبعًا يا حبيبتي! شيء جيد. سيسأل ويعرف بالمنزل وضيوفه، ثم ماذا سيحدث؟ يمكث معنا هنا؟ أم يبلغ الحكومة عنا؟

تبادلت فوزية النظرات مع سليم، الذي أسرع وأمسك بأمه يحاول تهدئتها.

أشياء غريبة تحدث لسوسن هانم. فكرت فوزية في ذلك وهي تحضر بعض العصير للفتى. إن استطاعت هبة التحكم في الكناس والمنزل معًا فإنها الحاكمة، وسوسن هانم لم تعد كذلك؛ لذلك ذهبت منها القوة، ومعها رجاحة العقل. هذا هو التفسير المنطقي الوحيد.

الفصل الرابع

الظهور

تدفقت الأفكار داخلها كما يتدفق الشلال. الآن تفهم كل شيء؛ لم تغيرت مشاعرها، لم تبدلت شخصيتها، والأحلام الغريبة التي حاصرتها مؤخرًا. الآن تفهم تصرفات جدتها المريبة منذ الحادثة، الآن تفهم.

ما زالت تسمع صوته يناديها؛ لذلك هرولت كالمجنونة من ممر إلى آخر، ومن غرفة إلى أخرى. لا تتذكر أنها رأت تلك الأماكن من قبل في المنزل، الذي زادت مساحته بشكل مريب؛ يضم غرفًا غريبة ملطخة بأشياء لا تعرف كنهها. ترى أشخاصًا بملابس من عصور سابقة، فتجري مبتعدة. الشيء المخيف حقًّا أنهم يستطيعون رؤيتها، والتفاعل مع ظهروها. ما زالت تسمع صوت محمود وهو يتوسل إليها كي تتوقف. اللعنة عليه! اللعنة على جدتها، اللعنة عليهم جميعًا؛ لقد خدعوها.

توقفت فجأة في غرفة مظلمة لتنهار باكية. الآن فقط يمكنها معرفة الحقيقة؛ لقد ماتت هي. تذكرت حادثة اعتداء الخواجة بنيامين؛ لقد حطم رأسها، الوغد دفعها أكثر من مرة. لم تهتم كثيرًا بنفسها لأن محمود كان يصارع الموت هو الآخر، وبالطبع لم تستطع تذكر التفاصيل.

تذكرت أنها ميتة الآن فارتفع صوت نحيبها، واحتضنت ركبتيها وكأنها طفلة. الظلام يغلف كل شيء حولها فلا ترى أو تسمع شيئًا، ومع ذلك استطاعت الشعور بالظلام يتحرك ويتشكل مقتربًا منها. استطاعت رؤية تلك الذراع الطويلة التي تبدو لآدمي، ولكنها أطول وأرفع كثيرًا. بدأ الشيء يقترب منها أكثر، وهي تراقبه وتمسح دموعها لتتضح الرؤية أكثر. بدأت في التعرف

على الكناس؛ إنه طويل، يصل إلى ثلاثة أمتار أو أكثر، ورفيع كعصا مكنسة. جلده شاحب، ووجهه بلا ملامح، فقط فم يتوسط وجهه من الأذن إلى الأذن. انتظرت هجومه عليها وابتلاعها كما يفعل مع أرواح المنزل على حد قول الجميع، ولكنه ظل يقترب ويقترب، حتى صغر جسده وأصبح في حجم طفل في الثالثة من عمره. اقترب أكثر، ثم جلس بجانبها وكأنه يقتبس منها الدفء والأمان. تعجبت من فعله، ولكنها تعجبت من نفسها؛ فبرغم شكله المخيف إلا إنها ثابتة، تشعر بألفة غريبة تجاهه وكأنه طفلها. بدأت في البكاء مرة أخرى؛ فالوحوش تشعر بألفة معها الآن.

***

مر يومان وهو لم يجدها بعد. ظل يبحث ويبحث في كل غرف المنزل، ولكن دون فائدة. حتى سوسن هانم والخادمات فشلن في إيجادها. جلس على أقرب مقعد، ثم نظر إلى جسد أحمد وقلبه يمتلئ حقدًا وغضبًا. الكثير من الأمور كانت ستصير بشكل مختلف فقط لو هذا الشيء ميت أو مختفٍ من حياتهم. قاوم شعوره بالرغبة في دق عنقه وهو يتجه إليه ليوقظه لتناول الغداء.

وقف أحمد فجأة ثم نظر حوله، لا بد وأنه يحلم. فرك عينيه ثم نظر إلى محمود، الذي أشار إليه على الطعام دون أن ينطق.

- ما زالت هبة لا تريد رؤيتي؟

- عن ماذا كنت تحلم؟

اعتدل أحمد وجلس على الأريكة:

- وكيف عرفت أني كنت أحلم؟

تذكر محمود الأحلام التي حاصرته كل ليلة منذ دخوله إلى المنزل:

- مجرد تخمين.

- كنت أحلم بأني تزوجت هبة أخيرًا ونسكن هنا.

قالها ثم نظر حوله إلى الحوائط ذات الدهان المتساقط، وأكمل:

- شيء غريب، أليس كذلك؟ أنا أكره تلك الأماكن القديمة، من المستحيل أن أعيش هنا عندما أتزوج بها.

ابتسم محمود في هدوء:

- حسنًا يا حبيبي، عد إلى النوم وأكمل أحلامك؛ لأنها المكان الوحيد الذي سوف تتزوج بهبة فيه.

بدأ أحمد في تناول طعامه بنهم:

- هل تظن أنها تحبك؟ هبة لم، ولن تحب أحدًا غيري. أنا أيضًا لم ولن أحب أحدًا غيرها. كنت كالأعمى ثم بصرت الحقيقة. هبة زوجتي وانتهى الأمر.

زفر محمود وهز رأسه، لم يكن غاضبًا؛ فهو يعرف أنه يريد استفزازه، ولكنه مسكين لا يعرف كل الحقائق. خارج هذا المنزل هبة ليس لها وجود.

- إنها زوجتي الآن يا أحمد.

- ولكنها لم تسلمك نفسها، أليس كذلك؟

قالها وعيناه تلمعان في غرور. من أين يعرف بتلك المعلومة؟ هل هبة أخبرته؟ لقد رأى هاتفها! ربما تمسح الرسائل، أو ربما تملك هاتفًا آخر.

ابتلع محمود ريقه:

- هبة زوجتي. وكما تعرف، وأنا أيضًا أعرف؛ هبة تكره الخائنين أمثالك. حتـ...

- ولكنها لم تكن خيانة، إنها مؤامرة.

اعتدل محمود وقال ساخرًا:

- مؤامرة؟

بنفس نبرة السخرية:

- نعم، مؤامرة من عائلة قذرة، وأنا لدي الدليل؛ الرسائل بينك وبين والدتك وهنا، رسائل منذ عامين، رسائل قمت بنسخها وإرسالها إلى هبة.

وقف أحمد منهيًا طعامه:

- عندما ترى هبة الرسائل، خاصة التي بينك وبين هنا، ستعرف من الخائن الحقيقي، ستعرف أني مجرد ضحية مثلها.

تسارعت ضربات قلبه، وأراد تمزيق وجهه، خاصة عندما اقترب منه ووضع يده على كتفه:

- حسنًا، لا داعي لإزعاجها؛ بعد أن تقرأ الرسائل ستبحث عني بنفسها.

قالها ثم غادر، ولكن بعد أن أصاب الجميع بالتخبط.

***

فتحت عينيها ببطء، ثم أدركت أين هي فعاد شعور الحزن والألم يعتصرها. اعتدلت لتجده بجانبها ففزعت.

- هل ما زلت هنا؟

قالتها وهي لا تنتظر إجابة، فقط تذكر نفسها بأن الكناس أصبح ملازمًا لها. تفحصته ثانية، بدا كطفل صغير ولكنه مشوه. تشفق عليه وتتقزز منه في نفس الوقت. أشاحت بوجهها بعيدًا وتذكرت وسامة ألبرت، فكيف بحق السماء تحول إلى هذا المسخ؟ عندها بدأ جسد الكناس في التمدد، فابتعدت خائفة وهي تراقب الجسد المشوه يتحول إلى شاب قوي البنية، أو بالأحرى يتحول إلى ألبرت.

ظلت تراقبه لثوانٍ وهو جالس على أرضية الغرفة ينظر إليها مبتسمًا.

- أحب شكل الوحش؛ فهو يساعدني على تنفيذ مهمتي بسهولة.

ارتعش جسدها وانكمشت خوفًا وهو يقترب منها.

- آسف، لم أقصد إخافتك. نعم، أتحدث العربية جيدًا.

انكمشت هبة أكثر وصدرها يعلو ويهبط. إنه يستمع لأفكارها بوضوح ويجيب كل تساؤلاتها!

- هل يمكننا الجلوس والتحدث؟

من العدم ظهرت بضعة مقاعد قديمة التراث ومنضدة تتوسطهم. أشار ألبرت بيديه، فاقتربت هبة بخوف وجلست وعيناها معلقتان به وكأنه يوشك على الانفجار.

- كـ... كيف... أنت هكذا؟

- آسف، لم أفهم سؤالك.

- أقصد، لم أنت هكذا؟

- سؤال غير محدد.

أخذت هبة نفسًا عميقًا، ثم أخرجته ببطء:

- لم اخترت شكل الوحش؟ وقبل أن تقول إنه يسهل مهمتك، من الممكن أن تختاره فقط عندما تحتاج إلى ذلك!

ابتسم ألبرت وهو يتابع تحركاتها، ثم قال بهدوء:

- حسنًا، تستطيعين القول إنه تم فرض هذا الشكل علي، أو من الممكن القول إن العالم الخارجي يحتاج إلى الوحش، أما هنا فمن الممكن أن أكون نفسي.

نظرت حولها تتفحص الظلام الشاسع الذي يحيط بهما، باستثناء المقعدين والمنضدة، وبقعة الضوء المسلطة عليهما فكل شيء آخر عبارة عن سواد حالك.

- والمــ...

- هذا المكان يسمى بالغرف المظلمة، كما تحب سوسن هانم تسميته.

- هل يمكنك الانتظار حتى أطرح السؤال ثم تجيب عليه؟ حاول الخروج من رأسي.

- عفوًا، ولكني لست برأسك، أنا فقط متصل بك.

- متصل بي! كيف؟

- كأن أفكارك تظهر أمامي؛ على سبيل المثال عندما تشعرين بعطش، ألا تذهب يدك تلقائيًا إلى كأس الماء؟ اعتبريني يدك.

أخذت هبة نفسًا عميقًا وحاولت ترتيب الأفكار في رأسها:

- وما هي الغرف المظلمــ...

- يمكن أن تقولي إنها مكان بداخل المكان الأساسي، ولكن في أزمنة مختلفة.

- أنا لا أفهم شيئًا.

ابتسم ألبرت وأكمل موضحًا:

- تخيلي معي زجاجة المياه تلك...

ومن العدم ظهرت زجاجة مياه زجاجية بها بعض الماء وشيء آخر ملون.

قلب ألبرت زجاجة الماء بين يديه وأكمل:

- هذه الزجاجة بداخلها سمكة، تعيش حياتها، ونحن أيضًا نعيش حياتنا بالخارج هنا. لكن تخيلي معي لو كنا بداخل الزجاجة، مع السمكة، أقصد في نفس الحيز المكاني...

- تقصد نعيش بجانبها؟

- كلا، أقصد في مكانها؛ كأن لديها بابًا سريًا، تظهر في وقت نحن غير موجودين فيه، أو من الممكن ألا نكون قد ولدنا أصلًا.

هزت هبة برأسها أنها تفهم ولا تفهم. ابتسم ألبرت، فتذكرت أنه ما زال مطلعًا على أفكارها.

- ستفهمين مع الوقت، لكن لتقريب الأمور يمكنني القول إن محمود يبحث عنك الآن للمرة الثالثة في نفس هذا المكان، الذي نجلس فيه الآن. كما إنك تدخلين هذا البيت لأول مرة منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا.

هزت هبة رأسها:

- ماذا؟ كيف؟ لقد وطأت قدمي هذا المنزل عندما كنت في الخـ...

- أول مرة تدخلين إلى هذا المنزل كنت في الرابعة أو الخامسة؛ تقريبًا بعد موت سليم بعام أو أكثر.

- كلا، هذا مستحيل، إنني متأكدة أنـ...

توقفت هبة عن الحديث وهي تتفحص وجهه. الجميع يكذب، إنها تعرف ذلك الآن؛ فلم لا تبدأ سلسلة الأكاذيب عليها منذ طفولتها؟

- أمي تعرف، أليس كذلك؟ أقصد عن أبي والبيت و...

- ورفضت العيش هنا لتترك سليم بمفرده.

أمسكت هبة رأسها؛ فقد أوشك على الانفجار. لم تستطع التوقف عن البكاء. لطالما كرهت البكاء أمام أحد، أما الآن فهي لا تستطيع التحمل. هناك لحظة للتداعي، ولحظتها قد حانت.

- ستفهمين دوافع والدتك في النهاية، وتذكري أنها فكرت في طفلتها البريئة في مكان كهذا.

مسحت وجنتيها:

- شكرًا.

- أنا لا أحاول التبرير لها.

- من فضلك، لا أريد التحدث في هذا الموضوع.

- آسف! أي موضوع تفضلين التحدث عنه؟

نظرت هبة حولها وتذكرت الأشخاص الذين مرت بهم ورأوها، فأسرع ألبرت قائلًا:

- لن تتعلمي كل شيء دفعة واحدة؛ هناك بعض الأشياء التي تتطلب وقتًا. أنا أعرف ما تودين السؤال عنه، ولكنك طلبت أن أتمهل حتى تطرحيه. لذلك.. انطقي بأهم سؤال يدور في خلدك.

- من قتلك؟ وكيف أصبحت الكناس؟

ابتسم ألبرت ثم وقف، وبطريقة إنجليزية مد ذراعه أمامها:

- هيا بنا.

***

بعد عدة محاولات استطاع أخيرًا فتح الباب. أدخل يديه أولًا باحثًا عن مفتاح الكهرباء. أضاءت الغرفة، ثم نظر إلى داخلها وسب بصوت مرتفع مغلقًا الباب بعنف، ثم استدار وسب مرة أخرى.

- آسف!

- هل رحل الوغد؟

- منذ ساعة تقريبًا يا سوسن هانم.

- احذر أن تكون أخبرته بشيء ما، أو حتى لمحت له.

- بالطبع لا، ولكن...

- ولكن ماذا؟ تحدث!

تردد محمود؛ هل يخبرها بمخاوفه؟ أم يلتزم الصمت؟ خاصة أنها أكثر امرأة غامضة قابلها في حياته، وهو قد قابل الكثير من النساء.

- أخبرني أحمد بحلم له؛ حيث هبة زوجته، ويمكث معها هنا. هل من الممكن أن يـ...

- نعم، من الممكن، كل شيء ممكن.

بدا الألم على وجهه ظاهرًا، فأسرعت سوسن:

- لكن لا تقلق، من المستحيل أن يعيش هذا الشيء هنا؛ أنا لن أسمح بذلك.

قالتها ثم قطعت الممر مسرعة لتختفي في الظلام. لا يعرف محمود ماذا يفعل. هل يتبعها؟ أم يكمل حملة البحث؟ هبة؛ زوجته الجميلة التي لطالما حلم بجسدها النحيل بجانبه على الفراش. ضرب رأسه بكلتا يديه ليعاقب نفسه. كيف رفضها؟ كيف؟ ظن أن لديه كل الوقت، ولكن...

سب نفسه هذه المرة، ثم علم الباب بطبشور أبيض وانتقل إلى الغرفة التالية.

***

وضعت هدى كأس الماء أمام فوزية:

- لقد استغرقت في النوم أخيرًا.

تدخلت خادمة تقف على مقربة:

- كيف؟ وحفيدتها تائهة في هـ...

لم تكمل الجملة؛ فنظرات فوزية أخافتها، فأسرعت تغادر المطبخ.

- هل يمكنني طرح سؤال عليك؟

- إن كان عن سوسن هانـ...

- كلا، أنا أعرف؛ لن تنام قبل التأكد من أن حفيدتها في أمان. ولكني سمعت شيئًا عن سوسن هانم، وأريد التيقن منه.

استرخت فوزية في مقعدها وقالت مقطبة الجبين:

- أي شيء هذا؟

- سوسن هانم، قالت لمحمود بيه إنها من المستحيل أن تسمح لأحمد بالعيش هنا...

- هل تتنصتين على ســـ...

- لم أقصد، لقد سمعتهما بالصدفة.

زفرت فوزية بقوة:

- حسنًا، أنت تعرفين بالطبع بعد مكوثك معنا أن المنزل يشعر بالأشخاص، وأحيانًا يعلن رفضه لهم.

هزت هدى رأسها:

- مثل الخواجة بنيامين.

- أحسنت، تدبري الأمر معي؛ بعد كل ما فعله بنيامين، المنزل لم يعلن رفضه كما أعلن عن رفض أحمد.

- ماذا تقصدين؟ هل من المعقول أن هذا الشاب الهادئ أسوأ من الخواجة معذب النساء وقاتل الرجال؟

- أسوأ، أحسن، لا يمكننا الجزم، نحن هنا لإطاعة المنزل فقط.

صمتت هدى لتقلب الكلام في رأسها:

- ربما أحمد ليس أسوأ من بنيامين.

- كيف؟

- أتذكر كلمات جمال أفندي، عندما قال إن المنزل سيفعل المستحيل كي يستمر وجوده، وإنه ليس بالضرورة أن يكون نفس المبدأ لدى الكناس.

بدا على فوزية عدم الفهم:

- أدركي حدودك قبل التفوه بشيء تندمين عليه بعد ذلك؛ المنزل هو من يسمح لنا بالظهور، وليس الكناس.

- أعرف ذلك، ولكن.. أليس غريبًا؟

قالت فوزية بنفاد صبر:

- ما هو الشيء الغريب؟

- أن يخاف المنزل من شخص كأحمد!

***

حاولت هبة التماسك. صدرها يعلو ويهبط، والأدرينالين يضخ في دمائها، وما زاد الطين بلة هو ألبرت، الذي يراقبها وكأنها توشك على الانفجار.

- يمكنني إحضار أي شيء لك.

- أنا لا أعرف ما الذي أريده الآن.

- مشروبًا منعشًا؟

- لا أشرب الخمر.

ابتسم ألبرت وهو يراقبها في محاولة يائسة منها لالتقاط أنفاسها.

- لا أصدق، كل ما قصته جدتي علي كذب.

- لا تظلميها، هي لا تعرف الحقيقة كاملة.

هدأت هبة أخيرًا، وتجرعت كأس الماء التي ظهرت أمامها من العدم:

- ظننت أننا ورثة هذا المنزل وحكامه ولكن، هذا المنزل عقاب لنا.

ابتسم ألبرت وهز رأسه:

- عقاب؟ أم فرصة للتكفير؟

قطبت هبة جبينها:

- وما ذنبنا جميعًا في خطأ ارتكبته جدتنا منذ أكثر من قرن من الزمن؟

تحولت ملامح ألبرت المسالمة، ورغم ذلك حافظ على ابتسامته. شعرت هبة بالخوف منه لأول مرة، لذلك أسرع وجلس بجانبها:

- هل يمكنني سؤالك عما تنوين فعله؟

- قررت أن أكمل، ولكني أطالب بمعرفة شيء ما أولًا.

- طلبك مرفوض.

تعجبت من سرعة استجابته، وقبل أن تفتح شفتيها أكمل:

- ليس الرفض من جهتي. أبي فعل المستحيل كي لا يظهر بالمنزل بعد موته؛ لذلك لا أستطيع التواصل معه.

- لكني رأيته... هو.. والـ...

- ربما ترين انعكاسًا للماضي، لكن التفاعل معك والإجابة عن أسئلتك، هذا مستحيل.

صمتت هبة قليلًا، فهي تعلم باطلاعه على أفكارها.

- وكأنك ترين فيلمًا؛ يمكنك رؤية الأحداث، ولكن لا يستطيع الممثلون الرد على استفسارك أو التفاعل معك.

- ولكني رأيتها؛ السيدة هيلين و...

- وحاولت قتلك. إنه حلم، ليس حقيقة. المنزل يحاول تفسير ما حدث في الماضي لك.

- هل تقصد أن هيلين قتلت بتول بالفعل؟

أشاح ألبرت بوجهه بعيدًا ولم يعقب.

بدا على هبة التخبط وهي تسأل:

- هل المنزل قائم على السحر أم العلم؟

- الاثنين معًا.

- كيف؟ لقد رأيت الجثة بأم عيني و...

- ورأيت الآلة أيضًا.

- أريد العودة؛ أقصد أريد الرجوع إلى الزمن خاصتي.

حرك ألبرت يده فظهر باب. أخذت نفسًا عميقًا ثم توجهت إليه، وقبل أن تخرج التفتت إليه:

- سأراك مجددًا، أليس كذلك؟ أقصد، لنكمل حديثنا.

عادت ابتسامة ألبرت لتنير وجهه، وهز رأسه بالموافقة. ابتسمت بدورها، ثم فتحت الباب وخرجت. لا تعرف لم قالت جملتها الأخيرة، ولكن مشاعر الألفة واضحة بينهما. أخبرها أن هناك رابطًا ينقل مشاعرها وأفكارها إليه،

فهل هذا الرابط يسير مع التيار المعاكس؟ هل ينقل مشاعر ألبرت إليها؟ خاصة بعد ما عرفته عن ماضيه وماضي أسرتها؟

***

وجدت نفسها في منتصف غرفة جدتها؛ الغرفة المظلمة ذات الأثاث القديم. لا تعرف لم أخرجها ألبرت إلى هذا المكان بالتحديد، ولكنها وجدت أقرب مقعد وجلست عليه ممسكة رأسها. تحتاج إلى معالجة كل تلك المعلومات، ربما تحتاج إلى قراءة كتاب علمي عن النسبية لآينشتاين، أو أي كتاب عن الزمكان، أو ربما تحتاج إلى قراءة القرآن والكف عن هذا العبث. نظرت حولها لتتأكد أنها بمفردها، لتتسلل بضع دموع من عينيها. إنها ميتة الآن، فلم كل تلك المعارك التي برأسها؟ لتستلم للأمر وترحل إلى العالم الآخر. لكن.. ما قاله ألبرت هو إنها ليست ميتة، ليس بعد؛ إنها فقط تسير في دائرة مغلقة من الوقت الخاص بها. اللعنة، إنها لا تفهم. عليها تدوين كل تلك المعلومات قبل نسيانها، والأهم عليها الاحتفاظ بدليل للأجيال القادمة؛ فهم يستحقون معرفة الحقيقة كما هي. فتحت باب الغرفة ثم وقفت في الممر لبعض الوقت. تريد الذهاب إلى غرفتها لتستريح، ولكنها لا تقوى على مواجهة محمود أو أي شخص آخر. تنفست بعمق، ثم دخلت غرفتها لتتسمر مكانها. محمود جالس على الفراش وكأنه ينتظرها. هب واقفًا، ثم أسرع إليها ليحتضنها.

أبعدته:

- من فضلك، علينا التحدث أولًا.
- رأيت الرسائل، أليس كذلك؟
- أي رسائل؟
- هبة، أنا أحبك وعمـ...
- محمود، من فضلك! لقد فهمت كل شيء الآن. أنت حر؛ يمكنك الخروج من المنزل، أنا أحررك من وعودك لجدتي أو أبي، واعتبر أن زواجنا لم يكن.
- ولكني أحبك.

أخذت نفسًا عميقًا كي تمنع دموعها من التسلل:

- وأنا لا أحبك. لقد تزوجت بك بسبب مشاعر الذنب والشفقة. أظنك تزوجتني لنفس الأسباب.

- كلا، أنا أحبك، أنا كـ...

- تحبني؟ ولذلك لم تستطع حتى لمسي أو النظر إلى وجهي؟

- هبة، كلا، أنت لم تفهمي. أردت إخبارك الحقيقة، ولكن سوســ...

- محمود، من فضلك، أنا متعبة وأحتاج إلى الراحة. من الأفضل أن تمكث بغرفة أخرى.

لم تنتظر ردًا، وأسرعت إلى دورة المياه؛ فصوت تدفق الماء سيمنعه من سماع نحيبها.

***

تقلبت في الفراش وهي تتعجب كيف استغرقت في نوم عميق بلا أحلام بعد ما رأته ليلة أمس؟ ظنت أن مزيدًا من الأحلام المزعجة ستهاجمها؛ تلك التي تبدأ بمطاردة السيدة بوركهارد لها، أو تحول الكناس إلى وحش والتهامها، ولكن لا شيء، مجرد نوم عميق وهادئ لم تحظ به منذ دخولها هذا المكان. نعم، هذا المنزل كيان مستقل عن الكناس، ولكن كيف يعمل؟ هل هو متصل بها كذلك؟ هل يستمع لأفكارها فلو طلبت فنجانًا من القهوة سيظهر أمامها؟ أم إن تلك الأشياء يفعلها ألبرت فقط؟ ألبرت، نعم. الآن تعرف من اعتاد مراقبتها في الظلام. شيء ما أحاط بها طوال الوقت، شعرت به، ولكنها لم تره. أشياء كتلك من المفترض أن تخيفها، ولكن على العكس، أصبحت تألفها نوعًا ما، بل إنها تشعر بالشفقة عليه. ألبرت المسكين! قررت مجابهة يومها، فدفعت الأغطية من فوقها. نعم، ستذهب إلى جدتها لتخبرها بقرارها النهائي.

أصوات عالية صادرة من المطبخ. استطاعت التعرف على صوت جدتها وهي تصرخ في وجه أحدهم. دلفت إلى المطبخ لتجد الجميع: جدتها، وأباها، ومحمود.

- جيد، الجميع هنا.

هب سليم واقفًا ما إن رآها:

- هبة، هل أنت بخير؟

- الحمد لله.

تحاشت النظر إلى وجهه؛ توقعت الكذب من الجميع إلا هو. جلست بجانب جدتها ثم رفعت رأسها:

- جدتي، لقد قررت؛ سأكون الوريثة لهذا المنزل وأرفع عنك المسؤولية، ولكن بالطبع لي بضعة شروط.

اعتدلت سوسن وتبادلت النظرات مع محمود وسليم:

- أي شروط؟

- أولًا: ستكون لي السلطة التامة في هذا المنزل. بالطبع ستبقين فوق تاجي، ولكن أنا من سيقرر كل كبيرة وصغيرة في المنزل.

زفرت سوسن:

- أكملي.

- ثانيًا: محمود سيخرج من المنزل. أنا أعلم باستغلالك لسذاجته وإيهامه بالحب، ولكنه لم يكن حقيقيًّا، بل مشاعر شفقة متبادلة.

قال محمود صارخًا:

- ليس حقيقيًّا؟ هبة، أنا أحبك!

- لقد تحدثت بما لدي، وسأنتظر ردك في غرفتي.

أسرعت في الخروج من المطبخ، وخلفها محمود يصرخ ويؤكد أنه يحبها بحق، يحبها منذ زمن، يحبها منذ طفولتهما، ربما أحبها قبل أن يعرف ما معنى الحب. تبعها حتى اختفت في إحدى الغرف. ظل يبحث عنها لكن دون فائدة، فجلس ولم يملك إلا أن يبكي؛ لقد فقدها، حاول المستحيل كي يجتمعا، حتى إنه كذب، وخان، وحاك المؤامرات، ولكن دون فائدة، خسرها، وتلك هي النهاية.

***

اقترب العم أمين من المنزل بحذر. انتظر اختفاء ضوء الشمس ليصبح الظلام خير ساتر له. ظهر جسد أمامه فجأة، فوقف يلتقط أنفاسه.

العم أمين: «هل الهانم موجودة؟».

زغلول: «نعم، وتنتظرك. تفضل!»

- لا، لن أدخل هذا المنزل.

ابتسم زغلول:

- لا تقلق، الهانم تنتظرك خلف المنزل، في غرفتي. هيا بنا.

قطع زغلول المسن الطريق حتى وصل إلى التقاء السور بالمنزل، ثم من فتحة صغيرة دلف إلى غرفته؛ حيث جلست سوسن على مقعد ممسكة في يدها كوبًا من الشاي.

- تفضل يا عم أمين. شاي يا زغلول!

- شكرًا لك يا هانم؛ لقد جئت فقط من أجل الأمانة التي بيننا.

تبادلت سوسن وزغلول النظرات:

- خيرًا يا عم أمين؟ أصبتني بالقلق!

- خير إن شاء الله يا هانم. منذ بضعة أيام ظهر شاب، وأخذ يسأل في القسم عن المنزل، أو لو كان تقدم أحد ببلاغات عنه من قبل. كما إنه تقصى في الشهر العقاري الذي يتبعه البيت؛ رجالي هناك أخبروني بذلك.

زفرت سوسن بغضب، وعرفت على الفور الشاب الذي يقصده العم أمين. أحمد أصبح يمثل خطرًا واضحًا.

- شكرًا يا عم أمين. زغلول!

أشارت إلى زغلول، الذي أخرج حفنة ليست بقليلة من المال ودسها في جيب العم أمين المعترض، والذي يقسم إنه لا يحتاج إلى المال. ابتسمت سوسن له ثم غادرت الغرفة مسرعة؛ فهي تحتاج إلى التركيز في خطوتها التالية. لقد أحسن أمين بتحذيرها، لتزد الشهرية الخاصة به؛ فهو مخلص، وتلك عملة نادرة هذه الأيام. أما الآن فعليها البحث عن هبة؛ فأحمد مشكلتها وعليها التعامل معه. تريد تحمل مسؤولية المنزل؟ فلتكن تلك أول مشكلة تحلها وتثبت جدارتها.

***

طرقت سوسن الباب أكثر من مرة، ولكن لا مجيب. تعلم أن هبة خلف هذا الباب، فهي ما زالت وريثة المنزل، وتعرف مكان الجميع، ولكن دون فائدة. استسلمت في النهاية وهمت بالرحيل، ولكن الباب تحرك وبرزت هبة من خلفه. عينان منتفختان وأنف أحمر، لا بد وأنها تبكي.

- آسفة؛ كنت نائمة، وتـ...

- احتفظي بتبريراتك الواهية، أحتاج إلى التحدث معك.

ابتعدت هبة وسمحت لها بالدخول:

- أغلقي الباب؛ هناك بضعة أمور مهمة عليك توليها.

نفذت هبة أوامرها ونظرت إليها بعينين حزينتين، فتراجعت سوسن عما أوشكت على قوله:

- أولًا: هل أنت بخير؟

- الحمد لله.

- ومحمود؟ ألم تتحدثي معه؟

انهمرت دموعها وأشاحت بوجهها بعيدًا، فعرفت سوسن على الفور أنها تحبه، ولكنها مجبرة على إبعاده؛ فليس من المنصف أن يعتزل العالم من أجلها، خاصة أنه لم يختر هذا المصير.

- حسنًا، هناك مشكلة لا تحتمل التأجيل؛ مشكلة أحمد.

- أحمد! اللعنة، ماذا حدث لأحمد؟ هل هو بخير؟

قطبت سوسن جبينها، ولكنها تذكرت أن آخر مرة هبة رأته قد تسببت في شق رأسه نصفين.

- تذكرت توًّا؟ نعم، الوغد على ما يرام، وسيقوم بتخريب كل شيء على الجميع.

- لماذا؟ هل عرف عن المنزل؟

- كلا، ولكن لن يهدأ حتى يعرف. عزم أحمد على إرجاعك له ثانية، وبدأ يسأل عن المنزل. هبة، لقد عشت في المنزل أكثر من خمسين عامًا، أحافظ عليه وأخفيه عن أعين الجميع، خاصة الحكومة. وأحمد بدأ في

فتح الأبواب الموصدة. من الممكن أن يسأل الشخص الخاطئ ونذهب جميعًا إلى الجحيم.

حدقت بشرود إلى أرضية الغرفة، ثم رفعت رأسها:

- وما المطلوب مني؟

- أن يدع المنزل وشأنه، والأهم أن يقطع الأمل في عودتك إليه.

- حسنًا، سأتحدث معه لا تقلقي.

زفرت سوسن وهمت بالوقوف، ولكنها تذكرت شيئًا ما:

- هبة، أحمد قرر أن يرجعك إليه، خاصة عندما علم أنك ومحمود لم تــ...

قاطعت جدتها غاضبة:

- وكيف يخبره محمود بشيء كهذا؟

تبدلت ملامح سوسن:

- ألم تبلغيه أنت؟

- كلا، بالطبع لا. من المستحيل أن أتحدث مع أحمد في شيء كهذا.

جلست سوسن ثانية وقالت بحزم:

- هبة، انتبهي لي جيدًا! هذا القرد خطر علينا جميعًا، وعلى المنزل خاصة.

- حسنًا، فهمت سأقــ...

جذبت سوسن ذراعها بقوة:

- كلا، لم تفهمي. هذا المنزل كالسلاح، إن وقع في الأيدي الخاطئة سيتحول إلى كارثة.

ضيقت هبة عينيها:

- جدتي، هل تعلمين على أي شيء هذا المنزل قائم؟

أفلتت سوسن ذراعها:

- كل ما أعرفه أن الخواجة قام ببعض السحر، ولذلك المنــ...

توقفت سوسن عن الحديث وهي تراقب حفيدتها. قفزت في رأسها تلك الخاطرة؛ أين كانت هبة طوال الأيام الماضية؟ لم يحدث من قبل أن ورث البيت شخص من ضيوفه، لطالما ورث المنزل شخص حي.

تأملت سوسن حفيدتها:

- اعتبريني لا أعرف شيئًا.

تنفست هبة وحاولت ترتيب كلامها. المعلومات كثيرة وغريبة، لذلك زفرت بقوة:

- أولًا: من قام بالسحر هي هيلين، وليس الخواجة بوركهارد. كما قُلتِ؛ كانت حقبة مريبة، وانتشرت تقاليد غريبة؛ لذلك عليك معرفة تاريخ الخواجة، فهو اشتهر في أوروبا بنظرياته الغريبة، كما عليك معرفة أنه قدم إلى مصر شبه مطرود من المحافل العلمية؛ بسبب ممارساته الشاذة من ناحية، وبسبب نسب زوجته من ناحية أخرى.

- هذه أول مرة أسمع بهذه المعلومات.

- للأسف بدعة أن الخواجة وزوجته أشخاص مسالمين ليست حقيقية.

- من أخبرك بهذا؟

- ألبرت، أقصد الكناس.

تراجعت سوسن إلى الخلف وقالت متعجبة:

- ألبرت؟ تحدث معك؟

ظهر التردد على هبة:

- نعم، كما إنه أخبرني بكل شيء. لم تسألين؟ ألم تتحدثي معه من قبل؟

- ألبرت لم يظهر لي أبدًا؛ دائمًا الكناس. لكن ما خطب نسب هيلين؟

- آه.. هيلين أصولها من الغجر، وعرفوا في أوروبا في هذا الوقت بالسحر والشعوذة. حاربتهم الكنيسة بكل طاقاتها. والدة هيلين قررت التصدي لهم، وفي أحد الأيام غاب القساوسة عن الصلاة، ليبحث عنهم أهل القرية ويجدوهم مكدسين في غرفة تحت الكنيسة، وجثثهم ممزقة، وموشومة على أشلائهم علامات السحر. بالطبع اتهم أهل القرية والدة

هيلين، وأحرقوا الغجر جميعًا. لكن هيلين هربت، وقابلت الخواجة بوركهارد وتزوج بها.

- هذا ليس إثباتًا أن هيلين ساحرة.

- للأسف هيلين أسوأ من والدتها؛ لقد رأيت بعيني طقوسها في ذبح إحدى الخادمات لصنع السحر.

- انتظري يا هبة قليلًا، أنا لا أفهم. إذن كل هذا ليس للخواجة بوركهارد يد فيه!

زفرت هبة بيأس:

- عليك بسماع الحكاية من بدايتها. الآن أنت تعرفين أن هيلين تعلمت السحر من والدتها. حسنًا، الخواجة عرف بكل ذلك، بل طلب منها تعليمه السحر، فلديه قناعة أن العلم والسحر وجهان لعملة واحدة. وككل عالم مجنون، كان لديه هدف، ساذج بعض الشيء، ولكنه منطقي.

- وما هو هدفه؟

- الخلود.

قطبت سوسن جبينها:

- الخلود!

- نعم، كما قلت سابقًا؛ اشتهر الخواجة في أوروبا بنظرياته الغريبة والشاذة، ولكنه كان عبقريًّا أيضًا. اهتمت بعض المجتمعات العلمية بأفكاره، لذلك راقبته من بعيد، كما وضعت عينيها على ألبرت، خاصة بعد ذهابه إلى أوروبا لإكمال تعليمه. تجسست على مراسلات الخواجة؛ من وإلى الخارج، وما يطلبه من أدوات معملية. عن طريق كل هذا استطاعوا معرفة أن الخواجة بصدد بناء شيء مريب، ينوي به قلب موازين الطبيعة.

- ما صلة كل هذا بالبيت؟

- صبرًا يا جدتي! الخواجة بالفعل اقترب من الانتهاء من آلة غريبة يمكنها إيقاف وحبس الوقت.

قالت سوسن غاضبة:

- وقت ماذا الذي يمكن إيقافه يا هبة؟ هل أصبت بالخرف؟

- أنصتي لي! نحن لسنا بأموات، أقصد أنا وسكان المنزل. أليس غريبًا؟ ألسنا بميتين؟ فكيف ما زلنا نشعر؟ نأكل؟ ونشرب؟ نرقص؟ ونغني؟ يصيبنا التعب؟ ونحتاج إلى النوم؟ جدتي نحن لسنا أشباحًا؛ ألبرت يتلقفنا قبل أن نلفظ أنفاسنا الأخيرة، ويدخلنا آلة أبيه الغريبة، ووقتنا في الحياة يتوقف في هذا المكان، ويعود ليعيد نفسه مرة أخرى. ما أقصده أننا نعيش أيامنا الأخيرة ونكررها إلى ما لا نهاية، أو حتى نقرر الدخول إلى الآلة ثانية وإيقاف تلك العملية، أو يأمر حاكم المنزل الكناس بأخذ الضيف وإدخاله الآلة رغمًا عنه؛ وبذلك ينتهي وجوده في المنزل.

- ولكن حديثك هذا لا يفسر ظهور الضيوف من العدم، ولا الأشياء التي يستطيع الكناس فعلها، أو حتى المنزل.

- بل يفسر الكثير. الوقت ليس خطًّا مستقيمًا كما هو متعارف عليه. تخيلي معي: في هذا المكان هناك وقت معين وأحداث معينة، وفي هذا المكان أيضًا هناك أشخاص آخرون يعيشون أحداثًا أخرى، ولكن في وقت مختلف؛ فبدلًا من أن يسير الوقت في خط مستقيم يصبح دائرة، تدور في نفس المكان. هناك بعض الأشخاص أصبحت لديهم سلطة أن ينتقلوا من وقت إلى آخر، ولكن في نفس المكان، ولذلك ليست لنا صلاحية خارج المنزل.

تراجعت سوسن إلى الخلف وبدا عليها الشرود:

- حسنًا، ما تقولينه جميل، ولكن أنا عشت حياتي كلها بهذا المنزل؛ من المستحيل أن يكون قائمًا على مجرد آلة فقط! هذا البيت يغير ويتغير، أنت أيضًا ستتبدلين، وتصبح لديك قدرات غريبة وستـ...

- وهنا يمكنني إخبارك بالجزء الثاني من الموضوع، والخاص بسحر هيلين.

بدا على سوسن الغضب:

- أكملي يا هبة، ماذا بها هيلين؟

- حسنًا، هيلين هي السبب في تغير شكل ألبرت.

- تقصدين أنها هي من صنعت الكناس؟

- تقريبًا. سأكمل لك الحكاية؛ الخواجة شرع في بناء آلته العجيبة، والتي وصلت أنباؤها إلى أوروبا عندما كان ألبرت يدرس بالخارج. وبطريقة ما استطاعت كاثرين التسلل إلى حياته.

- وطبعًا كاثرين تلك جاسوسة.

هزت هبة رأسها وأكملت:

- وعادت معه إلى مصر لمقابلة الخواجة وهيلين، بحجة أنها العروس. بالطبع خطة كاثرين هي سرقة مخططات الآلة العجيبة. وفي يوم السرقة أمسك ألبرت بها، وكما تعرفين؛ هي من أطلقت الرصاص عليه.

- أي إن قصة اللص والذهب غير حقيقية؟

- كلا.

- ولا أصدقاء السوء الذين تناولوا الكثير من الخمر وحاولوا سرقة ذهب الخواجة؟ ولذلك يدفع ضيوف المنزل بالذهب؟

- كلا، كلها أكاذيب قصها ألبرت بنفسه على الضيوف لتسليتهم وإخفاء الألم بداخله.

- وما هو دليلك أن حديثه هذا صادق؟

- لأني رأيت كل تلك الأحداث.

- أليس من الممكن أن ألبرت الجبار يخدعك؟

- لا داعي للسخرية؛ أنا شهدت تلك الأحداث كلها. أيضًا رأيت الأضحية البشرية التي ذبحتها هيلين في قبو المنزل.

- لا يوجد قبو للمنزل.

- يوجد، لكنه مخفي بالسحر كي يستمر وجود المنزل.

- هبة، ما تقولينه شبه مستحيل.

- ظننتك أول واحدة ستصدقني!

- أصدق في السحر، نعم، ولكن آلة غريبة وتزاوج السحر مع العلم؟ هذا شيء آخر.

- أين جثتي؟

- ماذا؟

- أنا مت، فأين جثتي؟

- هبة، أنت تحاولين إثبات وجهة نظرك، حتى لو علـ...

- إلى أين تذهب فوزية كل يوم بعد أن تتركك؟ أي واحدة من الخادمات، إلى أين يذهبن بعد أن ينتهي يومهن؟ ينمن، أيحتجن إلى الراحة؟ وهل يحتاج الميت إلى الراحة؟

- الموتى أكثر احتياجًا إلى الراحة منا.

- جدتي، هيلين استخدمت سحرها ليستطيع ألبرت العيش مدة كافية حتى ينهي الخواجة آلته. كاثرين أول فتاة ضحوا بها، ومن بعدها بتول.

قالت سوسن صارخة:

- ومن بتول تلك؟

تنفست هبة وقالت بصوت هادئ كي لا تغضب جدتها:

- هل تتذكرين قصة الخادمة التي اختفت؟

- بالطبع.

- فتاة بريئة تحب ألبرت، وأظنها السبب في أنه قرر الظهور بشكل الكناس لعقاب والديه.

- كيف؟

- برغم جنون والديه، إلا إن ألبرت بذرة طيبة؛ لم يستطع تخيل ما قاما به من أجله. أعني أنه لم يعرف بالأضحية البشرية، في البداية ظن أنها كاثرين فقط، واعتقد أن هذا عقاب يليق بها. لكن عندما اختفت بتول عرف على الفور، وحول نفسه إلى الكناس، وبذلك سطر الخواجة وهيلين نهايتهما بالانتحار.

- أجد صعوبة في تصديق هذا الكلام؛ فأبي، ومن قبله عمه كانا أيضًا متـ...

- أخبراك أن المنزل له إمكانيات خارقة؛ أنت من قلت لي ذلك.

ضيقت سوسن عينيها، وبدا أنها تبحث عن ثغرات في كلام حفيدتها:

- كل تلك النظريات بنيتها على حديث الكناس فقط، ولكني أريدك أن تفهمي، الكناس ليس بملاك بريء.

- ومن منا ملاك؟ نحن مجرد بشر.

- ولكن الكناس وحش؛ مرة لأنه تخلى عن شكله الآدمي، والأخرى لأنه يأكل أرواح الضيوف.

قالت هبة بغضب:

- تخليه عن شكله الإنساني عقاب لأب وأم تخليا قبله عن إنسانيتهما.

- هل رأيت الآلة التي أشار إليها الكناس؟

- نعم.

- حسنًا، أريد رؤيتها بنفسي.

***

أنهت سوسن حفلة الليلة سريعًا. لم تكن رائقة المزاج، كما إنها تحتاج إلى مزيد من الوقت لتفكر. طوال سنواتها في هذا المنزل لم تسمع أو تعرف شيئًا عن تلك الآلة؛ لا من الكناس، ولا من الضيوف. تتذكر الطقوس التي اتبعتها مع كل ضيف: تتركه في غرفة بمفرده يلفظ أنفاسه الأخيرة مع الكناس، ثم يعاود الظهور في نفس الغرفة، ولكنها لم تكن تعلم أن هناك آلة، والوقت يتوقف، وكل هذا الهراء العلمي الذي تتحدث عنه هبة. كلا، الأمر أعمق من هذا بكثير، فالكناس يتلون بلون وريث البيت؛ هبة شخص يؤمن بالعلم، ولذلك فهو يلعب بورقة النظريات العلمية. أبوها –رحمة الله عليه– كان مؤمنًا بالروحانيات، ولذلك فإن الكناس داوم على الظهور الدرامي ليبهر أباها، أما معها، فهو جائع دومًا، ولا يهتم إلا بنفسه. ربما يرسم على حفيدتها البراءة، ولكنها تعرف ما هو قادر عليه. أما المنزل، فهو شيء آخر، عليها التأكد أولًا من تلك الآلة، ثم بعد ذلك تقرر ما الذي ستفعله.

توقفت في الممر لما سمعت صوت محمود وهو يصرخ طالبًا من هبة الاستماع له. سبب لها صوته ألمًا؛ ما أشبه اليوم بالأمس! تذكرت زوجها يصرخ فيها لتبقى، ويا ليتها فعلت. ألقت نظرة أخيرة على مصدر الصوت، ثم دلفت إلى غرفتها.

***

- للمرة المليون أقول لك: أنا حقًا أحبك.

- محمود، من فضلك، أنا متعبة من كثرة الحديث في هذا الموضوع. أنا لا أحبك، وأتوسل إليك؛ ارحل اليوم قبل غد.

جلس محمود على أقرب مقعد:

- إذن هذه هي النهاية؟ ما بيننا انتهى؟

- لم يكن هناك شيء بيننا أصلًا.

هز رأسه بيأس ثم وقف:

- أنت لم تفتحي هاتفك بعد، أليس كذلك؟ حسنًا، انظري، لو أني لم أحبك، هل كنت سأحوك كل تلك المؤامرات لتكوني لي؟

قطبت هبة جبينها:

- ماذا تقصد؟

- أعيدي فتح هاتفك وانظري إلى رسائل أحمد؛ لتري بنفسك ما فعلته لأني أحبك.

أمسكت هاتفها مسرعة؛ لتراجع رسائل أحمد رسالة تلو الأخرى. أحمد لم يبخل بالشرح. الآن تفهم ما الموضوع، وضعت يدها على فمها وظلت تنقل نظراتها بين الهاتف ومحمود. بعض تلك الرسائل يرجع تاريخه لعامين.

أنهت هبة قراءة الرسائل للمرة الثانية، ثم أغلقت الهاتف ووضعته أمامها. عم الصمت المكان ومحمود ينتظر رد فعلها العنيف. في النهاية صرخ:

- هل عرفت الآن مقدار حبي لك؟

- وهل هذا دليل حب؟ هذا دليل جنون، أنت شخص غير سوي.

- هبة، أنا أحبك! كل مرة رأيتك مع أحمد قلبي تلوى ألمًا؛ أعماني الحقد والغيرة. أنا أعترف بخطئي وأشعر بالندم، ومستعد لأي عقاب تقررينه، ولكن إياك والقول إني لم أحبك يومًا.
- حسنًا، عرفت، كنت دومًا تحبني، ولكن قراري لم يتغير؛ عليك الرحيل.
- ولكني أحبك!
- الحب لم يعد يعنيني في شيء.

***

تعلمت سريعًا طقوس المنزل: كيف تستقبل الضيوف من خارج ومن داخل البيت؛ فضيوف المنزل مجرد أجساد تغادر زمنها الأصلي، لتنضم إليهم في هذا الزمن، أما الضيوف من خارج المنزل فهم أطياف، تقوم قوة المنزل السحرية باستدعائهم في يوم محدد من كل عام. لذلك يظهر ضيوف المنزل وقتما يريدون، أما الضيوف من خارج المنزل لا يظهرون إلا في يوم الحفلة.

اصطحبت جدتها كذلك إلى الآلة التي تقع في مركز المنزل. تفحصتها بعناية، ثم رحلت صامتة. ما زالت تعاملها بجفاء، ولكنها تتقبل ذلك؛ فالمنزل والكناس لم يشاركاها أي أسرار طوال الخمسين عامًا الماضية. نظمت أول حفلة لها ليلة أمس من الألف إلى الياء، مع غياب تام لجدتها، وفوزية، التي ما زالت تدين بالولاء لجدتها. ربما الوقت قد حان كي تستلم هدى زمام الأمور في المنزل خلفًا لفوزية. كل هذه الأشياء جيدة، ولكن ما كان رائعًا حقًّا هو مغامراتها اليومية مع ألبرت؛ تسافر كل ليلة إلى زمن مختلف: منذ بناء المنزل وحتى الآن. كل ليلة في حقبة مختلفة، تشاهد أشخاصًا مختلفين، وتحضر الكثير من الحفلات مع ملابس تناسب العصر الذي تقفز إليه. لكن ما جعلها تشعر بالقلق هو امتناع ألبرت عن اصطحابها إلى وقت وقوع حادثته مرة أخرى. لديها الكثير من التساؤلات؛ فهو لم يتحول إلى الكناس بين ليلة وضحاها، كما إنه اعترف بتنظيم بعض الحفلات، واستقبال الضيوف، فلم لا يريها من هو الضيف الأول؟ أو كيف يتم الأمر مع الآلة؟ كل تلك الأشياء جعلتها تتذكر حديث جدتها أن ألبرت ليس بريئًا. ربما هي تبني نتائج على فرضيات خاطئة، كما إنها تذكر نفسها طوال الوقت بمحاولة تعلم طريقة تمنع ألبرت من التسلل إلى أفكارها. عليها أن تتحلى بالذكاء والحذر منه؛

خاصة أنها لا تعلم كل شيء بعد، مشكلة من يقصون التاريخ؛ فهم يحكونه برؤيتهم هم، حتى وإن شابها التحيز وتجميل الذات على حساب الحقائق.

جلست على طرف الفراش تسترجع أحداث الحفلة، وتفكر في تكليف هدى بعمل ملف لكل ضيف حتى ترضي ذوقه ومتطلباته. عليها أن تكون أكثر مهنية وتفانيًا في مهمتها الجديدة. فكرت في تلك الأفكار وهي تخلع حذاءها، ثم خلعت فستانها وبدأت في تمشيط شعرها للتخلص من قصة شعرها السخيفة تلك. لا تعرف لماذا، ولكنها تذكرت محمود. ما زال يرفض الرحيل.

- الأحمق!

قالتها بصوت مرتفع، ثم استدارت لتبحث عن ملابسها، ولكنها صرخت؛ فهناك في الركن المظلم من الغرفة، خلف الباب مباشرة، رجل يقف في سكون وينظر إليها. تراجعت هبة وهي تحاول تغطية جسدها؛ فهي تقف في قميصها الداخلي. بدأ الرجل في التحرك ليدخل دائرة الضوء، لتصرخ هبة غاضبة:

- محمود! منذ متى وأنت تقف هنا؟

نظر إليها بعينين زائغتين وهو يتأمل جسدها بشهوة.

- اخرج الآن وإلا...

خرج صوتها مرتعشًا، خاصة أنها تراقب ملامح وجهه وتفكر: لماذا يبدو غريبًا؟ إنه محمود، ولكن بهيئة مختلفة. قصة شعره تغيرت قليلًا، والسواد تحت عينيه أصبح داكنًا أكثر، وشكل جسده تغير. تجاهلت كل تلك الأفكار وتوجهت إلى الباب لتفتحه وتطلب منه الخروج. ولكنه أمسك ذراعها، ودون مقدمات طوحها على الفراش، وشق قميصها وبدأ في تقبيل جسدها. صرخت وتوسلت إليه كي يتوقف، ولكنه قوي ومصمم على الوصول إلى غايته. ظلت تصرخ، وهو يقبل جسدها، وهي تحاول إبعاده في محاولات يائسة. حتى ظهر أحدهم وأمسك به ليبعده عنها.

- محمود!

قالتها وهي تبتعد عنه، ومحمود يحاول طمأنتها. إنه محمود، ما زال مرتديًا بدلته التي ظهر بها في الحفلة؛ فمن هو محمود الآخر؟

تلقى محمود ضربة على رأسه من الخلف، فتكور على الأرض متألمًا. لملمت هبة قميصها الممزق، وحاولت الوصول إلى ملابسها، ولكن محمود في الجسد الآخر أمسك بساقيها، وجلس فوقها وبدأ في فك أزرار بنطاله. صرخت وحررت ساقها، لتضربه في وجهه وتقفز من فوق الفراش، لتجد محمود ببدلته ينظر إليها في عدم فهم. نعم، هناك اثنان محمود معها في الغرفة الآن؛ أحدهما يحاول اغتصابها، والآخر يحاول إنقاذها. تقدم محمود المغتصب منها، فأسرعت خلف محمود ذي البدلة، الذي تقدم وانهال على المعتدي باللكمات، حتى دفعه محمود المغتصب وتوجه إلى الباب هربًا منه.

سقطت هبة أرضًا وبدأت في النحيب. نظر إليها محمود، ثم سقط بجانبها. يتنفس بصعوبة، لاحظت هبة ذلك فأسرعت إليه.

- مـ... من هذا؟

قالها محمود ودموعه تتساقط. خافت من إجابة سؤاله، ولكن الإجابة بديهية بعض الشيء. هذا أنت، ولكن... مكتبة .. سُر مَن قرأ

***

خلع محمود بدلته ووضعها على جسدها، فنظرت إليه مبتسمة. ناولتها جدتها كوب الماء، فأخذته بيد مرتعشة حتى كاد أن يسقط منها؛ فأسرع محمود يجلس بجانبها ويسقيها الماء بنفسه.

ابتسمت له فربت على جسدها بحنان، فأسرعت سوسن لتقطع حبل الوصال بينهما:

- أريد فهم ما حدث مرة أخرى. هل وُجد اثنان محمود في نفس المكان؟

وضع محمود كوب الماء وهز رأسه في خجل، فأسرعت هبة تربت على ذراعه:

- هذا ليس أنت، من المستحيل أن يكون هذا الشيء أنت.

تساقطت دموعه:

- لا يمكنني التخيل. هل سأفعل هذا الشيء في يوم من الأيام؟

- كلا، لســ...

قطعت سوسن جملتها غاضبة:

- ماذا تقصد؟

رفع محمود رأسه:

- أعتقد أن الأمور واضحة؛ هذا الحيوان كان أنا، لكن في زمن آخر.

لم تهدأ نبرتها الغاضبة:

- ماذا تقصد بزمن آخر؟

اعتدل محمود وبدا على صوته الخوف وهو يقول:

- أ.. أقصد... هذا أنا، ولكن في المستقبل؛ هذا هو التفسير الوحيد، خاصة بعد الذي قصته هبة.

ألقت سوسن بنظرة لوم على حفيدتها، فهي لم تكن تعلم أنها أخبرته عن المنزل والآلة، وتلك التخاريف العلمية، التي بثها الكناس في رأسها.

- وبالطبع ظهور اثنين محمود سيدعم قصة الكناس.

قالتها سوسن وهي تنظر إلى حفيدتها في غضب.

- جدتي! ماذا تقصدين؟ أن الكناس سمح بذلك؟

- سيفعل أي شيء لتصدقيه، حتى تبديل شكله ليشبه محمود.

- جدتي، من فضلك، ألبرت لن يفعلهـ...

- بلا ألبرت بلا... اسمه الكناس، كرري ورائي: «الكناس».

صرخت هبة من الألم؛ فسوسن تمسك ذراعها وتجذبها بقوة.

وقف محمود بجسده الممشوق وحل ذراع هبة، ثم أمسك بجسدها ووضعها على الفراش بحنان:

- لقد مرت هبة بموقف عصيب؛ من الأفضل أن ترتاح الآن.

قالها في حزم غريب وهو ينظر إلى الباب. وقفت سوسن وهي تضم شالها:

- تطردني وأنت ضيف بمنزلي يا محمود؟

- العفو يا سوسن هانم، لكنه يوم طويل ومرهق. لنسترح حتى الصباح، ربما نقول شيئًا ونندم عليه.

توجهت سوسن إلى الباب غاضبة، ثم أغلقته بعنف مخلفة صوت فرقعة. الوغد! ستتغير مشاعرها تجاهه، يمكنها حتى استدعاء الكناس ليلتهمه. كلا، اللعنة، إنه ليس ميتًا، كما إنها لا تعرف؛ هل يمكنها التحكم في الكناس؟ أم إنها فقدت سطوتها عليه؟ توقفت في منتصف الممر وهي تنظر إلى المنزل النائم، ثم ضمت شالها ثانية وهي تفكر.. ربما الكناس لم يعد تحت سلطتها، ولكن يمكنها دومًا استدعاء العم زغلول ليطرده ويطرد الجميع. توقفت ثانية أمام باب غرفتها، ثم تذكرت محمود؛ منذ ثوانٍ كان يبكي لأنه حاول إيذاء هبة، ثم في لحظة تحول إلى أسد مدافعًا عنها. ربما تكرهه الآن، ولكنها لا تستطيع إنكار إعجابها المخفي بشخصيته المتغيرة من أجل حفيدتها الوحيدة. ربما هبة محظوظة بحصولها على شخص مثله.

***

- أتشعرين بالدفء الآن؟

قالها محمود وهو يضع مزيدًا من الأغطية فوق جسدها المرتعش.

هزت هبة رأسها:

- شكرًا.

ابتسم محمود وتوجه إلى الباب، ثم توقف:

- هبة، أنا لن أستطيع النوم بعيدًا عنك.. أعني، لن أصدر صوتًا، سأجلس فقط؛ في حال عاد هذا الوغد ثانية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

اختنق صوته وقاوم دموعه وهو ينظر إليها:

- لن أضايقك، أنا فقط هتـ....

- لا توجد مشكلة، يمكنك النوم على الأريكة لـ....

- لن أنام؛ سأراقبك، أقصد.. في حالة لو عاد.

ابتسمت هبة بحزن:

- لا أظنه سيعود. أعترف؛ لن أشعر بالأمان وأنا بمفردي، يمكنك النوم على الأريكة حتى الصباح.

هز محمود رأسه، ثم توجه إلى الأريكة وتمدد عليها. عادت لتغطس أسفل الأغطية الثقيلة محاولة الانزلاق في النوم.

- هل يمكنني قول شيء ما؟ ولكن لا تغضبي.

اعتدلت هبة:

- بالطبع.

ما زال محمود ينظر إلى سقف الغرفة مفكرًا:

- أنا لا أقصد أن يكون ألبرت مخادعًا أو وقحًا ليفعل شيئًا كهذا، ولكن كيف يسمح بحدوث ذلك لك؟

اعتدل محمود ونظر إليها مكملًا:

- أقصد؛ أنت وريثة المنزل الآن، فكيف تتعرضين لمثل هذا الأذى؟

تساقطت دموعها:

- لأني لست الوريثة بعد؛ أقصد.. جدتي لم تسلمني مفاتيح المنزل، وأيضًا الخـــ...

اختنق صوتها، فأسرع محمود يحتضنها.

- آسف، لم أقصد أنـــ...

- أعرف، ولكن أنا أيضًا لا أفهم كيف سمح ألبرت بذلك.

قالت تلك الكلمات ثم دفنت رأسها في صدره وبدأت في البكاء. رفع ذقنها بيده الدامية من كثرة توجيه الضربات، ومسح وجنتيها. قرب وجهه وطبع قبلة على شفتيها. انتظر متوجسًا رد فعلها، ظن أنها مرت دقائق وهي تنظر إليه. بيد واحدة أمسكت رأسه، وبالأخرى أبعدت الفراش ليغوص معها إلى الأسفل. احتضنته بقوة، وكذلك فعل هو. كم تشتاق له وتريده! ولكنها لم تعرف كيف تظهر له هذا. سامحته، أو بالأحرى تسامح نفسها؛ إنها تستحق الحب، تستحق أن تكون سعيدة، هي لم تؤذِ أحدًا يومًا، بل بدا لها وكأن الجميع تعمد أذيتها. نظر إليها مرة أخيرة وهو يضحك، ثم ضمها أكثر.

***

فتحت عينيها لتجد الشمس تغرق الغرفة بضوئها الساطع. حاولت التحرك لتجد جسده يمنعها. ابتسمت وهي تربت على رأسه وترفع شعره الناعم عن جبهته. ابتسم مغمض العينين، وعاد ليحتضن جسدها ثانية.

- حسنًا، علينا الاستيقاظ قبل أن..

- لا تفكري حتى في هذا، جميع من بالمنزل سمع صوتنا أمس، لذلك..

رفعت هبة رأسها وتعجبت؛ هل يسمع أفكارها هو الآخر؟

اعتدل محمود دون أن يفتح عينيه، وقال مفسرًا:

- بالتأكيد صوتنا كان مرتفعًا ليلة أمس، وجدتك قالت إن المنزل يشعر بسعادتك، ولو عرف المنزل، فبالطبع كل ساكنيه يعرفون الآن.

تسارعت ضربات قلبها، وهاجمتها مشاعر متضاربة. تشعر بالخجل، ولكنه زوجها، وما تفعله معه هو شأنهما الخاص. ولكن، اللعنة! هل عرف أبوها أيضًا؟

ضحك محمود:

- ماذا تظنين سليم فاعلًا بي؟

- هل تمزح في شيء كهذا؟ إنها فضيحة!

- لذلك من الأفضل أن نبقى في الفراش إلى ما لا نهاية.

- فكرة جيدة، ولكن دعنـ...

فتح الباب فجأة، فصرخت هبة وحاولت الاختباء خلفه.

فتحت سوسن فمها تحاول التحدث، ولكنها استدارت وغادرت مسرعة. نظر إليها محمود:

- الآن سيعرف الجميع.

ضربته على كتفه، ثم أسرعت إلى دورة المياه.

***

- أنا آسفة.

قالتها سوسن مطأطئة رأسها. تعجبت هبة منها؛ إنها لا تعتذر أبدًا.

- لا تهتمي.

- لا، حقًّا، أنا آسفة. لقد تأخرت، وتلك ليست عادتك، وبعد حادثة أمس قلقت؛ لذلـ...

- حقًّا يا جدتي، أنا لست متضايقة.

- تدخلي في لحظة كتلك...

ضحكت هبة وهي تقترب منها:

- حسنًا، أنت تعطين الأمور أكبر من حجمها.

رفعت سوسن رأسها، فلاحظت هبة الحزن في عينيها.

- ولكنه ليس بأمر هين. هناك لحظات لا يجب أن يتدخل بها أحد، لحظات في أي علاقة لا بد وأن يكون شريكك لك وحدك وأنت له، لحظات لا يصح أن يقتحمها أحد؛ لأنها للآسف لا تتكرر.

- كنا على وشك مغادرة الفراش، أنت لم تقاطعي أي لحظات.

ربتت سوسن بحنان على رأسها وهي تراقبها وكأنها طفلة تتعلم الكلام لأول مرة. اقتحم محمود المطبخ كعادته الصاخبة وهو يغني. اقترب منها وطبع قبلة على رقبتها وهي تصرخ معترضة.

- محمود، لا يصح ذلك.

- لم؟ أنت زوجتي.

نظرت إليه محذرة، فأكمل ضاحكًا:

- هذه هي سوسن هانم، من العائلة.

نظرت إلى جدتها لتبدأ في تنسيق كلمات اعتذار، لكنها وجدتها مبتسمة تنظر إلى محمود بحنان وهي تراقب تحركاته.

- عذرًا جدتي.

- لماذا؟ هذا زوجك وعليك تدليله.

ضحكت هبة من كلمات جدتها:

- حسنًا، سأقوم بذلك عندما نكون بمفردنا.

***

راقبت الخادمة وهي ترفع الطعام عن الطاولة وتبتسم لها. إذن المنزل كله يعرف الآن.

- هل تحدثت مع الكناس؟

قطع صوت جدتها حبل أفكارها، وتذكرت مهمتها لهذا اليوم.

- كلا، لم أجد وقتًا مناسبًا لـ...

- عليك بإفساح وقت لمهمتك الأساسية، فأنت الآن مـ...

- جدتي، الحادثة وقعت بالأمس، وليس العام الماضي.

نظرت إليها سوسن غاضبة:

- ومسألة أحمد؟

- اللعنة، أنا لا أعرف ما الذي علي فعله معه.

- لتكوني حازمة معه.

- أخشى أن يغضب محمود لو عرف بنيتي في التحدث معه.

- يغضب ساعة أفضل من أن يغضب ما تبقى من حياته إن لم ننهِ هذا الموضوع.

قالت سوسن تلك الكلمات ورحلت تاركة خلفها هبة مفكرة. لا تعلم كيف ستحل تلك المشكلات التي تواجهها. نظرت حولها، ثم بحركة واحدة أغلقت باب الغرفة وعادت لتفتحه. تلك المرة ألبرت ينظر إليها وعلى وجهه نظرة خاوية.

- لا أفهم سؤالك.

تركته هبة وعادت لتجلس، فدخل وأغلق الباب خلفه وكرر سؤاله.

تنفست هبة كي لا تفرغ غضبها في وجهه:

- كيف تسمح بحدوث شيء كهذا لي؟ أ.. أنت والمنزل، كيف؟

لاحظت هبة التشتت وعدم الفهم، فقالت مفسرة:

- محمود بنسخة ثانية، حاول أن يؤذيني، كيف؟ أخبرتني أني محمية هنا.

- آسف آنسة هبة، ولكن هذا من قوانين البيت.

- ماذا؟ ما هي قوانين المنزل التي تقصدها؟

- محمود بيه محمي بقانون البيت.

هزت هبة رأسها بعدم فهم، فأكمل ألبرت:

- لقد سننت هذا القانون بنفسك، محمود من المحرمات بالنسبة للبيت وسكانه ووحوشه.

- أنا؟ متى سننت هذا القانون؟

اعتلت وجه ألبرت نظرة تشتت ثانية، ثم رفع رأسه:

- في أي عام نحن؟

تأملت هبة وجهه، ثم أمسكت بيده وأجلسته على أقرب مقعد:

- نحن في سنة 2021، متى سننت هذا القانون؟ ألا تتذكر؟

هز ألبرت رأسه بالنفي، فأكملت هبة:

- هل حدثت تلك الحالة معك من قبل؟

مرة أخرى هز ألبرت رأسه بالنفي.

- هل استطاع أحد من المستقبل أن يعود بالزمن للخلف؟

- كلا، تلك من المحرمات.

- كيف إذن استطاع محمود العودة؟

– I do not know.

لاحظت هبة لغته التي تغيرت:

- حسنًا، هل تستطيع أنت الذهاب إلى المستقبل والعودة ثانية؟

- كلا.

- إذن كيف عرفت بأني أقررت قانونًا لحماية محمود؟

نظرة خاوية أخرى تعتلي وجهه، إنه لا يدعي كذبًا، عليها التأكد قبل إصدار أي حكم.

- محمود بيه من المحرمات لأن المنزل هو من أعطاه السلطة وليس أنا.

- والبيت أعطى له سلطة كتلك؟ لماذا؟

- أظن البيت جائعًا أيضًا، لذلك قرر أن يبقيه كبطارية حية له.

رفع ألبرت رأسه فجأة وأكمل:

- عليك الحذر منه، محمود قوي، ويهدد سلطتك على المنزل.

قالها ثم وقف وكأنه آلة، ثم توجه إلى الباب مسرعًا في الخروج.

تهاوت على أقرب مقعد ووضعت رأسها بين يديها. اللعنة، كلما أظن أني فهمت هذا المكان تأتي مصيبة جديدة لتطيح بكل ما عرفته. هل ألبرت صادق؟ هل يجب أن أثق في حديثه هذا؟ علي التأكد بنفسي، ولكن كيف؟ علي التعامل مع مشكلة أحمد كذلك، ولكن أحتاج إلى الحديث أولًا مع محمود.

***

نظرت إلى الساعة في يديها. إنها تقترب من الواحدة ظهرًا. رفعت رأسها لتراقب تلك السيارة البيضاء تقترب؛ إنه أحمد. لطالما احترم موعده، ولطالما عرف أنها تبجل من يحترم مواعيده.

خرج من السيارة مقتربًا وعلى وجهه ابتسامة منتصرة لا تفهم كنهها. قررت مقابلته في حديقة المنزل، لا يمكنها الخروج من محيط المنزل، ولا تريد استضافته بالداخل وتعكير هدوئه. لكنها تعرف بالطبع أن محمود يراقبهما من مكان ما، هذا اتفاقهما. سيلتزم الهدوء طالما استطاعت هي أن تكبح أحمد، اتفاق تتمنى أن يمر بسلام.

- ألم يكن من الأفضل أن نتقابل في مكان آخر؟

قالها ثم ألقى نظرة على المنزل وأكمل:

- أنا أكره هذا المكان، لا أعلم كيف أمكنك إمضاء كل هذا الوقت بداخله.

همت بتذكيره أنه السبب في كل تلك المشكلات، ولكنها توقفت في اللحظة الأخيرة:

- أحمد، هلا جلست! أريد التحدث معك.

- أولًا.. رأيت الرسائل، أليس كذلك؟

- بالطبع.

ابتسم أحمد وتراخى في مقعده:

- أعتقد أن جزيرة بالي مكان جيد لشهر العسل؛ أنا أعرف مدى حبك للبحر. بعدها ننطلق إلى إسبانيا؛ حلم حياتك، ولتعلمي أني تقدمت باستقالتي، لنكون شركاء بالعمل كذلك، ونفتتح شركة خاصة بنا. لقد أنتـــ...

رفعت يدها في الهواء لتوقفه:

- أحمد، من فضلك، أنت تتحدث مع امرأة متزوجة.

- ولماذا وافقت على مقابلتي ما دمت متزوجة؟

تنفست هبة بهدوء، فهي تعرف كلفة غضبها:

- ليس من عادتي ترك مشكلاتي معلقة، كما إنك تفوهت ببعض الكلمات الحمقاء لزوجي، ورأيت أنه من المناسب وضع النقاط فوق الحروف. وأؤكد لك أني أحب زوجي، حتى بعد رؤيتي للرسائل.

خلع نظارته السوداء ونظر إلى عينيها:

- هبة، أنت تمزحين، أليس كذلك؟ هبة، أنا حب حياتك، أنا توأم روحك.. أنـــ...

قالت هبة بنفاد صبر:

- كنت كذلك، والآن لم تعد. أنا لا أشعر بأي شيء ناحيتك.

- أنت تكذبين، أنت حتى لم تكوني تفضلينه؛ نحن كنا نسخر منه على فشله وكسله وغبائه، كنا... كنا...

- كنا، وبقينا أنا وهو معًا. أنا أحبه، وأريد إكمال حياتي معه. أحمد، من فضلك، أنا لا أتمنى لك التعاسة. ما زلت أكن لك الخير كصديق، حاول الرجوع إلى هنا؛ الفتاة مدمرة بدونك، أنت كل حياتها. حاول الاستمتاع بحياتك، لأني أنوي الاستمتاع بحياتي دون الشعور بثقل الذنب.

ربتت هبة على يده ثم توجهت إلى المنزل، ولكنه أسرع وأمسك ذراعها:

- هل تظنين الموضوع سهلًا؟ هل تتركينني هكذا دون عواقب؟ أنت ملك لي، لم أضيع سنوات شبابي معك هباء. ستأتين معي الآن وتمزقين عقد زواجك بهذا الأحمق وتتزوجـــ...

لم يكمل أحمد جملته؛ أحدهم طوحه في الهواء، فوقع أرضًا وهو ينظر حوله.

- أبي!

وقف سليم خلفهما، وتساءلت هبة عن مكانه طوال الوقت؛ هل راقبهما هو الآخر؟ سمعت جلبة بداخل المنزل. محمود يحمل عصا خشبية غليظة. جذبها بعنف لتدخل، وخرج هو ليهوي بالعصا على رأس أحمد وسط صراخ الجميع.

***

- كيف حاله؟

طرحت سوسن السؤال وهي تراقب حفيدتها وهي تضع الجبن في بعض أرغفة الخبز.

- بخير، يريد التعارك معي بالطبع، ولكني لم أعطه فرصة.

- ماذا فعلت؟

هزت هبة كتفيها في لا مبالاة:

- أخذت بنصيحتك ودللته.

ابتسمت سوسن وهي تراقب حفيدتها تصعد الدرج. ربما يمكن أن تستمر علاقة ناجحة في هذا المكان الملعون. ألقت نظرة على جدران المنزل القديم وكأنها تحذره من المساس بهما.

أسندت الطعام على الأرضية، ثم قامت بفتح الباب، لتتسمر في المكان.. ألبرت يقف في منتصف الغرفة بالقرب من محمود، الذي ينظر إلى الرسائل في هاتفه. وضعت الطعام على الطاولة وهي تنقل نظراتها بينهما وتتساءل؛ هل يملك محمود القدرة على رؤيته؟

- مـــ.. محمود!

رفع محمود رأسه، ثم نظر إلى ألبرت:

- صديقك هذا يقول كلامًا عجيبًا.

- هل تستطيع رؤيته؟

- نعم، أنا لست أعمى.

- منذ متى وأنت تراه؟

نظر محمود إليه:

- منذ اختفائك، ألبرت ظهر لي ليطمئنني.

نظرت إليه غاضبة:

- ولم تفكر في إخباري! لا أنت ولا هو؟

- هبة، أرجوك، دعينا نفكر في حل لتلك المصيبة.

- أي مصيبة؟

- هنا لا تنوي تركنا في سلام، و... أبي وأمي، ينويان زيارتنا هنا.

- أين؟ هنا؟

أشار إلى حوائط المنزل:

- هنا. هل تفضلين أن يستقبلهما ألبرت أم نوال؟

- أنت تمزح، أليس كذلك؟

ابتسم محمود بطريقته المعتادة:

- وهل هذا وقت المزاح؟

- محمود، لدينا حفلة الليلة.

- جيد، سيرى أبي وأمي كل شيء.

همت هبة بالصراخ، فرفع يده مهدئًا:

- سأحاول حثهما على الرحيل قبل الثانية عشرة مساء.

تراخت هبة على أقرب مقعد:

- وهنا، هل ستحضر معهما؟

- لا أعرف، ولكن علينا الحذر منها.

- حقًّا؟ إنها ملاك.

ابتسما كلاهما، ثم تذكرت ألبرت، فرفعت رأسها:

- ماذا تفعل هنا؟

لم يجبها ألبرت، بل عاد لينظر إلى محمود، الذي أسرع:

- أنا طلبت منه الظهور.

- لماذا؟

- ما نيتك في التعامل مع الوغد بنيامين؟

فاجأها السؤال قليلًا، ثم قالت مفكرة:

- لا أعرف، لم أفكر بعد.

- أريد قتله بنفسي، أعني أنــ...

- هو ميت، إنه فقط... سنمنعه من الظهور، ولكن ليس اليوم. سأفكر في حل ما، لكن الآن علينا الاستعداد.

***

تفحصت وجهها في المرآة للمرة العاشرة هذا اليوم، فكلما تطرق خادمة الباب تتحجج بوضع المزيد من مساحيق التجميل، ولكنها في الحقيقة تؤجل ظهورها قليلًا لتقضي وقتًا أقصر مع أسرة محمود. تعجبت قليلًا من دورة الحياة؛ قديمًا كانت تتحين وقت راحتها لتزور خالها، أو تشرب القهوة مع زوجته في المطبخ، الآن تخاف من أحكامهما المبطنة بالشفقة والتعالي. لا تعرف أيًّا منهما ستقابل، ولكن ما يخيفها حقًّا هو رؤية أمها. يقولون إن الأم تشعر بأبنائها، فهل شعرت أمها بوفاتها؟ ربما تخدع الجميع بنظرية الزمكان التي تشدو بها عند كل ركن في المنزل، ولكنها تعرف؛ وقتها انتهى في تلك الحياة. أحيانًا تظن أنها لم يكن لها وقت أصلًا، فقط جاءت لترحل.

فتح الباب ثانية، ولكن هذه المرة ظهر محمود. وقف منتظرًا عند الباب دون أن ينطق، فقط ينظر إليها. التفت وهي ترتدي قرطًا ذهبيًّا:

- أوشكت على الانتهاء.

ابتسم محمود ثم اقترب منها وطبع قبلة على عنقها:

- يمكنني قضاء الليلة بمفردي معهم لو تحبيــ...

- كلا، بالطبع لا، لقد اشتقت لأمي و...

هز محمود رأسه في تفهم:

- احذري، فــهنا معهم.

ابتسمت هبة في لا مبالاة مصطنعة، فأغلق زوجها الباب، وسبت هي بصوت هامس:

- اللعنة!

لتقف الآن وتواجه مصيرها بشجاعة؛ فتأخرها يزيد الطين بلة. توجهت إلى الباب وعصرت المقبض في توتر، ثم أخذت نفسًا عميقًا وفتحته. قفزت مبتعدة في خوف؛ لقد لامس شيء ما ساقيها. استغرق الأمر ثواني معدودة حتى تتبين جسد الطفلة الصغيرة التي تحاول احتضان ساقيها. أمسكت هبة بالطفلة الصغيرة وأبعدتها قائلة:

- من أنت؟

ضحكت الطفلة وحاولت الإفلات منها لتلعب، ولكن هبة أطبقت يدها على ذراعها وهمت باستدعاء الخدم ليحبسوا الفتاة، فالليلة غير مناسبة لتجوال ضيوف المنزل. ولكن شيئًا ما أوقفها.. تلك المرأة الشابة في منتصف الممر، وهي تبحث عن الطفلة. هل ما تسمعه حقيقي؟ المرأة تنادي الطفلة بهبة، فأي هبة تقصد؟

تحررت الفتاة الصغيرة من قبضتها، ثم أسرعت تحتضن أمها. اقتربت المرأة في خوف من هبة:

- عذرًا، لن يتكرر الأمر مرة أخرى، أ...

تسارعت ضربات قلبها، لقد تعرفت على أمها؛ سامية الشابة، في منتصف العشرينيات. ألبرت محق، لقد زرت المنزل وأنا طفلة.

- أ... أنا...

لم تكمل جملتها، ولكنها تطلعت إلى وجه الفتاة الصغيرة؛ سمراء، بشعر أسود ناعم يتدلى على كتفيها. حاولت الطفلة التحرر من أمها وهي تضحك. تعجبت هبة. هل كانت يومًا سعيدة هكذا؟

تراجعت سامية وهي تعتذر ثانية، فأسرعت هبة صارخة:

- أمي!

تسمرت سامية وهي تتطلع إلى وجه ابنتها الشابة، لا بد وأنها تشعر؛ الأمهات دائمًا يشعرن.

اقتربت هبة وهي ترفع يدها في الهواء وكأنها تروض أسدًا هائجًا:

- أمي، إنها أنا.. هبة! لقد... هل تعرفين عن المنزل؟

تخلت سامية عن تمسكها بطفلتها، فأسرعت هربًا منها. حدقت هبة إلى أمها الشابة الجميلة وصدرها يعلو ويهبط، ودموعها توشك على الانفلات.

- أمي، أنا.. ابنتك، ولكن بعد بضعة أعوام. أمي، أنا آسفة.. أنا لم أقلها يومًا... أعني.. لقد كنت قاسية عليك دومًا. ولم.. أحترمك حقًّا، ضحيت بالكثير، وأنا نظرت فقط إلى نواقصك. أمي، سامحيني، أنا أحبك!

عم الصمت المكان، حتى قالت سامية بصوت متحشرج:

- متى... متى مت؟ و...

تساقطت دموع هبة. كيف تخبرها أنها هي من ماتت؟

- أمي، كلا، أنت تنتظرينني في الأسفل لتهنئيني بزواجي؛ فتلك أول زيارة لك بعد زواجي من محمود.

- مـ.. من؟

- محمود؛ ابن خالي. أمي، عليك الرحيل من هنا. أنا آسفة، أعرف أنك تحبين أبي، ولكن لا يمكن لهبة تحقيق مصيرها في هذا المكان، على الأقل ليس الآن. أعرف.. أنت تحبين أبي، ولكن عليك التضحية. أتوسل إليك.. ارحلي. خذي ابنتك وارحلي، سنعود جميعًا معًا يومًا ما.

تراجعت سامية، ثم حملت هبة الطفلة وأسرعت خارج الممر. عادت هبة لغرفتها وهي تفكر. إذن لا وجود للصدفة في هذا المنزل، لطالما تساءلت عن سبب رحيل أمها، وتمسكها بتلك الشقة الصغيرة أسفل أخيها. الآن تعرف، ولكن عليها إخبار سليم. لتعترف له أنها السبب في حرمانه من زوجته وابنته الصغيرة، أما الآن، لتذهب وتقابل أمها.

عدلت من مساحيق تجميلها وهي تفكر في كلمة أمها لها بعد حادثة أحمد: «كل شيء نصيب»، كلمة كرهتها، وكرهت أمها بسببها. الآن تعرف. أمها عرفت شيئًا هي لم تعرفه بعد، فما بالك بما يعرفه الله -سبحانه وتعالى- عنا؟ فهو خالقنا، عندها لن نتذمر أبدًا من أقدارنا.

استغفرت الله على اعتراضها الدائم على مشيئته، ثم توجهت إلى الصالة الواسعة. ارتمت في حضن أمها لدقائق، ثم عادت لتجلس بجانب زوجها. ظلت هنا تراقبها بعينين زائغتين. يمكنها الشعور بغضبهم المتخفي خلف كلماتهم، خاصة زوجة خالها؛ لقد فقدت ولدها بسببها، ثم زوج ابنتها «اللقطة» كما أحبت أن تلقبه. خططها تداعت، لذلك هبة تعذرها، لا تتعاطف معها، ولكنها تشفق عليها.

قطع صوت سامية أفكارها:

- جهازك ما زال في المنزل، هل أحضر عمالًا ليجلبوه إلى هنا؟

تفحصت أمها وتعجبت من تأثير الوقت على الإنسان. سامية الشابة الجميلة، التي ضيعت شبابها في تربيتها، وهي كانت أسوأ ابنة يمكن أن يتخيلها أحد.

- أمي، هناك شيء ما في المطبخ أريد رأيك فيه.

وقفت هبة، ثم ساعدت أمها المسنة على النهوض، ومعًا سارتا حتى وصلتا إلى المطبخ.

قالت هبة بصوت هامس:

- أمي، أعرف، أنا آسفة.

تسللت الدموع من عينيها:

- احتفظت بكل شيء في رأسي عن تلك الليلة، خاصة لون فستانك.

قالت تلك الكلمات، ثم مررت أصابعها على رداء ابنتها.

- كيف تحملت كل هذا بمفردك؟

- من سيصدقني؟ كما إني أقسمت لأبيك على الحفاظ على سر المنزل، ولأني أعرف أنه يومًا ما سنجتمع كلنا هنا.

ارتمت هبة باكية في أحضان أمها:

- هل تسامحينني؟

أمسكت سامية بابنتها:

- توقفي، كنت أفضل ابنة يمكن الحصول عليها.

مسحت دموع ابنتها بيدها وأكملت:

- هيا بنا، لنعد لهم، فربما ترمي زوجة خالك عملًا للتفريق بينك وبين محمود.

كررت هبة كلامها، ثم انفجرت ضحكًا وتخيلت رد فعل المنزل على شخص غريب يحاول إلقاء سحر هنا.

انتهت الليلة أخيرًا وعقارب الساعة تقترب من العاشرة مساء؛ وقت مناسب لتستريح وتستعد لحفلة الليلة. مرت الزيارة بسلام، باستثناء ما قالته هنا عندما اتبعتها إلى المطبخ في نهاية الليلة؛ كلمات مقتضبة، ولكنها أشعرتها بالاضطراب.

- احذري، أحمد يشتعل غضبًا ويتوعد الجميع بالانتقام، خاصة أنت.

قالتها هنا ثم أسرعت لتجلس بجانب أمها. لم تعرف هبة كيف تحكم على الموقف، فهل هي تحذرها؟ أم تريدها خائفة ومتوجسة؟ لكنها تعرف أحمد. أقسمت على ترك الماضي خلفها والعيش سعيدة، ولكن كلما تذكرته شعرت بسحابة سوداء تغلف روحها.

***

ألقت نظرة أخيرة على انعكاسها في المرآة، وتعجبت من شكل فستانها الذي اختارته الخادمة من أجلها الليلة. شيء آخر اكتشفته مؤخرًا؛ ليس من حقها تحديد أي فستان ترتديه، تلك مهمة المساعدة، أي إن فوزية تختار الملابس المناسبة لكل حفلة على حدة، وفي حالتها، من تختار رداءها هي هدى. حتى جدتها شعرت بتقاربهما، فعينتها مساعدة لها. ستعتزل فوزية فور خروج جدتها من المنزل. أطلق محمود صوتًا ما إن رآها، فابتسمت.

- ومتى سيحضر شهبندر التجار؟

لم تعلق هبة، بل نظرت إليه من خلال المرآة:

- تبقت ثلاث دقائق، وأنت لم ترتدِ ملابسك بعد؟

اقترب منها وطبع قبلة على عنقها:

- أحبك عندما تعاملينني بعنف هكذا.

- محمود، توقف من فضلك وارتدِ ملابسك سريعًا.

طبع قبلة أخيرة على عنقها ثم رحل. حدقت إلى انعكاسها وتفحصت فستانها غريب الشكل؛ فهو يذكرها بتلك الملابس التي ارتدتها شريهان في مسلسل ألف ليلة وليلة، الذي عرض على شاشات التلفزيون وهي طفلة. جعلها الفستان تتساءل عن ضيف حفلة الليلة.

فتح باب الغرفة، وبرزت هدى ترتدي فستانًا لا يختلف كثيرًا عن فستانها.

- هل الهانم جاهزة؟

إذن هي أيضًا هانم كجدتها، أو ربما هو مجرد لقب لكل من يحكم المنزل.

وقفت أخيرًا في منتصف البهو تنتظر دقات الساعة لتعلن انتصاف الليل.. الدقة الأولى، الثانية، ثم الثالثة.

رفعت هبة رأسها لتستقبل ضيف الليلة، ولكن لا شيء. تحرك عقرب الساعة ليعلن الساعة الثانية عشرة ودقيقة، ولكن لا صوت نقرات تهبط الدرج، ولا دقات على باب المنزل الرئيسي.

تسارعت ضربات قلبها، وتطلعت إلى مساعدتها هدى، التي وقفت بثبات تحسد عليه.

همت هبة بالتحدث، ولكن ظهر صوت أحدهم يهبط الدرج سريعًا. رفعت رأسها لتجد زوجها محمود يرتدي بدلته السوداء، ولكن كعادته تخلص من ربطة العنق، وفتح أزرار القميص حتى منتصف صدره. بدا كرشدي أباظة بطلته الشقية.

- ماذا؟ هل تأخرت؟

هزت هبة رأسها بالنفي، وأمسكت بيده لتضعه بجانبها.

- ماذا حدث؟ أين الضيوف؟

نظرت إلى مساعدتها، لتجدها تحدق إلى الجزء المظلم من المنزل. عرفت هبة على الفور؛ ضيف الليلة يختلف، لذلك اقتربت منها وركزت على الجزء المظلم، فتسارعت ضربات قلبها.

- اللعنة!

قالتها هبة وهي تنظر إلى الظلام الذي بدأ يتشكل، ليظهر رجل طويل عريض المنكبين.

- سلطان باشا!

قالتها هدى وهي تتوجه إليه رافعة يدها لتحيته. توجه سلطان باشا إليها، وطبع قبلة على وجنتيها، ثم أشار خلفه لتظهر مجموعة من النساء يرتدين ملابس الأميرات ويتوجهن إلى قاعة الحفلة مباشرة.

ابتسم السلطان لهبة، ثم دلف إلى الحفلة.

محمود: «من هذا؟ ومن أين أتت كل تلك النساء؟»

التفتت إلى زوجها:

- محمود، اجلس بجانبي طوال الوقت ولا تتحرك، هذا الرجل مجنون.

أمسك محمود بذراعها:

- من هذا؟

- هل تتذكر قصة هارون الرشيدي؟ من يمتلك قصرًا من النساء؟

- هل.. هذا هو؟

هزت هبة رأسها.

قال محمود مبتسمًا:

- إذن باقي النساء بمفردهن في القصر الآن؟

قطبت هبة جبينها غاضبة، وهمت بتعنيفه، ولكنه ابتسم لها ثم سار إلى الحفلة وهو يدندن. زفرت هبة بقوة وهي تقاوم رغبتها في الذهاب إليه واحتضانه.

اتبعته إلى قاعة الاحتفال، فوقفت مشدوهة وهي تتفحص المكان الذي اختلف تمامًا. الآن لا يوجد مسرح ولا مقاعد، ولا أي شيء، فقط بعض الوسائد على الأرض في بداية القاعة، تحيط بها الستائر الحريرية. جلس السلطان وحوله نساؤه؛ مشهد رأته في قصص ألف ليلة وليلة. ولتكتمل الصورة وضعت على الصفين وسائد لباقي ضيوف الحفلة. بضع دقائق ثم بدأت واحدة من حريمه بالعزف على العود لتسلية الحضور. اقتربت واحدة أخرى لتجلس بجانبها وتشدو بأبيات شعر قائلة:

أخاف عليه العين من طول وصلها *فأهجرها الشهرين خوفا من الهجر*

وما كان هجراني لها من ملامة *ولكنــي أملــت عاقبــة الصبــر*

أفكــر فــي قلبــي بــأي عقوبة *أعاقبه فيكم لترضوا فما أدري*

سوى هجركم والهجر فيه دماره *فعاقبته فيكم من الهجر بالهجر*

فكنت كمن خاف الندى أن يبله *فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر*

اتخذت مكانًا على إحدى الوسائد المتناثرة على أرضية الغرفة، ليجلس زوجها بجانبها، كما فعل ضيوف المنزل. بضع دقائق مرت وبدأ الحضور في الازدياد والتباين. هذا الوغد من نادي «الرجال فقط» يستند إلى الباب وينظر إليها مبتسمًا. ردت الابتسامة في تكلف. نوال أيضًا هنا، ولكنها غيرت ملابسها لترتدي قميص نوم من الساتان الأحمر. ما زال نصف صدرها يخرج للعلن، ولكن يحسب لها أن القميص طويل يتدلى حتى ركبتيها. بحثت بعينيها عن جدتها فلم تجدها، وفكرت؛ هل تثق بها ثقة عمياء لتدع لها يومًا كهذا مع ضيف مهم كالسلطان؟ برغم أنه وغد لكنه البطارية الحية لهذا المنزل على حد قول الجميع.

- إذن ممنوع على أحد النظر إلى نسائه؟

- محمود، لقد وعدتني.

- ماذا؟ إنه وغد.

- ولكنه مهم للمنزل، كذلك...

- حسنًا، لكن أريد لكمه لمرة واحدة فقط، لقد وضع يده على جسدك.

- محمودا!

قالتها صارخة، مما جعل بعض الضيوف ينظرون إليها؛ فقالت ضاغطة على أسنانها:

- محمود، من فضلك توقف. لا أريد مشكلات جديدة، يكفيني ما أنا فيه.

- إذن لم تفعلي شيئًا بخصوص هذا اليهودي القذر؟

تذكرت على الفور الخواجة بنيامين، واضطربت معدتها.

- لا أعرف كيف تعلقين مسألته تلك، لقد.. لـــ... قتلك أنت وأباك، وأنت...

حدقت إلى وجهه لتراه وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

- محمود، أنا أنتظر حتى يهدأ المنزل ونستقر، ثم سأنهي هذا الأمر.

هز محمود رأسه في استسلام لينهي النقاش. إنها تعرف؛ يجول بخاطره الكثير من الأفكار والمشاعر التي لا يستطيع البوح بها، ولكن ما باليد حيلة، عليها الانتظار لترث المنزل بشكل رسمي.

تابعت الحفلة في صمت حتى اقتربت الساعة من الثالثة صباحًا، وبدأ الحضور في الاختفاء واحدًا تلو الآخر، حتى اقتربت هدى منها:

- لو تحبين الصعود إلى غرفتك.. وسأقوم أنا بتقفيل المنزل.

هزت هبة رأسها في استسلام، ثم صعدت إلى غرفتها وحيدة، فمحمود رحل منذ أكثر من ساعة، وتلك أول مرة يتركها وحيدة في حفلة ويغادر. على أي حال هي سعيدة أن اليوم انتهى أخيرًا، غدًا ستتحدث معه عن كل شيء، ستقص له ما حدث بينها وبين أمها الشابة منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا، عليها كذلك الاعتذار لأبيها. بدأت بصنع قائمة مهام في رأسها عندما دخلت إلى حجرتها، لتتسمر في مكانها! لم تكن غرفتها تقبع خلف الباب، ولكن بهوًا رخاميًّا شاسعًا، تزينه نافورة مياه في المنتصف، وعلى جانبيه مجموعة من النباتات تصل حتى السقف. هل عادت بالزمن مرة أخرى؟ تجولت بحرص في المكان، فهي حتى الآن لا تعرف متى يراها أو لا يراها سكان الماضي. سمعت الضجيج الصادر من نهاية البهو، فأسرعت حتى وقفت خلف باب غرفة تنصت للأصوات المرتفعة.

صوت ذكوري تغلب عليه اللهجة النوبية:

- ما ذنبها بتول يا سيدتي؟ أريد القصاص لها!

إذن هذا هو خضر، كبير الخدم وجدها الأكبر.

أصوات متقطعة من السيدة هيلين، ثم اقتحم المكان صوت ألبرت صارخًا بغضب:

- عليها اللعنة هي وكل النساء، أي قصاص هذا؟ لقد خانتني.

قال خضر في أسى:

- كيف خانتك يا سيدي وهي من أنقذت حياتك؟ كل ما فعلته المسكينة هي محاولتها تهريب السيدة كاثرين كي تنقذ روحك كذلك.

صوت تحطيم بالمكان، مما دفع هبة إلى أن تتقدم وترى المشهد. خضر دامع العينين، ولكنه يقف بثبات متحديًا ألبرت، الذي تبدل شكله الهادئ ليصبح كالثور الهائج، وفي نهاية الغرفة تجلس السيدة هيلين ترتعش خوفًا في مكانها مع كل شيء يتحطم حولها.

- أحذرك يا خضر! أنا لن أتوانى عن تقديم أي منكم للمنزل.

قال خضر وقد انسابت على وجنتيه الدموع:

- هل نحن مجرد أشياء لك؟ هذا لا يرضي الله.

- هه.. الله! إنه في السماء يا خضر.

ارتعد خضر متراجعًا للخلف:

- استغفر الله يا ولدي وإلا لحق بك بطشه.

مسح ألبرت جبينه ثم جلس على الأريكة بجانب أمه قائلًا بسخرية:

- أريد كأس نبيذ. كلا، ليس منك، أريد أن تقدمه بتول لي.

نظر خضر إلى هيلين يستجديها لعلها تكبح ولدها، ولكنها أشاحت بوجهها بعيدًا. خرج خضر مسرعًا، فتراجعت هبة خوفًا من أن يراها، ثم ما لبثت أن تتبعته حتى وصل إلى إحدى الغرف. طرق الباب ثم دخل. أسرعت خلفه.. خضر لم يرها؛ إذن هي فقط تشاهد ذكرى من ذكريات المنزل، ذكرى تقول إن بتول أنقذت حياة ألبرت؛ إذن ألبرت لم يمت متأثرًا بجراحه. وكاثرين، ما قصتها الحقيقية؟

قطع حبل أفكارها السيد بوركهارد قائلًا:

- سأتحدث معه.

- عفوًا يا سيدي، لقد وعدتني بالتحدث معه أكثر من مرة.

لاحظت هبة النبرة المتحدية التي يتحدث بها خضر، تلك النبرة التي جاءت بعد كثير من الوعود المحبطة.

- حسنًا يا خضر سأتحدث معه اليوم، لا تقلق، ألبرت يحبك. لقد أساء التصرف فيما يخص الفتاة، واعتذر بعدها كثيرًا.

- اعتذر! سيدي، الفتاة فقدت حياتها.

قال السيد بوركهارد غاضبًا:

- أي حياة تتحدث عنها؟ تلك الفتاة كانت ستعيش وتموت كخادمة هنا في القصر، الآن ستعيش شابة طوال حياتها، ما السيئ في ذلك؟

تراجع خضر مصعوقًا:

- لم أكن أتحدث عن بتول، بل عن الآنسة كاثرين، لكن.. الآن أرى ما المشكلة. ظننت أن تلك العائلة تحمل بعضًا من الإنسانية، ولكن كنت مخطئًا.

أسرع خضر خارجًا من الغرفة، خلفه السيد بوركهارد صارخًا. الشيء العجيب حقًا أنه لم يكن يصرخ غضبًا، بل يستجدي خضر كي يتوقف ويسمعه.

مكثت هبة في أحد الأركان وهي تفكر. هل المنزل يحاول توجيه رسالة إليها؟ تراجعت لما اقترب منها السيد بوركهارد، لتصطدم بجسد خلفها. صرخت وسقطت أمام السيد بوركهارد، الذي أكمل سعيه وكأنها غير موجودة. التفتت سريعًا لترى وجه الفتاة ذات البشرة السمراء؛ إنها بتول، اللعنة!

مدت بتول يدها لتساعدها على الوقوف. شعرت هبة بأناملها الدافئة على ذراعها.

- أنت بتول، أليس كذلك؟

هزت بتول رأسها في أسى، ثم أكملت طريقها، فأسرعت هبة خلفها:

- أنت ترينني، أليس كذلك؟

ابتسمت بتول ثم تابعت طريقها.

- ولكن كيف؟ أنت الوحيدة بالمنزل التي يمكنها رؤيتي.

توقفت بتول عن السير والتفتت إليها:

- لا يرى الموتى إلا الموتى.

تسمرت في مكانها لبضع لحظات، ثم أسرعت خلفها؛ ففي رأسها مئة سؤال تريد لهم مئة إجابة وافية. تعمقت بتول داخل المنزل، وخلفها هبة، حتى وصلتا إلى قبو المنزل. بضع درجات هبطتها حتى تذكرت رحلتها مع السيدة هيلين والفتاة التي رأتها تذبح كأضحية للمنزل. خطت بتول داخل المكان، والتفتت لتهبط بضع درجات، ثم توقفت لتتخفى خلف عمود. تقدمت هبة لترى المشهد؛ خضر واقف في منتصف القبو، أمامه الآلة التي تحمل المنزل، تلك الآلة التي يوضع بها الضيف وهو على شفا الموت لتسقطه في دورة خاصة من أيامه الأخيرة التي تتكرر إلى ما لا نهاية، وقت مسروق من حياته يقضي به ما تبقى من عمره.

اقتربت أكثر غير عابئة بوجود خضر، فالآلة تختلف عما هي في زمنها؛ أكبر حجمًا، أكثر وضوحًا، مع لونها النحاسي البراق، وتلك الحلقة المضيئة بلون النار في المنتصف تتوهج وتتحرك وكأن لها مشاعر خاصة تبوح بها لها.

قال خضر متحدثًا مع الآلة:

- وما مصير سكان المنزل إن حدث هذا؟

اضطربت حلقة النار، وبدأت بالتشكل بأشكال مبهمة. هز خضر رأسه في أسى:

- لم أكن أريد تلك النهاية لأحد، ولكن ما باليد حيلة، يجب أن يعاقبوا.

قال تلك الكلمات ثم توجه خارج القبو. تراجعت هبة، ثم صعدت الدرج لتسمع بتول.

- عمي، من فضلك، لا تفعلها من أجلي، أعني.. أنا أسامحه.

قطب خضر جبينه:

- إن ترك العقاب للضحية عاثت الأرض فسادًا، أنا رب هذا المنزل، وأنا من يقرر العقاب لكل مخطئ.

أسرع في الخروج، فأمسكت هبة ببتول:

- ماذا سيفعل؟ ما الذي يفهمه الجميع إلا أنا؟ وما الذي قالته الآلة؟ وبأي لغة تحدثت؟

مسحت بتول دموعها:

- لا أعلم، أنا أعرف فقط أن خالي خضر لا ينوي خيرًا لألبرت.

أحست هبة بمشاعر بتول لألبرت:

- الآلة، ما الذي تحرك بها توًّا؟

- السيدة هيلين حبست ملكًا من ملوك الجن بداخلها.

- جن؟ هذا غير ممكن.

ابتسمت بتول:

- أنا وأنت ميتتان، وما زلنا نقف هنا نتحدث، فأي ممكن هذا؟

نزعت بتول يدها، ثم خرجت مسرعة وتركت هبة في دوامة أكبر من الأسئلة. كيف يكون خضر هو حاكم المنزل؟ ولم يخشاه السيد بوركهارد؟ ألم يرث خضر المنزل بعد وفاة العائلة؟ رفعت هبة رأسها وكأنها تتحدث إلى المنزل:

- أنا لا أفهم، أريد المزيد.

قالتها ثم توجهت إلى باب القبو، لكن تلك المرة لا تريد العودة إلى زمنها، بل المزيد من التوضيح. فتحت الباب، ثم وقفت تتطلع إلى البهو. لم يتغير شيء. تراجعت لتسمع أصواتًا من خلفها؛ إذن الذكرى القادمة في القبو! تقدمت لترى المشهد الغريب. الأسرة كلها تقف أمام الآلة الغريبة، وتحت أقدامهم رسمت نجمة خماسية. اقتربت أكثر لترى بوضوح، ففوجئت بوجود خضر، وكذلك بتول.

- سيدتي، أنا...

رفعت هيلين يديها لتوقفه:

- خضر، لقد طلب مني تلك الأسماء. جميعنا سواسية هنا؛ من سيختاره المنزل سيكون مالكه وحاكمه.

قال خضر هامسًا:

- ولكن لا يصح.. سيدتي، السيد بوركهارد هنا.

ابتسم ألبرت لخضر:

- السيد بوركهارد يسمعك بوضوح، وكما قالت أمي؛ المنزل من سيختار، أليس كذلك؟

قال تلك الكلمات ثم نظر إلى بتول، التي طأطأت رأسها خجلًا، ابتسم هو الآخر. ما تزال ذراعه تلف بالأقمشة البيضاء؛ إذن تلك الذكرى بعد إصابته. ألبرت تم إنقاذه بالفعل، فكيف تحول إلى الكناس؟ ولم الأسرة كلها تقف سعيدة هنا مع خادمة ورئيس الخدم؟ نزعها من أفكارها اضطراب الأضواء، ورياح خفيفة تلوح في المكان. بضع لحظات، ثم الظلام الدامس. أحست هبة بالبرد يجتاحها، ثم صرخت بتول، عندها عادت الأضواء. السيد بوركهارد يحتضن زوجته، وألبرت يقف متصببًا عرقًا بجانب بتول وهي ترتعش خوفًا، أما خضر، فوقف بثبات رافعًا يده أمامه وكأنه يمسك بشيء ما. اقتربوا جميعًا منه، ففتح يده ليظهر مفتاح معدني طويل غريب الشكل أشبه بمستطيل.

تبادلوا النظرات، ثم قفزت بتول في حضن قريبها لتهنئه، وكذلك فعل ألبرت، أما السيد بوركهارد، فابتسم واقفًا في مكانه، ولكن نظرة خوف اعتلت وجه هيلين. تفحصت المكان حولها، ثم حدقت بغضب ناحية هبة، حتى ظنت أنها تراها. تراخت هيلين فجأة، ثم توجهت لتهنئته كذلك.

أسرعت هبة تخرج من القبو، لتقابل البهو الرخامي ثانية. إذن المنزل يحاول شرح المزيد! وقفت تلتقط أنفاسها محاولة تحليل ما رأته توًا، ولكن صوت صراخ جعلها تنتبه. أسرعت إلى مصدر الصوت، فهالها المشهد. بتول على الأرض والدماء تغطيها، وألبرت يقف في أحد الأركان ممسكًا بامرأة ما، امرأة شقراء ذات ملامح أوروبية. هل تلك هي كاثرين؟ المرأة تبكي وتتوسل إليه، ألبرت يبكي أيضًا. قبلها بقوة، ليغرس سكينه في جسدها قائلًا بالإنجليزية:

- There is no difference between a wise man and a fool when they fall in love.

تراجعت هبة إلى الوراء. لقد رأت هذا المشهد من قبل، كلا، لقد شعرت به؛ بجسده المرتعش ممسكًا بها، شفتيه الداميتين تعتصران شفتيها، و.. والألم يجتاح جانبها الأيسر. لم يكن حلمًا، المنزل حاول التحدث معها منذ البداية، ولكنها لم تفهم لغته. اقتحم المشهد خضر صارخًا، وخلفه السيدة هيلين،

فتراجعت هي إلى الوراء. عليها البحث عن أي باب لتعود لعالمها. هرولت في البهو الرخامي حتى وصلت إلى أقرب باب، ثم فتحته ودخلت. التقطت أنفاسها، ثم رفعت رأسها لتجد جدتها تحدق إليها مذهولة:

- هبة، ماذا فعلت؟

***

مدت سوسن بيد مرتعشة كوب العصير إلى هبة، التي تناولته مسرعة وهي تحدق إلى أرضية الغرفة.

- الآن، بكلمات هادئة، ماذا فعلت؟

قطبت هبة جبينها:

- لم أفعل شيئًا، لم موقفك الهجومي هذا؟

تململت سوسن في غضب:

- هيا، أخبريني أو ارحلي، فأنا أريد النوم.

- حسنًا، الأمر وما فيه.. لقد أراني المنزل بضع ذكريات، ذكريات تنفي ما قاله ألبرت.

قصت هبة كل شيء على جدتها. عيناها تتسعان ذهولًا، وأحيانًا تضيقان وكأنها تخبرها: «لقد قلت لك هذا». ولكن ما شكل صدمة على وجه جدتها هو الآلة، أو «جني الآلة» كما أخبرتها بتول.

انتهت هبة أخيرًا من قول كل شيء، ثم نظرت إلى جدتها، التي بدا وكأنها تغرق في عالمها الخاص من الأسئلة.

- جدتي، أنا...

- هبة، توقفي، هل أنت واثقة مما رأيته؟ ربما يخدعك المنزل، أو ألبرت.. أو...

- أظن ألبرت خارج هذه المعادلة، لماذا سيسيء لصورته أمامي؟ والمنزل، لماذا سيخدعني؟ لقد طالبته بالتفسير، وقد فعل. وهل من الممكن أن يزيف الذكريات على أي حال؟

- لقد فعلها الكناس، لقد خدعك بذكريات مزيفة.

- كلا، تذكري معي؛ ألبرت لم يزيف الذكريات، هو فقط زيف تفسيرها لأراه كالملاك.

- ولكن ما معنى ما رأيته؟ أقصد.. ما القصة؟

- لنضع نقاطًا محددة؛ أولًا قصة أننا معاقبون بسبب بتول غير صحيحة. ألبرت لم يمت بعد أن أطلقت عليه كاثرين النار، بل عاش، وكان بصحة جيدة وأيضًا الـ...

- كيف أصبح الكناس إذن؟

- لا أعرف، ربما يكون خضر، نعم.. أظنني فهمت ما حدث. بتول أنقذت ألبرت بطريقة ما، ثم عاد ألبرت وقتلها لأنها حاولت إنقاذ كاثرين من بين يديه وبتـ...

- لم عادت كاثرين؟ أقصد لقد أطلقت النار على الفتى، فلم تعود وتضع حياتها بين يديه؟

- لا أعرف، ولكني أحاول وضع الخطوط العريضة.

- حسنًا، ضعي يا عزيزتي.

لم تفتها اللهجة الساخرة في صوت جدتها، فقالت مبتلعة غضبها:

- حسنًا، كاثرين عادت لسبب ما، وحاول ألبرت قتلها، وعندما وقفت له بتول قتل كلتيهما. الآن نعود لخضر؛ السيدة هيلين قامت بطقوس ما سحرية، ليستقر مفتاح المنزل في يد خضر، ويصبح هو رب المنزل والآمر الناهي.

- ولم تفعل هيلين ذلك؟

- أظنها خدعت، نعم، كانت غاضبة عندما استقر المفتاح في يد خضر؛ نظرت إلي وكأنها تلومني.

- هل استطاعت رؤيتك؟

- كلا، لا أظن ذلك.

- ربما وُجد شيء ما في القبو، ولكنك لم تستطيعي رؤيته.

حكت هبة جبينها:

- أو ربما السيدة هيلين فقط يمكنها رؤيته.

- ولكن ما هو؟

- لا أعرف، ربما كيان ما، لا تنسي بتول وما قالته عن جني في الآلة.

- لا أعرف يا هبة، ولكنك تتحدثين عن فتاة لم تتلقَّ أي تعليم، وتعمل خادمة.

- نعم، أعرف.

- كيف بدت الآلة؟

- ضخمة عما هي عليه الآن، متصلة بسقف المنزل، ويتدلى منها جزء كبير، ثم حلقة بلون النار، وتلك كانت تتحرك وتتفاعل مع حديث خضر، ولكني بالطبع لم أفهم لغتها.

- هناك الكثير من الأشياء التي لا أفهمها. أعني أنها آلة، فلم النجمة الخماسية؟ وطقوس السحر التي تقوم بها هيلين؟ شيء ما غير مفهوم.

- جدتي، أين مذكرات خضر؟

قطبت سوسن جبينها، ثم أسرعت إلى خزانة ملابسها لتخرج منها المذكرة المهترئة. أمسكتها هبة تقلبها في يدها وهي تسب الجد المهمل، الذي لم يحافظ عليها كما ينبغي.

طالعت صفحاتها مرة أخرى، ثم أغلقتها وعلى وجهها أمارات الفشل.

- هل وجدت ما لم يكتشفه أحد من قبلك؟

ابتسمت في تكلف:

- على الأقل أنا أحاول.

قالت سوسن غاضبة:

- وأنا ماذا؟ لم أحاول؟

- لم أقل ذلك، ولكن...

- ولكن ماذا؟

- كم عامًا وأنت تعيشين هنا؟ ولم تحاولي حتى البحث عن أي شيء.

- أنت من تحاولين صنع قصص وهمية لتزيدي من أهميتك.

صدمت هبة من كلام جدتها:

- حقًّا؟ هل هذا رأيك بي؟

- هبة، أنا لا أحاول مضايقتك، ولكن أنت تميلين إلى تحليل كل شيء، بعض الأشياء تؤخذ كما هي. كيف ستغير معرفتي بوجود آلة من عدمه فيما يخص الضيوف؟ ها؟ لا شيء. ولم علي أنا أن أفهم نظرياتك المعقدة مثل «الزمبلك» تلك؟

- تقصدين الزمكان؟

- اخرسي!

هزت هبة رأسها في استسلام، ثم توجهت إلى غرفتها دون أن تنطق، فاليوم طويل بشكل لا يصدق، وجدتها هجومية دائمًا.

***

«أغلقت على نفسها ليومين كاملين، تتناول طعامها وتتبادل بضع كلمات مع محمود بيه ثم تنام، وتستيقظ ليتكرر الأمر».

انتهت فوزية من نقل تلك الكلمات لسيدتها ثم رحلت. حكت سوسن جبهتها، ثم سبت تسرعها وغضبها. ربما كان عليها احتواؤها، أما الآن فإنها تبتعد عنها أكثر وأكثر.

أما على الجهة الأخرى، وضعت هبة بعض النقاط المهمة؛ أولها هي إقامة مراسم لتسلم مفاتيح المنزل بشكل رسمي من جدتها، فخطوتها التالية تحتاج إلى أن تكون هي ربة البيت. أما النقطة الثانية؛ فهي اكتشافها لبعض الثوابت، أولها: الكناس لا يستطيع قراءة أفكارها طوال الوقت، بل إنها جربت التفكير في شيء وطلب شيء معاكس منه، والنتيجة أدهشتها، إذن يمكنها حفظ أسرارها بعيدًا عنه. لا يوجد رابط سحري بينهما، ولكن ألبرت يخطط لشيء ما، وعليها اكتشافه. لتبحث أكثر في موضوع الآلة، هل هي تحمل جنيًّا؟ أم مجرد ذكاء اصطناعي سابق لعصره؟ ولم توجب على أسرة بوركهارد الاستغناء عن مفتاح المنزل لأحدهم؟ ولم مفتاح المنزل بهذه الأهمية من الأساس؟ إنه مجرد مفتاح.

انتهت أخيرًا من صنع قائمة بكل ما تريد فعله، ثم توجهت إلى جدتها، لتكون الليلة هي ليلة تنصيبها كحاكمة للمنزل، وتنهي كل الأمور المعلقة. لكن عليها أولًا البحث عنه؛ ذلك المفتاح غريب الشكل، والأهم عليها أن تعرف ماذا يفتح.

***

- هل تشعر بالإهمال؟

- كلا، أعرف أن الحمل الثقيل فوق كتفيها، أنا فقط أيـ...

توقف محمود عن الحديث، لم يعرف كيف يخرج كلمته الأخيرة، كيف يقولها ولا يقتل رجولته أو يسبب إحراجًا دائمًا؟ لأن أباها أمامه.

قال سليم مفكرًا:

- سأتحدث معها، بعد إذنك بالطبع.

- لا، ستتهمنا بالسطحية والغباء. أتوسل إليك، لنتحدث معها بعد الحفلة.

- حسنًا. ولكن، أنت محق؛ أظن بالها مشغولًا بالكثير من الأشياء. أعني.. لقد ألقت أمامي قنبلة ثم اعتذرت ورحلت دون مناقشتي. تركتني وحيدًا أتعامل مع مشاعر الكره التي أكَنَنْتُها لسامية طوال السنوات الماضية، وغضبي من أمي لأني ظننتها السبب وراء رحيلها.

- آسف، حقًّا.. أنا آسف. أنت لم تستمتع بشبابك كبقيتنا.

تنبه سليم له فقال مازحًا:

- لا تشعر بالأسى علي يا فتى؛ فأنا عشت حياتي كاملة، أحببت، وكرهت، تزوجت، وأنجبت، مت، وعشت. الكثير لا يحظى بحياة كتلك.

قال محمود ضاحكًا:

- نعم، أنت محق. ومن قال إن الحياة هنا مملة؟ دعنا نستكشف المكان بمفردنا.

- بل دعني أكون مرشد جولتك.

***

تنقلت بين الفساتين المعروضة أمامها.. غرفة شاسعة أخرى من الأزياء من كل عصر وزمان، مكان آخر لم تكن تعلم عنه أي شيء. ابتسمت لهدى ثم أشارت إلى فستان، فأسرعت مع خادمتين تحمل فستانًا أزرق بلون البحر. أخرجت هبة ورقة، ثم شطبت شيئًا ما من قائمتها.

ابتسمت وهي تمرر عينيها على قائمتها، لامست البند الأول بأصابعها، ثم رفعت رأسها وأكملت عملية البحث.

غرفة تلو الأخرى، وزمان تلو الآخر، وهي تهرول كالمجنونة. المنزل أشبه بمجلة إعلانات، تقلب الصفحة ثم تقفز إليها لتبحث عن ضالتها؛ المفتاح غريب الشكل.

***

أخذت سوسن نفسًا عميقًا، ثم أكملت وضع مساحيق التجميل على وجهها. لا يمكنها التغاضي عن الطريقة البشعة التي طالبت بها هبة بمفاتيح المنزل. ما المميز في إقامة حفلة؟ تلك سخافات، تتذكر كيف ورثت المنزل عن أبيها؛ تجول معها لبضع مرات في المنزل، عرفها بضيوفه المميزين، ثم وضع في يدها مفتاح الباب الرئيسي والباب الخلفي في المطبخ، ثم رحل. لم يكن الأمر معقدًا، ولم يستهلكها في شرح نظريات معقدة، ومؤامرات أجنبية قديمة قدم الأهرامات. أما معها، فكل شيء معقد، وكل شيء يحتمل أكثر من تأويل.

- عليها اللعنة!

صرخت سوسن بصوت مرتفع حتى ظنت أن المنزل اهتز، ثم عادت تستجمع رباطة جأشها. ربما ما تشعر به هو الغيرة، الغيرة من تلك الفتاة، التي أخذت منها كل شيء.

- لتخجلي من نفسك، أتغارين من حفيدتك؟

قالتها سوسن لانعكاسها في المرآة، ولكنها فكرت أن غيرتها منطقية؛ فمن منا لا تغار عندما تشعر أن مكانها سيمتلئ بفتاة أصغر وأجمل وأذكى؟ من منا يمكنها إنكار ذلك التهديد؟ إنها ليست دائمة، حتى وإن كان مكانًا بسيطًا. اللعنة، المنزل ليس مكانًا بسيطًا؛ فهنا هي ملكة متوجة، ملكة توشك على التنازل عن عرشها.

هبطت سوسن الدرج تتوقع وجود الجميع، ولكنها وحيدة. فيما مضى جميع الخادمات كن يركضن خلفها، أما الآن فلا شيء. لمحت فوزية قادمة من بعيد، فاطمأن قلبها قليلًا أن إحداهن ما تزال تحمل بعض الوفاء بداخلها. مضى شريط حياتها أمامها وهي تجلس منتظرة ظهور حفيدتها. هل عاملت الجميع بطريقة جيدة؟ أم كانت لئيمة مع الضعيف؟ هل يحبها أحد ما؟ وهل سيشتاقون لها؟ حياتها أشبه برحلة، رحلة فقدت فيها ابنها وحفيدتها، رحلة فقدت فيها زوجها. تمنت لو عاد الزمن للوراء لتختار شيئًا آخر، أو ربما لتقلق أقل وتستمتع أكثر. ربما عليها التوقف عن التفكير في كل هذا وتأدية مهمتها للنهاية، ثم الخروج من فوهة الجحيم تلك. كل تلك الأسئلة دارت في رأسها وهي تتطلع إلى الدرج تنتظر نزول حفيدتها.

دقت ساعة الحائط لتعلن وصول هبة. فستانها الأزرق البسيط، وزوجها الوسيم، وتلك الحلية غريبة الشكل التي تزين عنقها؛ أشبه بمفتاح غريب مستطيل الشكل، معلق بسلسلة فضية صغيرة؛ بنات اليوم وما يرتدينه من أشياء غير مفهومة. بدأت المراسم -كما تطلق عليها حفيدتها- طاولة عملاقة في بداية الغرفة، وخلفها مجموعة من المقاعد المصطفة على الجانبين. أشبه بزفاف، وليس مراسم تسلم مفتاح صدئ. فكرت سوسن في ذلك وهي تتطلع إلى الجمع.. الجميع متأهب. وقفت هبة وقالت بضع كلمات عن بداية عصر جديد، وعن مهام جديدة للمنزل ولسكانه، وخدمات إضافية لراحة الضيوف. حذرت من التساهل، وتوعدت بالعقاب للمقصرين. بضع كلمات أخرى عن سعادتها، ثم جلست تنظر إلى جدتها.

ماذا تريد تلك الحمقاء مني؟ التحدث وإخراج مشاعري كالبلهاء؟ كلا، ستحلمين بذلك يا فتاة، ولكني سأقول بضع كلمات.

وقفت سوسن ونظرت إلى القاعة أمامها، ثم قالت:

- اليوم مميز؛ ليس لأني سأرحل فيه، ولكن لأن الطريقة القديمة ترحل معي. ليتابع الجميع أعماله، وليخضع الجميع لهبة.. عفوًا، لهبة هانم.

ألقت سوسن تلك الكلمات، ثم توجهت إليها. قبلت رأسها، ثم وضعت في يدها مفاتيح المنزل ورحلت.

***

ألقت هبة بجسدها على السرير، لم تكن قادرة على التحرك. يوم طويل ومرهق، وهي سعيدة أنه انتهى أخيرًا. يمكنها الآن إكمال خطتها. انتبهت لمحمود الذي يتسلق جسدها، ثم ألقى بجسده الضخم عليها. لم تكن رائقة المزاج لتستمتع بزوجها، لذلك قالت:

- محمود، لا تثق في الكناس.

توقف محمود عما يفعله:

- لم أفعل يومًا، أنت من وثقت به، وظننت أنه ملاك.

أبعدت جسده متوجهة إلى دورة المياه. أمضت بعض الوقت، ثم خرجت لتجده ممددًا على الفراش يستعد للنوم. إذن فهم الرسالة؛ هي لا تريده. شعرت بالذنب قليلًا، ولكنها متعبة.

أدخلت جسدها بين طبقات الفراش، وتطلعت إلى السقف وهي ممددة على ظهرها تعبث بالمفتاح الذي وجدته أخيرًا؛ مفتاح ضاع بين طيات الزمن، مفتاح تحتاج إلى أن تجد له قفلًا يفتحه. اقترب محمود منها، ثم وضع رأسه على صدرها:

- لا تقلقي، لن أفعل شيئًا، أنا أشعر بالبرد فقط.

داعبت رأسه في حنان ثم قبلته. لم تكن تقصد أن تكون جافة المشاعر، هي فقط متعبة. نظر إليها، ثم قبل شفتيها. احتضنها بقوة، فعادت المشاعر لتغمرها.

- أنا آسفة، لم أقصـــ...

- لا أشعر بحبك، خاصة الفترة الماضية.

- آسفة، كنت مشغولة.

- كنت بعيدة. لا أريد التحول إلى زوج فراش فقط. هبة، أريد أن أكون صديقك كذلك، أريد سماع أفكارك، وأن أكون شريكك.

- أخشى أن يسمع شخص آخر أفكاري.

- إنه ليس خارقًا، يمكننا التغلب عليه.

تسللت الدموع من عينيها، فعاد ليحتضنها بقوة.

الفصل الخامس

ألبرت - الكناس

- لا أصدق هذا، أأنت بالفعل راحلة؟

قالت سوسن وهي تضع المزيد من ملابسها في الحقيبة:

- ظننتك تعرفين هذا؛ لا يأتي حاكم للمنزل حتى يرحل السابق.
- ولكن، أنا ما زلت أحتاج إليك. أعني.. أمامك الكثير لتعلميه لي.
- كلا يا صغيرتي، لقد تعلمت منك الكثير.

انفجرت هبة في البكاء، مما جعل سوسن تشفق عليها. ظنتها تتحين الوقت حتى ترحل، ولكنها في الحقيقة.. حسنًا، إنها مسكينة.

***

توقفت سيارة عتيقة الطراز أمام المنزل، مترجلًا منها رجل مسن منحني الظهر.

فوزية: «السيارة جاهزة يا سيدتي».

ألقت سوسن نظرة أخيرة على المنزل، ثم احتضنت هبة الباكية:

- أظهري القوة يا فتاة! محمود، لا تتركها أبدًا، إنها غبية، ولا تستطيع إدارة شئون المنزل بمفردها.

ضحكت هبة من وسط دموعها:

- جدتي، أرجوكِ.. أنــ...

- هبة، أنا أحبك. ربما لم أقلها لك من قبل، ولكنك فتاة جيدة. سامية أدت مهمتها ببراعة، أدتها أفضل مني.

اقترب سليم منها واحتضنها بقوة:

- سأشتاق إليك.

ربتت سوسن على رأسه:

- أحبك، أنت تعرف هذا.

هز سليم رأسه باكيًا ليحتضنها ثانية. اقتربت هبة منها وقبلت يدها، ثم تقدمت فوزية لتودع سيدتها للمرة الأخيرة. ابتسمت سوسن للجميع، ثم خرجت من المنزل لتقطع الحديقة الأمامية. فكرت في أنها الوريثة الوحيدة التي خرجت من المنزل حية؛ ذلك إنجاز لا بأس به. قطع زغلول الجنائني طريقها مقبلًا يدها، فربتت على رأسه برفق، ثم دلفت إلى السيارة.

بكت هبة مرة أخرى، فأسرع محمود ليحتضنها ويحملها إلى غرفتهما.

***

رتبت فوزية أفكارها؛ لا تريد إظهار التردد كما فعلت مع سوسن هانم، عليها الإصرار على موقفها، هبة لينة بعض الشيء، وربما تتفهم وجهة نظرها.

طرقت برفق على باب الغرفة، ثم سمعت صوتها يسمح لها بالدخول.

فتحت الباب برفق، ثم شعرت بالضيق عندما وقعت عينها على محمود، فهي لم تشأ التحدث أمامه.

قالت هبة قاطعة حبل أفكارها:

- فوزية، ما الأمر؟

- كنت أود التحدث معك.

نظرت هبة حولها:

- لتتحدثي إذن!

نظرت فوزية إلى محمود لعلها تفهم الرسالة، ولكن هبة حدقت إلى وجهها. إذن ليكن الأمر كذلك. اقتربت لتجلس أمامها:

- أنا استأذنت سوسن هانم قبل رحيلها، وكنت أود فتح الموضوع من قبل، ولكن.. أنا...

- فقط تحدثي بما تريدينه.

- آسفة. عشت طويلًا في هذا المنزل، عاصرت السنوات الأخيرة لفؤاد بيه، ثم عشت مع جمال أفندي أفضل سنوات عمري، حتى أكملت الطريق مع سوسن هانم، والآن أنا...

- تودين الرحيل، أليس كذلك؟

خفق قلبها بسرعة وهي تقول:

- سوسن هانم أخبرتك؟

- كلا، ولكن أنا دومًا شعرت بحزنك، كأنك لا تنتمين إلى هذا المكان.

ابتسمت فوزية:

- كنت أتحين الوقت المناسب. أعني.. أنا أعرف كم أنت حزينة على رحيل سوسن هانم، ولكن مر أسبوعان الآن، و...

- لا تقلقي، رتبي أمورك ويمكنني أن... في الحقيقة أشعر أن آخر جزء من جدتي سيرحل معك، لكنها رغبتك، وأنا أحترم ذلك.

- شكرًا لك سيدتي.

قالتها وهي تحني رأسها بأدب لهبة، ثم لمحمود الذي جلس يراقب المشهد صامتًا، ثم غادرت الغرفة.

ربت محمود على كتف هبة، ثم انحنى ليهمس:

- الآن أنا خائف منك.

ابتسمت له:

- لا داعي للخوف، أنا أعرف أكثر منك ليس إلا.

- ولكن رغم كل شيء أرفع القبعة احترامًا لك.

- ادع الله معي أن تنجح الخطة.

- ستنجح إن شاء الله. و... شكرًا لمشاركتي أفكارك.

ابتسمت له، فطبع قبلة على عنقها، ثم عاد ليجلس مكانه. يمكنها الاستفادة منه؛ لقد أثبت جدارته، فبعد تلك الليلة قررت مشاركته بكل ما رأته من ذكريات المنزل، ثم أطلعته على المفتاح غريب الشكل، فظل يبحث معها حتى وجدا الأجوبة. المفتاح للآلة الغريبة في قبو المنزل، الآلة التي تتحكم في كل شيء هنا. وضعت هبة المفتاح، ثم تحركت دائرة النار، ولأول مرة منذ خضر، تكلمت الآلة لتخبرها بجملة واحدة.

«للروح طاقة لا تنضب أبدًا».

لم تقلها بكلمات مفهومة، ولكن حركة دائرية مضطربة، تسمعها وتفهمها بوضوح. استغرق محمود وقتًا حتى صدق أن تلك الارتعاشات هي لغة، واستغرق وقتًا أطول لتشرح له أن تلك الجملة لها دلالة، وكأنها أوامر خفية تبثها الآلة في عقلها بعيدًا عن أنظار ألبرت، المختفي منذ فترة الآن.

ربما لا يصدق تفسيرها الملتوي، ولكن للروح طاقة، وهي تحتاج إلى تلك الطاقة لتطبق العدالة.

***

- ألن تودعي أحدًا؟

- كلا، أفضل الرحيل في صمت.

- ألا تحتاجين إلى شيء آخر يمكنني فعله لـ...

- شكرًا لك. أنا تحدثت مع هدى، وأعطيتها مفاتيح المنزل كذلك.

- حقًّا؟ توجد مفاتيح أخرى للمنزل معك؟

- نعم، بالطبع، مفاتيح غرف المنزل كلها، والمخزن، ليس الباب الأمامي والخلفي فقط.

- لم أكن أعرف ذلك. ولكن هل يمكنني سؤالك عن شيء؟

- بالطبع، تفضلي.

- لماذا لم تفعليها منذ وقت طويل؟ أعني.. أنا أعرف بمأساتك، ولكن لمَ لم تضغطي على جدتي وترحلي؟

- رفضت رفضًا قاطعًا.

- أعلم، ولكن لماذا؟

- من الصعب إيجاد خادمات في هذا العصر. أنت تعلمين كيف العالم في الخارج، كما إن لكل خادمة هنا قصة تتشابك خيوطها مع سيدها. رأت سوسن هانم أننا ككتب التاريخ القديمة؛ لن نستخدم، ومع ذلك لا يمكنها التفريط في أي منا.

ابتسمت هبة وهي تفتح باب المطبخ ليدلفن:

- أنتن أكثر من مجرد كتب تاريخ؛ لقد رأيتن الكثير، ولديكن معرفة هائلة، والمعرفة الآن تثمن، كما إن الحقيقة كجوهرة نادرة، مهما بحثت عنها فلن تجديها.

اقتربت هدى لتقف بجانبهما:

- أريد البقاء للنهاية، أريد أن أكون شجاعة مثلك، فيومًا ما ربما أفكر في الرحيل.

ابتسمت فوزية وهزت رأسها:

- حسنًا، أود الرحيل الآن، فأين سنفعلها؟

هبة: «اتبعيني إلى القبو».

تحركت الثلاث نساء باتجاه القبو، ثم دلفن إلى القاعة السفلى، التي تقبع بها الآلة. وقف محمود في انتظارهن وفي يده ذلك المفتاح غريب الشكل، والذي اعتادت هبة وضعه كحلية حول عنقها في الآونة الأخيرة.

تطلعت فوزية إلى الآلة العملاقة:

- أعرف أنك تريدين الابتعاد عن باقي سكان المنزل كي لا يسمعوا صراخي. ولكن هنا... أعني.. المكان موحش قليلًا.

قالت فوزية تلك الكلمات وهي تحدق إلى الحوائط السوداء المتسخة.

قطبت هبة جبينها:

- ولم ستصرخين؟ أعني؛ لا أظن الأمر مؤلمًا.

ابتسمت فوزية:

- أنت لم تري الكناس وهو يعمل.

ارتبكت هبة ونظرت إلى محمود:

- وما دخل الكناس فيما نفعله؟

تبادلت فوزية وهدى النظرات، ثم تقدمت الأخيرة:

- سيدتي، لا بد وأن سوسن هانم أخبرتك؛ من يريد الرحيل نطعم روحه وجسده للكناس.

قالت هبة بحزم:

- لا، تلك طريقتهم القديمة.

قالت تلك الكلمات، ثم تقدمت لتمسك بيد فوزية:

- انظري، تلك الآلة ستحمل روحك وجسدك لوقت وفاتك الحقيقي؛ الأمور ليست بها سحر أو أي شيء، مجرد آلة ستحمل جسدك، وستنطلق روحك إلى خالقها.

تراجعت فوزية:

- ولـ.. ولكن.. أنا لم أعرف بـ...

محمود: «لم يعرف أحد من قبل تلك الحقيقة، ولكن الآن فهمنا كل شيء».

- لا أعلم. أعني.. ربما أريد الكناس لينهي حيـ..

قال محمود مسرعا:

- هذا ما يفعله الكناس. في النهاية ماذا ستخسرين؟ ها؟ لتجربي!

أسرعت هبة لتمسك بيدها وتسحبها خلفها حتى وصلت إلى الآلة، ثم ساعدتها على الصعود:

- الآن!

قالتها لمحمود، الذي تحرك ووضع المفتاح في الآلة، ثم أداره ناحية اليسار. أصدرت الآلة صوتًا غريبًا وكأنها وحش كاسر قرروا إيقاظه من سبات طويل. تحركت الآلة، ثم بدأت الدائرة المعدنية حول جسد فوزية في الدوران.. بضع ثوانٍ ثم اختفى جسدها مخلفًا خلفه شرارة كهربائية غريبة الشكل.

نظرت هدى حولها وصرخت في وجه محمود:

- إلى أين ذهبت؟

هم محمود بالحديث، ولكن الآلة تحركت مرة أخرى، ليظهر جسد فوزية. أوقف محمود الآلة نازعًا المفتاح من مكانه، ثم توجهوا جميعًا إليها.

- هل هي...؟ يا إلهي!

- اهدئي يا هدى! محمود، هل هي ميتة؟

هز محمود رأسه، ثم حمل جثتها وأراحها على أرضية القبو.

- ماذا سنفعل الآن؟

- سندفن الجثمان بالطبع. هدى، هل تعلم إحداكن كيفية تغسيل الجثمان؟

أفاقت هدى من شرودها قائلة:

- يمكنني السؤال، ولكن أين سندفنها؟

***

استغرق محمود بعض الوقت حتى استطاع تنظيف يديه من آثار الطين؛ حيث دفن جسد فوزية بمساعدة واحد من الخدم. ارتعش جسده وهو يتذكر لحظات الدفن، وتساءل عن شكل حياته بالمنزل، وهل ستكون تلك مهمته؟ دفن الجثث؟ قطعت هبة أفكاره وهي تتحدث. لم يفهم ما قالته، ولكنه يعرف أن وقت الانتقام قد حان.

شمرت ذراعيها ووقفت في منتصف البهو بعدما أيقظت المنزل بأكمله، حتى ألبرت وقف على مقربة منها متسائلًا عما سيحدث. أخذت نفسًا عميقًا، ثم أغمضت عينيها بضع لحظات، ثم فتح الباب الأمامي للمنزل.

هبة: «أهلًا وسهلًا، خواجة بنيامين!»

ساد الهرج والمرج في المنزل، فرفعت هبة يديها ليهدأ الجميع:

- تفضل بالدخول.

تحسس الخواجة طريقه في خوف، ثم قال مبتسمًا:

- «مدموزيل» هبة!

- هبة هانم الآن.

اتسعت عيناه بطريقة درامية مبالغ فيها:

- سوسن هانم، مات...

- الخلود ليس من صفات البشر، ولكن.. أنت نوعًا ما كنت خالدًا.

ابتسم الخواجة بطريقته الكريهة، ثم تطلع إلى الجميع:

- وهل هذا الجمع من أجلي؟

ابتسمت هبة بدورها:

- بل من أجلي.

ثم رفعت يدها، ليتحول نهار المنزل إلى ليل مطبق. الشمس ساطعة في الخارج، ولكن داخل المنزل، الظلام البارد أخذ في الانتشار.

ارتعش الجميع وهو يسمع صوت صرخات مدوية في المنزل، بالتحديد صرخات فتاة ما، ثم تلاها صوت رجل، يستنجد بلغة أقرب إلى الفرنسية. صرخات متقطعة من امرأة، ثم تداخلت الأصوات. الجميع يرتعش خوفًا، إلا هي، واقفة في ثبات تحسد عليه، في منتصف البهو تنظر إلى بنيامين، وعلى شفتيها شبح ابتسامة.

- هه، أنت ذكية.

- شكرًا يا خواجة، لكن علينا رفع القبعة لذكائك أنت.

ضحك الخواجة، ثم توقف وعلى وجهه ظهرت القسوة:

- حسنًا، ما التالي؟

أخرجت هبة ورقة مصفرة قديمة لتتلو منها شيئًا ما بلغة غير مفهومة. ظهرت أمارات التعجب على الخواجة، ثم نظر حوله صارخًا في خوف. حاول الفرار، ولكن شيئًا ما حمل جسده السمين ثم قذفه إلى السقف، ليتركه يسقط على أرضية البهو. حمله مرة أخرى مع صرخاته المتعبة، ليمزق جسده. تبادل الجميع النظرات وتساءلوا عما يحدث، فاقترب منها محمود. ففهمت على الفور؛ هي وحدها من تستطيع رؤيته، هي وحدها من تستطيع رؤية الظلام الذي يمزق جثة الخواجة، أو ما تبقى من روحه النتنة. ألقت نظرة سريعة على ألبرت، فوجدته يحاول الظهور بمظهر الشجاع، ولكنه لا يستطيع إخفاء الخوف في عينيه. لم يكن يعرف أنها ستكتشف يومًا ما سبب قوة بنيامين وظهوره المتكرر. لقد حلت اللغز، وانتقمت لموت والدها وموتها.

***

«الخواجة بنيامين، أو رجل الأعمال شكري. لا يُعلم بالضبط أين ولد، ولكن ذاع صيته بسبب تجارته إبان الحرب العالمية الثانية. بالطبع لم يكن مصري الجنسية، ولكنه يتحدث العربية، بطلاقة أحيانًا، وأحيانًا أخرى يلوي لسانه ليتحدث كالأجانب. نعرف بالطبع قصة زواجه من سارة، وقصة دخولها المنزل، لكن ما لم نكن نعرفه هو هوس الخواجة بالمنزل بعد أن عرف به. الخلود الذي طالما داعب مخيلته أصبح أمامه الآن، ولكن بسبب الغبية سارة لا يستطيع تحقيقه، جمال لن يسمح له. بالطبع كأي رجل ذكي حاول جمع معلومات عن المنزل، حتى إنه سافر إلى إنجلترا، وأجرى مقابلات مع أقرباء هيلين والخواجة بوركهارد، وشطح بعيدًا عندما دفع العائلتين للقدوم إلى مصر والمطالبة بمنزلهما. ولكن بالطبع باءت محاولاته بالفشل بسبب الوضع السياسي المضطرب بين مصر والمملكة المتحدة في هذا الوقت. ولكنه فعل أشياء خبيثة أخرى؛ فقد استغل مرض صديقه الفرنسي فرنسيس، ودفع له المال ليأتي ويموت في المنزل، ليكون له عميل في الداخل ينقل له كل شيء. ومن باب سداد الدين قام فرنسيس بعمله على أكمل وجه، فسرق كل الوثائق والمذكرات الخاصة بحكام المنزل السابقين؛ ولذلك صعب علينا فهم أي من قوانين المنزل. لم يتبقَّ إلا مذكرة قديمة ومهترئة تخص جدنا الأكبر خضر. بالطبع لم يكتفِ الخواجة بصديقه، بل دفع لامرأة إنجليزية من الغجر تمتهن السحر للقدوم إلى المنزل، وهي من ساعدته. عن طريق الوثائق والمذكرات التي سرقها استطاعت المرأة نسخ سحر مطابق لسحر هيلين، لكنها ألقته في حديقة المنزل، وبالتالي مكنته من الظهور كلما أراد، ليقرر بعدها الانتحار هو وخادمه وإفساد الحياة علينا جميعًا. كل هذا حدث ولم يعلم أحد من حكام المنزل بتلك الخيانات؛ خيانات جاءت من داخل المنزل وخارجه. لكن كما قلت من قبل؛ تلك بداية لنهاية عصر».

أنهت هبة حديثها، ثم تجرعت ما تبقى من كأسها وتطلعت إلى وجوه الخدم. تبادل الجميع النظرات، وترددت هدى، فأشارت إليها لتتحدث.

- عفوًا هبة هانم، ولكن كيف يحدث كل هذا ولم نعلم عنه شيئًا؟ أقصد.. ألم يشعر المنزل؟ أليس من المفترض أننا نفهم مشاعره؟ والعكس صحيح؟

زفرت هبة بقوة:

- أولًا: لم يخل أي من أصدقاء الخواجة بقوانين المنزل؛ إنهم ضيوف كأي ضيوف. أما بالنسبة للمشاعر، أعلن المنزل رفضه للكثير من الأشخاص. البعض منكم يشعر برعشة عند دخول شخص ما لأول مرة، البعض يفسرها كشيء سلبي، والبعض يفسرها كنوع من أنواع الترحيب.. لذلك...

- والكناس؟

قالتها إحدى الخادمات وهي ترتعش. تطلعت هبة إلى وجهها وعلى شفتيها ابتسامة:

- حسنًا، ليباشر الجميع أعماله.

تحرك الجميع، ولكن هدى لم تتحرك، لقد اقتربت من سيدتها وسحبتها من ذراعها:

- هبة هانم، أنا لا أفهم حقًّا. إن كان المنزل كما قلت مجرد آلة، والكناس لم يفترس روح بنيامين، من هاجمه إذن؟

- المنزل.

قالت هدى صارخة:

- كيف؟ لقد قلت توًّا...

مكتبة
t.me/soramnqraa

ضغطت هبة على يدها:

- المنزل له روح هو الآخر، أو ربما السحر الذي وضعته هيلين. لقد وعدني ما إن أعود لأفي بالوعود القديمة، وأضع روحًا في الآلة حتى يعطيني القوة لأنتقم، وأنا اخترت الانتقام بروح سوداء باردة، تنشر الخوف أينما ذهبت، روح تشبه كثيرًا روح بنيامين النتنة.

- ماذا تقصدين بالوفاء بالوعود القديمة؟

ترددت هبة. هل تخبرها أم لا؟ ثم قررت:

- حسنًا، كل ضيف جاء إلى المنزل هنا لا بد وأن يعود. لا شيء يدعى الغرف المظلمة أو بئرًا نلقي فيها كل من بهتت روحه. الجميع لا بد وأن يعود يومًا ما للآلة.

قالت هبة تلك الكلمات ثم أسرعت خلف زوجها. نظرت هدى حولها، ولأول مرة شعرت بالخوف والقلق. تتذكر دخولها الأول لهذا المكان، ولكنها لا تتذكر الآلة أو الكناس أو أي شيء آخر.

***

أنزلت رأسها أسفل الماء. شيء ما يثير في روحها الرهبة والخشوع أسفل الماء؛ فكل شيء هادئ وساكن، ضجيج البشر يختفي، حتى ضجيج أفكارها. شعرت بشخص خلفها، فالتفتت لتجد زوجها. رفعت رأسها:

- ما رأيك بالمكان؟

تفحص محمود المكان. شاطئ من الشجر الاستوائي، وشلال من المياه الدافئة يقذف الماء من فوقهما على بعد أمتار قليلة.

- لا أعلم، لم أتخيله بتلك الطريقة.

- كيف تخيلته إذن؟

- لا أعلم، أكبر حجمًا، أكثر خضرة.

اقتربت لتطبع قبلة على شفتيه:

- حسنًا، لنناقش تخيلاتك في يوم آخر.

قالت تلك الكلمات ثم أسرعت تخرج من المياه، ليلمع جسدها العاري أسفل ضوء الشمس. ابتسم محمود بدوره، ثم أسرع خلف زوجته ليحتضنها ويتمدد فوق جسدها. مر بعض الوقت حتى انتهى، واستلقى بجانبها يراقب السماء.

- هل تظن أن تلك هي النهاية؟

تطلع إلى جسدها العاري بجانبه، وتذكر كم كانت خجولة في بداية زواجهما:

- يمكنني فعلها مرة أخرى.

قطبت جبينها، ثم فهمت ما يقصده، فضحكت وجذبت المنشفة على جسدها:

- أتحدث معك بجدية؛ هل تلك هي نهاية بنيامين؟ أقصد الرجل الذي قتلني أنا وأبي. هل نهايته بتلك البساطة؟

تسللت دموعها، فأسرع ليحتضنها:

- نعم، تلك هي النهاية، لأننا أذكى، ونطرح الأسئلة الصحيحة.

- أو ربما نسقط لأننا مغرورون.

- انظري إلى ما نستطيع فعله، الغرور حق من حقوقنا.

- محمود، احذر، نحن لسنا بتلك القوة، فلا يتملكك الغرور الكاذب.

- ولكن، نحن...

جلست لتواجهه ممسكة بالمنشفة لتغطي صدرها:

- محمود، أنا لم أخبرك يومًا، لكن أنت تعرف بأني أحبك. أعني.. لا أريدك أن تعود بالذاكرة يومًا ما وتظن أني اتخذتك زوجًا لأنه لا يوجد غيرك أمامي.

اقترب منها محمود:

- أنا لن أفكر في هذا أبدًا. أعرف أنك تحبينني، أشعر بذلك كلما تحدثت معي، وكلما أطلعتني على أفكارك، شيء لم تكوني تفعلينه مع أحمد.

ابتسمت له وعانقته بقوة:

- علينا أن نكون حذرين في التعامل مع سحر المنزل، لا أريد تحول أحدنا إلى كناس آخر.

توقف محمود عن تقبيلها وألقى بجسده بجانبها:

- ألم يكن جدك خضر السبب في تحويله؟

- نعم، ولكن أريد التأكد من السبب.

***

جففت شعرها، ووضعت على جسدها ما طالته يدها من ملابس متوجهة إلى الباب. فتحته لتسمح لألبرت بالدخول.

- هبة، ما الأمر؟

- ألبرت، لقد حدثتني يومًا عن أنني سننت أحد القوانين بخصوص محمود.

- نعم، ألا يتعرض للأذى أبدًا؛ سواء من المنزل أو من ضيوفه.

- أو منك.

- ولم سأعرض محمود لأذى؟

- لا أقصد، أنا أراجع معك الاتفاق.

- هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم، فقط أخبرني عما أفعله كي يبدأ الجميع في تنفيذ هذا القانون.

- لقد فعلتها توًا، محمود لن يصاب بأذى داخل المنزل.

- حسنًا، جيد. شكرًا لك.

- ولكن هل أنت بخير؟

- نعم، أنا بخير، لم تسألني هذا السؤال؟

- لأنك شعرت بلذة الطاقة. أعني.. هذا ما حاول خضر إخفاءه عن ورثة المنزل، عندما تعمل الآلة فالقوة تذهب إلى حاكم المنزل، وفي هذه الحالة هو أنت ومحمود.

حدقت هبة إلى وجهه وهي تسب الأسرار التي يخفيها الجميع عنها:

- هلا توضح أكثر!

- حسنًا.. عندما أدخلت فوزية إلى الآلة عادت الطاقة للمنزل، جزء من هذه الطاقة يذهب إلى حاكم ووريث المنزل.

- حسنًا، جيد.. إنه شيء جيد، أليس كذلك؟

- بالطبع هذا شيء جيد، لذلك لم تظهر آثار الشيخوخة على حكام المنزل. ولكن ما تفعلينه، لا أستطيع القول إنه خاطئ، ولكن.. احذري!

قالت هبة بتحدٍّ:

- لماذا؟ لأني منعت عنك تلك الطاقة؟

ابتسم ألبرت بدهاء:

- لا تقلقي، يمكنني تناول الطعام من مكان آخر، ولكن أخشى عليك تعود تلك الطاقة.

- وماذا سيحدث إن فعلت؟

- ستبحثين عنها كالمجنونة، ربما حتى تضحين ببعض ضيوف المنزل في سبيل الحصول على المزيد.

- لا تقلق، لن أتحول إليك.

- أخشى أن هذا ليس صحيحًا، أنت تعشقين آدميتك، محمود يحبك لتلك الصفات، وكلما استهلكت الطاقة كلما تبدلت شخصيتك أنت وهو. لذلك، بداعي الصداقة بيننا، أحذرك من فرط استخدام الآلة.

تذكرت هبة نبرة الغرور في حديث زوجها منذ قليل، ولكنها قالت مبتسمة:

- بالطبع تلك التحذيرات تناسب وضعك نوعًا ما.

- أنا أعلم، لقد فقدت ثقتك للأبد، ولكن أنا أستلطفك حقًّا، ولا أنوي أذيتك، لذلك أنا فقط أنبهك لتلك الأمور.

- أنت بالفعل فقدت ثقتي؛ لقد وثقت بك، دافعت عنك أمام جدتي، ولكنك كاذب!

- وإني لأعتذر عن ذلك، لكن ضعي نفسك مكاني، أقابلك لأول مرة فأخبرك بأكثر أفعالي الشائنة؛ قتل كاثرين!

- ولهذا السبب أنا لن أثق بك مرة أخرى؛ أنت تتحدث عن كاثرين، وأنا أذكرك ببتول. هل نسيتها؟

تبدلت ملامحه:

- أنا لم أنسها قط، بل أدعي أنها غير موجودة.

- فقط؟ بتلك البساطة؟

- لا يمكنني إكمال حياتي وظلها يعاتبني. أنت لن تفهمي مشاعري أبدًا؛ لبتول مكانة خاصة في قلبي.

- ولذلك قتلتها؟

- كان خطأ، أكبر خطأ ارتكبته، وأدفع ثمنه حتى الآن.

- لعنك خضر بسببها.

طأطأ ألبرت رأسه:

- تعددت اللعنات والمسخ واحد، لذلك.. أتوسل إليك، لتأخذي كلامي بجدية.

- حسنًا، سأبحث في الأمر. لكن أريد سؤالك عن شيء آخر، ولتعدني بالصدق!

هز ألبرت رأسه، فأكملت هبة:

- حسنًا.. لقد أخذني المنزل في رحلة من الذكريات الخاصة بك، خاصة ذكرى تسلم خضر مفتاح المنزل، أو بمعنى أدق مفتاح الآلة...

زفر ألبرت ولم يعلق، فأكملت هبة:

- السيدة هيلين صدمت ما إن استقر المفتاح في يده، وكأن أحدهم وعدها بمصير مختلف للمنزل.

- وأين السؤال؟

- من هو جني الآلة؟

رفع ألبرت رأسه:

- جني ماذا؟

- ألا يوجد جني للآلة؟ أو ربما شيطان الآلة!

- لا وجود لشيء كهذا.

- حسنًا، شكرًا لك.

أحنى ألبرت رأسه ثم خرج من الغرفة مسرعًا؛ عندها عرفت هبة أنه يكذب، أو على الأقل لا يقول كل الحقائق. هناك كيان آخر تتعامل معه في هذا المنزل، أصبح الأمر مملًا حقًا.

***

تنقلت بين جنبات القصر تحصي عدد الغرف، ومساحة كل غرفة. يرافقها عدد من الخادمات وعمال المنزل. أخلت الكثير من المساحات غير المستغلة،

واكتشفت الكثير من الأماكن السرية، حتى قاطعت إحدى الخادمات حملتها، لتنأى بهدى إلى ركن بعيد للحظات، لتعود مصفرة الوجه.

قالت هبة بتوجس:

- ما الأمر؟

- هناك شيء ما لا بد وأن تعرفيه.

- ماذا؟ تكلمي!

- محمود بيه، ذهب إلى قصر السلطان منذ بعض الوقت.

هزت هبة رأسها:

- حسنًا، اصرفي الجميع، سأذهب بنفسي لأرى ماذا فعل هذا الأحمق.

أحنت هدى رأسها، فأسرعت هبة تقطع الممرات حتى وصلت إلى الباب الخشبي المزخرف. دفعته بقوة حتى فتح، ثم دلفت إلى قصر السلطان متخفية كي لا يعرف بوجودها أحد. ستبحث عن محمود لتخرجه قبل أن يقتله السلطان لأنه عبث مع نسائه. ولكنها لم تستطع منع شعور الحسرة من اعتصار قلبها، ظنت أن علاقتهما بخير. إنها تحبه وتهتم به، فلم يهينها بتلك الطريقة؟ انتزعتها الجلبة التي تصدر من بهو قصر السلطان من أفكارها، فتوجهت بحذر حتى وجدت جمعًا غفيرًا من النساء يشكلن حلقة، وبداخلها رجلان يتعاركان. تسارعت ضربات قلبها، وعرفت أن الأحمق أُمسك به. أبعدت النساء حتى وصلت إلى زوجها صارخة:

- محمود!

انتبه السلطان لها فتوقف عن لكمه، ووقف ليعينه على الوقوف.

نقلت نظراتها المتعجبة بينهما، فأسرع محمود مفسرًا:

- حسنًا، لا تغضبي، ولكننا نمرح معًا.

تراجع السلطان مشيرًا إلى نسائه ليبتعدن ويتركنهم بمفردهم.

***

- لا أصدق هذا، كم أنت أحمق!

أمسك محمود المنشفة ليجفف جسده:

- تأدبي، كل ما في الأمر أني شعرت بالملل.

- ماذا؟ هل أصبحت مملة فجأة.

- ما دخلك بالأمر؟ طبيعي أن أبحث عن صحبة رجل مثلي. تلك أمور ذكورية لن تفهميها.

ابتلعت غضبها خوفًا من تصعيد الأمور بينهما، فاقترب محمود منها:

- لقد تحدثنا أولًا. كنت أشعر ببعض الغضب، فاقترحت مباراة من الملاكمة بيننا.

قاومت هبة دموعها:

- نعم، ذهبت من أجل مباراة في الملاكمة.

ابتسم محمود:

- إذن هذا هو سبب غضبك؟ تظنين أني ذاهب من أجل النساء؟

- عليك اللعنة!

- احذري، فكلماتك في هذا المنزل قانون.

- لا تقلق، أنت محمي من كل شيء.

- هبة، ألا تظنين أنك غبية بعض الشيء؟ إن أردت النساء فلم نساؤه؟ يمكنني اختراع عالم من التخيلات الخاصة بي؛ فكما تعلمين أنا من حكام المنزل.

أشاحت بوجهها بعيدًا كي لا تتساقط دموعها أمامه، فأسرع يطوقها بذراعيه:

- أنا لا أبغي امرأة غيرك، فلم الغيرة من لا شيء؟

دفنت وجهها في صدره، ثم انفجرت في البكاء. لا تعرف سبب مشاعرها الجياشة في الفترة الأخيرة، ولكنها تريده بجانبها طوال الوقت. سمعت صوت طرق على الباب، فأسرعت تمسح دموعها، وأسرع محمود إلى دورة المياه ليرتدي ملابسه.

ظهر زغلول بقدمه التي يجرها خلفه، ثم انحنى:

- مساء الخير يا هانم.

- عم زغلول، هل كل شيء على ما يرام؟

- في الحقيقة لا، الأمور ليست بخير.

قطبت هبة جبينها:

- اجلس وأخبرني.

- أفضل الوقوف، وما جئت لأخبرك إياه أن مهمتي تتلخص في كوني حلقة الوصل بين هذا البيت والعالم الخارجي، ولا أستطيع تأدية تلك المهمة وأنا داخل المنزل.

تذكرت هبة أوامرها بإيجاد غرفة آدمية له بداخل المنزل، فأسرعت تقول:

- ولكن ألا تحب غرفة أكبر؟ ومريحـــ...

- كلا، لا أحب. وهناك شيء آخر؛ هذا الفتى، نعم، الذي يحب المجيء ليُضرب كل بضعة أيام في حديقة المنزل.

ارتعش صوتها وقالت:

- من؟ أحمد؟ ماذا به؟

- لا ينوي خيرًا؛ ما زال يسأل عن البيت، وكما أخبرت سوسن هانم، سيقابل يومًا ما الشخص الخاطئ وتقع الكارثة.

- حسنًا، سأرى هذا الموضوع، شكرًا لك.

أحنى العم زغلول رأسه وذهب عنها، ولأول مرة تشعر بالخوف. جدتها ليست بجانبها لتطمئنها أو تستشيرها، إنها بمفردها. محمود معها، ولكنه انفعالي، ربما سيكون رد فعله الأول هو قتل أحمد ورفع المعاناة عن الجميع. تجولت في الغرفة، ثم توقفت عند الباب وفتحته لتجد ألبرت أمامها.

- هل سمعت ما قاله زغلول توًّا؟

- نعم.

- وهل تقترح علي حلًّا لتلك المشكلة؟

ابتسم ألبرت ثم أشار إليها لتتبعه. بضع خطوات ثم وصلت إلى باب، فاتبعته لتجد غرفة شاسعة من الرخام الأبيض، ثم استدار قائلًا:

- المنزل هنا قائم على ثوابت لم تتغير منذ وقت طويل.

- لا أفهم.

- فكري معي، المنزل تحيط به هالة من نوع معين، كما إنه لغز لكثير من الأفراد في الخارج.

- حسنًا، ما زلت لا أفهم.

- ما أقصده أن تغيري تلك الثوابت.

- حسنًا، كيف؟

قال ألبرت بنفاد صبر:

- فكري في طريقة لدحض غموض المنزل!

- ماذا أفعل؟ هل أفتح حضانة نهارية في الحديقة؟

لم يبدُ على ألبرت الفهم، ولكنه قال:

- حسنًا، كل حاكم يأتي إلى المنزل يقوم ببضعة تغييرات، لذلك حاولي اقتراح تغيير من نوع ما، وليشمل الشكل الخارجي فقط.

ضربت هبة جبهتها، وكادت أن تقبله على اقتراحه الرائع. نعم، ربما تجديد هيكل المنزل من الخارج وتحويله إلى منزل مرخص سيبعد أعين الفضوليين، وأي شخص يتبع جهة حكومية.

فكرت أن لو ألبرت مصري يعيش في هذا الوقت لأكمل جملته بنصيحة عن «تستيف الأوراق» الخاصة بالمنزل.

عرفت إجابة سؤالها، فأسرعت تستدعي زغلول، الذي قابل اقتراحها باستنكار، ثم ما لبث أن هز رأسه في استسلام، ليعد عدته في استقبال عمال لتغيير المنزل. بضع دقائق وانتشر خبر التجديد في المنزل، فشعرت بخوف ضيوفها، لذلك جلست في منتصف البهو تجيب على الأسئلة لتطمئن الجميع.

***

- ألا تكفي تلك التغييرات؟

- كلا، لا تكفي.

ابتعد محمود وهو يزمجر بصوت منخفض، فتابعت العمل مع فني الكهرباء قائلة:

- أريد ما إن أصفق بيدي حتى تنير جميع الأضواء في البهو، وقاعة الاحتفال.

هز الفني رأسه، ثم لملم أوراقه وذهب ليكمل عمله.

بضعة أسابيع مرت حتى تحققت رؤيتها. تم تجديد المنزل من الخارج بالكامل، أما من الداخل، فالطابق السفلي فقط هو ما تم تحسينه؛ الكهرباء والصرف الصحي.

- زغلول هذا مفيد حقًّا.

هزت هدى رأسها لتوافق على كلام سيدتها، ثم لاح لهبة سؤال فجأة.

- ما قصته؟

- من؟ زغلول؟

هزت رأسها، فجلست هدى على أقرب مقعد ووضعت ساقًا على الأخرى وهي تمسك بفستانها. ابتسمت هبة على الفور، وتذكرت أفلام الأبيض والأسود، وطريقة جلوس الممثلات قديمًا.

قالت هدى مفكرة:

- حسنًا، زغلول ليس ضيفًا، أنت تعرفين هذا.

هزت هبة رأسها، فأكملت هدى:

- حسنًا، زغلول يختلف عن الجميع، أولًا: لقد عاصر فترتين من حكام المنزل، وبوجودك يكون عاصر ثلاثًا.

- حقًّا! هل هو مسن لتلك الدرجة؟

ابتسمت هدى:

- نعم، هو مسن، ولكن العم زغلول يختلف، لأنه ولد هنا، كما عاش كل أيام حياته في جنبات القصر؛ طفولته، وشبابه، حتى إنه تزوج هنا.

- حقًّا؟ تزوج في المنزل؟

قالت هدى مبتسمة:

- كما أنجبت زوجته هنا، وماتـ...

اختفت ابتسامة هدى:

- قصته مأسوية بعض الشيء، فهل تريدين إكمالها؟

هزت هبة رأسها، فأكملت:

- ولد زغلول في عصر جمال أفندي، وتزوج وأنجب ابنه الوحيد، وعاشوا في غرفة خارج المنزل، واهتم بالحديقة، التي كانت شاسعة وقتها. ولكننا في واحدة من ليالي أغسطس الحارة وجدنا جثة الطفل في إحدى غرف المنزل.

قطبت هبة جبينها:

- هكذا؟ جثته ملقاة؟ من فعلها؟ من قتله؟

هزت هدى رأسها بأسى:

- لا أحد يعرف، جن جمال أفندي وقتها، وكانت نهاية فترته، ثم جاءت سوسن هانم، وأجرت تحقيقًا مفصلًا، حتى إنها عزلت العم خميس، ولكنها لم توفق في إيجاد القاتل.

- من هو العم خميس؟

- مساعد جمال أفندي قبل فوزية.

أكملت هدى:

- حسنًا، مات الطفل، وبعدها بسنوات قليلة لحقت به أمه، وعاش زغلول في نفس الغرفة طوال حياته، وما زال ولاؤه للمنزل وحكامه.

- هذا غريب حقًّا. ألا توجد أي نظرية عن قاتل الطفل؟

هزت هدى رأسها نافية:

- لم تكن به أي علامات، لم يحاول أحد الاعتداء عليه إن كنت تفكرين بالضيوف، كما إن الأمور كانت مستقرة ومشرقة في عصر جمال أفندي.

هزت هبة رأسها مفكرة:

- منذ أكثر من خمسين عامًا؟

- نعم، فزغلول يقترب من الثمانين عامًا.

- ولكنه في صحة جيدة نظرًا إلى سنه.

- بالطبع، المنزل له مميزات، كما إنه بقي ليكون قريبًا من الطفل، فأحيانًا يخرج ليلعب معه.

فركت هبة جبهتها وقالت متذكرة:

- نعم، أظنني اصطدمت به عندما كنت جديدة في المنزل.

- أظنك صرخت وقتها وكأنك رأيت شبحًا.

قالت هبة بشرود:

- نعم، لقد فعلت. إنها قصة مأسوية بالفعل.

- لقد حذرتك.

ابتسمت هبة:

- يمكنك المغادرة، فأنا لا أحتاج إلى شيء آخر.

راقبت خروجها من الغرفة، ثم أسرعت خلفها وقالت محدثة المنزل:

- خذني إلى قبل موت ابن زغلول.

أسرعت تفتح الباب وتقف في الممر المظلم. تفحصت الجدران حولها، وعرفت أنها في زمن مختلف الآن؛ هناك لوحات فنية تزين الحائط، ومنضدة صغيرة عليها مزهرية من الورود الحمراء. وجدت غرفة بابها موارب، وتتسلل منها أشعة ضوء أصفر، مع موسيقى لأغنية قديمة تعرفها.

«لو كان الغرام بإيديا مكانش جرى اللي كان..
يا خاين ملكش أمان، وريتني العذاب ألوان.. ليه؟ ليه؟
ليه خلتني أحبك؟ لا تلومني ولا أعاتبك..
فين تهرب من ذنبك؟ روح منك لله!»

اقتربت من الغرفة، ووقفت تراقب طفلًا لا يتعدى عمره السادسة يلعب على الأرضية، وعلى منضدة قريبة يقبع جهاز غرامافون يبث أغنية ليلى مراد الحزينة. مشهد عادي، حتى اقترب ألبرت من الطفل. تسارعت ضربات قلبها وعرفت الإجابة على الفور؛ ألبرت قاتل ولن يتغير. تساقطت دموعها وهي تجبر نفسها على رؤية اللحظات الأخيرة للطفل. ألبرت يبتسم ويلعب معه،

ثم يعطيه لعبة خشبية على هيئة حصان، ثم وقف ليهم بالخروج من الغرفة، ولكنه فقد الوعي على بعد خطوات من الباب.

جفلت هبة وجنتيها، واقتربت من فتحة الباب لترى أفضل. من داخل جسد ألبرت خرجت شعلة من النار، شعلة ابتعدت عن جسده لتكبر، وتأخذ هيئة شبه آدمية. فزع الطفل وهم بالصراخ، ولكن الكائن اقترب منه ليحمله بيد واحدة. حاول الطفل الفرار، ولكنه أطبق على رقبته، وفي لحظات تحول إلى جثة فارغة من الحياة. تراجعت هبة إلى الوراء، فأصدرت الأرضية صوتًا، فنظر إليها الكائن وترك الجثة تفلت من بين أنامله. ركضت مبتعدة، فأسرع بالهجوم عليها، ولكنها هرولت إلى باب الغرفة التي جاءت منها لتدخل وتغلق الباب خلفها، ثم تسقط صارخة بالقرب من زوجها، الذي أسرع إليها ليهدئ من روعها.

***

- أفضل الآن؟

تناولت ما بكأسها من عصير:

- نعم، أنا بخير، فقط أرتعد خوفًا.

- ما هو هذا الكائن؟

- لا أعلم، ربما هو شيطان الآلة كما أخبرتني بتول.

- وهو بداخل ألبرت الآن؟

- ربما، لا أعرف، أنا فقط أريد أن ينتهي كل هذا.

قالت هبة تلك الكلمات ثم بدأت في البكاء. أسرع إليها محمود ليطوقها بذراعيه، فدفنت رأسها في صدره:

- لننه كل هذا! خذني إلى الآلة لأموت، ثم أشعل النار في المنزل وارحل. محمود، هذا المكان ملعون، لقد قتل طفلًا توًا.

- إياك وقول هذا! كما إنه ميت منذ أكثر من خمسين عامًا. دعينا نفكر مليًا.. المنزل أراك تلك الذكرى لسبب.

- نعم، ولكن أنا من طلبت رؤيتها.

- ولكنه سمح لك، أي إن معرفتك بهذا الوحش قاتل الأطفال بداخل ألبرت لا تتعارض مع مهمتك.

- ماذا تقصد؟

- الوقت قد حان لنضع حدًّا لألبرت، أو الوحش بداخله، ونعيده للآلة إن كان هو شيطان الآلة حقًّا.

- محمود، نحن لا نعرف شيئًا. أعني.. ماذا يدرينا أن هذا هو شيطان الآلة حقًّا؟ وفكر معي؛ لو أخرجناه من ألبرت، فكيف سنعيده للآلة؟ ربما نخطئ ونطلقه على المنزل. لا يمكننا المغامرة بشيء كهذا.

- نحن لا نعرف، ولكن شخصًا ما يعرف. كل تلك الحيوات بداخل المنزل ولا أحد يعرف أي شيء؟

فكرت هبة قليلًا:

- بلى، بالتأكيد شخص واحد يعرف إجابة كل تلك الأسئلة.

- من؟

- خضر، جدي الأكبر.

قررت في صباح اليوم التالي. ستقطع تلك الرحلة مع زوجها، فهي تخاف ألا يراها خضر؛ كونها من ضيوف المنزل. تشبثت بيده، ثم معًا فتحا أحد أبواب المنزل. تقدمت تقطع البهو الرخامي، ثم وقفت عند أحد الأبواب. شيء ما أخبرها أن خضر خلف هذا الباب. اقتربت من الباب الموارب مراقبة خضر وهو يجلس على مكتب خشبي ضخم يكتب في مذكرة صغيرة بضعة أشياء. تعرفت على الفور على اليوميات خاصته، التي تملك أجزاء منها في زمنها الخاص.

قرب خضر لمبة الجاز من اليوميات ليرى أفضل.

قالت هبة هامسة:

- لتدخل أنت أولًا، فربما لا يراني.

تقدم محمود، ثم دفع الباب برفق. انتفض خضر من مكانه، ثم حدق إليهما وهم بالصراخ، ولكنها أسرعت:

- لا تفعل، أتوسل إليك! نحن أحفادك، أعني.. نحن حكام المنزل مثلك، ولدينا بعض الأسئلة.

مر بعض الوقت حتى هدأ خضر واستطاع الجلوس على مقعده. قدمت هبة أكثر من دليل على صدق كلامها، ولكن بدا الشك وكأنه سمة من سماته، ولكنه على أي حال جلس وبدأ في إشعال لفافة تبغ.

هبة: «لدينا بعض الأسئلة التي نحتاج إلى إجابات عليها».

تفحصها خضر بعينيه السوداوين الضيقتين:

- كيف تكونين حفيدتي وأنت...؟

قال محمود مسرعًا:

- نحن نتحدث عن أكثر من مئة عام، بالطبع هنالك حفيد أو أكثر تزوج بامرأة بيضاء.

تفحصه خضر في شك:

- لم يكن هذا سؤالي، كنت سأسألها عن المذكرات التي تركتها لتعرفوا كيفية التعامل مع كيانات المنزل.مكتبة .. سُر مَن قرأ

قال محمود وهو يوشك على البكاء:

- كيانات؟ وليس كيانًا واحدًا؟

قالت هبة مسرعة:

- جدي، أتوسل إليك، لتسمعنا أولًا! أما عن المذكرات، فقد فقدت، أو جد مهمل لم يعتنِ بها، إنها الحياة. فهل تستمع لنا؟

محمود: «ماذا تقصد بكيانات؟»

أرجع خضر ظهره إلى الوراء وتفحص وجهيهما:

- هل يعرف أي منكما على ماذا المنزل قائم؟

نظر محمود إلى هبة وكأنه يدعوها إلى الإدلاء بما تعرفه.

- حسنًا، ما أعرفه أن الخواجة بوركهارد وزوجته قاما بما يسمى تزاوج السحر مع العلم؛ الآلة صنعت، ثم جاء سحر السيدة هيلين ليتـــ..

رفع خضر يديه مغمض العينين. بدا وكأنها أخطأت في تلاوة النصوص المقدسة. بضع لحظات مريبة مرت، ثم بدأ خضر في الحديث:

- الآلة صنعت لاحتواء شياطين هيلين.

تبادلت هبة النظرات مع زوجها، ثم عادت لتسأل خضر:

- هلا تخبرنا بالتفاصيل!

- عائلة السيدة هيلين عرفت بسحرها، تزوجها السيد بوركهارد لهذا السبب. نظرياته المجنونة التي أغضبت الجميع في بلده الأم دفعته للرحيل إلى مصر ونتـــ...

قاطعه محمود:

- حسنًا، نحن نعرف تلك الحكاية.

وجهت له هبة نظرة غاضبة، ولكن محمود أكمل:

- في الحقيقة نحن نريد إجابة عن سؤال، بل سؤالين.

- ما هما؟

- ما هو شيطان الآلة؟ وكيف نخرجه من ألبرت؟

- ألبرت ما زال حيًّا؟

نظر محمود إلى زوجته وقال:

- لا هو حي ولا هو ميت.

وقف خضر فجأة وظل يتجول في الغرفة حتى توقف عند الباب:

- كانت الأمور مستقرة؛ السيد بوركهارد في معمله خلف المنزل، والسيدة هيلين في حديقتها السرية تزرع حشائشها الغريبة. ولكن يومًا.. حسنًا، يومًا ما تغير كل شيء؛ ألبرت مصاب ويوشك على الموت، وعندها السيدة هيلين عادت لتمارس حرفة أسلافها.

هبة: «السحر الأسود».

التفت إليها خضر وهز رأسه، ثم أكمل:

- حتى بعد أن تحسنت صحة السيد الصغير، لم تفارق هيلين كتابها الأسود.

- هل يمكنني سؤالك عن تلك الذكرى التي استقر فيها مفتاح الآلة في يدك؟

هز خضر رأسه:

- نعم، أتذكرها.

- لقد فوجئت السيدة هيلين وكأن أحدهم وعدها بشيء مختلف.

- لأن شيطان الآلة وعدها أنها ستستقر في يد ألبرت؛ فرغم كل شيء هي أم، وأرادت الخلود لابنها.

محمود: «حسنًا، هو لم يمت، ولكن...»

هبة: «هناك كيان آخر بداخله».

قال خضر بشرود:

- نعم، أعرف، فأنا من لعنته. هذا الشيطان الذي قُتلت كاثرين وبتول بسببه، وتحت اسمه أخرجته من الآلة، ليتلبس عزيزها ألبرت.

تبادلا النظرات، وقال محمود:

- كيف نخرجه إذن ونرجعه إلى الآلة؟

- لا أنصحكما بذلك.

هبة: «أظنك لا تفهم ما فعلته؛ هذا الشيء بداخله قتل طفلًا، روحًا بريئة ليس بيدها حيلة».

اهتز جسد خضر، ثم سقط على أقرب مقعد وبدا غير مصدق لما تقوله.

- آسفة، ولكنها الحقيقة. على أي حال الطفل ميت، ولا يمكننا إنقاذه، ولا تحاول تغيير أي شيء، نحن من سنفعل.

- سنذهب جميعًا إلى الجحيم لما فعلناه.

محمود: «تلك أمور لم تقرر بعد، حمدًا لله أن مصيرنا بيده -سبحانه وتعالى- وليس بيد البشر».

حدق إليه خضر للحظات:

- الشيطان سيعود للآلة عندما يفنى الجسد.

- وكيف يمكننا قتل شخص ميت؟

قطب خضر جبينه:

- ألبرت لم يمت.

اعتصرت هبة رأسها مذهولة:

- بعد كل هذا الوقت؟ ألبرت هو أيضًا بطارية حية؟

- بطـ... ماذا تقصدين؟

- لا شيء. أعني كيف يمكننا قتل ألبرت؟

- كما ننهي حياة الضيوف؛ ليصعد إلى الآلة، وعندها سيسترجع السجان سجينه.

محمود: «ماذا؟»

- ألم يكن الأمر واضحًا؟ الآلة عبارة عن سجن، ولديها السجان الخاص بها.

هبة: «عندما ذكرت كلمة كيانات، أكنت تعني أن هناك أكثر من شيطان في الآلة؟»

هز خضر رأسه:

- نعم، في لحظة غضب خدعت السجان وحررت الشيطان ليتلبس ألبرت ويحوله إلى وحش دميم.

- الكناس!

- لا أعرف ما هذا، فهو لم يأخذ هذا اللقب في وقتي.

محمود: «ومن أين أتت كل تلك الشياطين؟»

هبة: «أليس واضحًا؟ من سحر السيدة هيلين».

هز خضر رأسه مرة أخرى:

- قمت بحرق كتابها الأسود، وبعدها مباشرة انتحرت.

محمود: «إذن نعود بألبرت للآلة لنسجن هذا الشيطان بداخلها».

- سأدعو الله أن يوفقكما.

لمع سؤال فجأة في رأسها، فأسرعت:

- لم عادت كاثرين؟

زفر خضر بقوة:

- لأنها أحبته، هي أيضًا أحبته.

محمود: «ولكن أن تعود حيث قتلـ...»

خضر: «تبادلا الرسائل لأكثر من عام، وذهب إلى مقابلتها حتى استدرجها إلى المنزل».

هبة: «لديه روح منتقمة إذن».

- عندما نطعن في قلوبنا فجميعنا لدينا تلك الروح المنتقمة.

ارتجف قلبها وتذكرت أحمد. لم تخنه يومًا، ولكنه استطاع قلب الموقف ليحملها وزر خيانته ويشعرها بأن الحب والسعادة ليسا من حقها. ابتسمت لجدها، ثم أشارت إلى زوجها ليرحلا. لديها الكثير من الأسئلة، ولكن رأسها يوشك على الانفجار، عليها التفكير في خطوتها التالية مع ألبرت.

ودعت هبة جدها الأكبر، ثم أمسكت يد زوجها وفتحت الباب، لتجد نفسها تقف في البهو الرخامي.

- أليس من المفترض أن نعود؟

- أظن المنزل يعرض علينا شيئًا ما.

قطعت هبة البهو وخلفها زوجها يتأمل المنزل الشاسع:

- يصعب علي تخيل أن هذا القصر هو منزلنا القديم.

ابتسمت هبة:

- وأنت من رفضت التجديدات.

توقفت لتقترب من أحد الأعمدة الرخامية الضخمة وخلفها زوجها.

رجل سمين يقطع البهو، بشرته سمراء ويرتدي بدلة سوداء فوقها طربوش أحمر اللون.

- فؤاد بيه! فؤاد بيه!

ارتعشت هبة وهي ترى فوزية تقطع الممر خلف فؤاد. إذن هذا هو فؤاد، عم جمال جدها.

تبادلت مع محمود النظرات، ثم تتبعا المشهد حتى وصلا إلى نهاية البهو.

- أين الضيف؟

- في القبو، ولكن هناك مشكلة أخرى.

- ماذا؟

- الكناس يرفض الدخول إلى القبو.

- لماذا؟

- لا أعرف، ولكنه اختفى ما إن أخبرتــ...

تراجعت هبة، وعرفت أن الوقت قد حان. ألبرت يعرف ما بداخل القبو «سجان شيطانه»، حتى وإن لم يعرف حكام المنزل، ففؤاد لا يعرف أن أسفل هذا القبو هناك قبو آخر تقبع به الآلة.

أسرعت تبحث عن أي باب كي تعود لوقتها الحالي..

***

- لم قتل الطفل؟

تأملت هبة زوجها وهو يتمدد أمامها على الأريكة، فاقتربت منه وطبعت قبلة على جبهته.

- أظنه احتاج إلى الطاقة، ربما روح بريئة تحمل في طياتها ما لا نعرفه.

- إدمان الطاقة، إذن ألبرت محق في تحذيرنا.

هزت هبة رأسها:

- نعم، أظنه كذلك. ولكن لم يفعل... أعني الشيطان بداخله يتــ...

اعتدل محمود:

- أظنه لا يتحكم به طوال الوقت. هل تتذكرين عندما كان مشتتًا بعد حادثتك؟

هزت هبة رأسها:

- نعم، ولكن كيف سنفعلها؟ كيف سنرغمه على الدخول إلى القبو؟

- إن ألبرت لا يطلع على أفكارك الآن.

- لا، لقد فقد تلك الميزة منذ وقت طويل، ولا تقلق، لا يمكنه سماعنا أيضًا إن لم أشأ أنا ذلك.

- حسنًا، لا يمكننا إرغام ألبرت على النزول إلى القبو، فهل يمكننا إخراج القبو لألبرت؟

- كيف؟

- لا أعلم، أنا فقط أفكر بصوت مرتفع.

تمددت بجانبه وهي تتأمل السقف وتفكر في طريقة لحل تلك المشكلة. تذكرت كون ألبرت بطارية هو الآخر، وتساءلت كيف فاتها ذلك. على عكس السلطان، فألبرت لم يتخذ مكانًا محددًا له، بل كل المنزل أصبح تحت سطوته. كم هو مخبول أن تكون كل لذته في معاقبة ضيوف المنزل والتجول في عقل حكامه!

***

رحل آخر عامل بعد الانتهاء من أعمال الدهان الأخيرة، فخرجت هبة لتلقي نظرة على المنزل.

سامية: «إنه جميل يا هبة!»

ضمت أمها بقوة:

- أبي ينتظرك بالداخل، ربما تسمعين منه خبرًا يفرحك كثيرًا.

ترددت سامية قليلًا، ثم ابتسمت متوجهة إلى زوجها.

- أكل شيء مستقر الآن؟

- أظن هذا، ولكن، ربما أتصل بجدتي وأستشيرها في تلك المسألة.

- أي واحدة؟ قتل ألبرت؟ أم كيف أصبحت حاملًا بطفل؟

ابتسمت هبة وتذكرت رحلتهما معًا الأسبوع الماضي، وحالتها الصحية التي قلبت رأسًا على عقب بعدها. لا تعرف كيف، ولكن يفترض أنها ميتة، فكيف تحمل طفلًا في أحشائها؟ أرغمها محمود على الخضوع لاختبار حمل، ثم زف إليهم سليم الخبر. نظر إليها الجميع في دهشة مختلطة بمشاعر الخوف والقلق؛ إنها ميتة، فكيف حدث هذا؟

وضعت هبة يدها على بطنها وكأنها تحمي طفلها:

- مسألة ألبرت طبعًا.

- لا يوجد جدال في هذا الموضوع؛ ألبرت سيموت هو وشيطانه، حتى وإن اضطررت إلى حمله بنفسي.

- نعم، ولكن...

قال محمود بحزم:

- دون لكن، تلك مسألة منتهية.

قال تلك الكلمات ثم رحل مسرعًا. فكرت هبة أن محمود أصبح مهووسًا بحماية طفله، فهو يظن أن الشيطان داخل ألبرت سيخرج ويقتل الطفل كما فعل بابن زغلول. لا يمكنها لومه، ولكنها الآن تخاف فعل أي شيء يؤذي طفلها.

رن هاتفها، فقطعت حبال أفكارها، ردت بتلقائية ليرتعش صوتها:

- كيف حالك؟

أحمد: «هنا أخبرتني».

- عن ماذا؟

- تحملين طفله الآن.

سبت هبة زوجها، ربما أخبر أباه ليفرحه، ولكن الآن أحمد يعرف؛ مصيبة أخرى ستتعامل معها.

- ألن تبارك لي؟

- أتمنى أن تريه جثة محترقة.

قال تلك الكلمات ثم أغلق الهاتف. ارتعشت يدها، لا تصدق أن أحمد يقول لها شيئًا كهذا. تسللت دموعها، ثم تهاوت على أرضية الحديقة تبكي بحرقة ذكرياتها مع هذا الشخص المسمم.

***

- تعرف صديقك في ثلاث: شدة تصيبك، ونعمة تصيبه، وجفوة بينكما.

قال سليم تلك الكلمات، ثم ناولها الدواء وكوب الماء.

- من فضلك لا تخبر محمود؛ إنه مندفع قليلًا، وربما يذهب ويتعارك معه.

- ربما هذا ما يحتاج إليه.

- ماذا؟

- أحمد، ربما هذا ما يحتاج إليه؛ أن يخرج تلك الشحنة من جسده.

- حسنًا، ربما، ولكن كل مرة يتواجهان محمود يربح.

ابتسم سليم:

- لا أصدق أن الطفل السمين الذي كنت أحضر له الحلوى كل خميس كبر ليصبح محمود.

ابتسمت هبة بدورها:

- الزمن يغير كل شيء، إنها سنة الحياة.

عادت لتبكي. اقترب سليم منها واحتضنها بقوة، فدفنت رأسها في صدره.

***

جلست بالخارج لتحصل على حصتها من أشعة الشمس، عندما شعرت بذبذبات غريبة تجتاح جسدها. وقفت مذعورة ثم أسرعت تدخل المنزل لتجد محمود يقف في منتصف البهو ينظر إليها.

- استدعي ألبرت.

- ما الأمر؟ ولم سأستدعـ...؟

- فقط نفذي ما أقوله.

بضع لحظات مرت وهي تحدق إلى زوجها، الذي أصبح جادًّا ومقطبًا جبينه على عكس عادته المرحة. بدا غريبًا وهو يقف وحيدًا في منتصف البهو. حتى ظهر ألبرت وانحنى في أدب قائلًا:

- سيدتي!

نظرت إلى زوجها مطالبة بتفسير، فصرخ:

- الآن!

تحركت أرضية البهو، لتخرج من منتصفها آلة ضخمة تمشي على أربع كالحيوانات، وفي منتصفها حلقة النيران ذهبية اللون. أسرع ألبرت ليهرب، ولكن الآلة مدت الحلقة وأمسكت به لتبتلعه بداخلها. مرت ثوانٍ، ثم لفظت جسده، وانشقت الأرض لتبتلع الآلة مرة أخرى.

أسرعت هبة تتفحص جسد ألبرت مع بعض الخادمات، ثم طلبت منهن نقله إلى إحدى الغرف، وأسرعت خلف زوجها الذي انسحب إلى غرفتهما في صمت.

- ما الذي فعلته؟ وكـ... وكيف فعلته؟

- لا تسألي الساحر عن تفسير خدعته.

- ولكن كان عليك تنبيهي.

- لا داعي لإجهادك بأشياء لا تعنيك.

قالت هبة صارخة:

- أشياء لا تعنيني! كيف؟ هل أنت مجنون؟

- هبة، انظري، أنا أعرفك؛ أنت دائمًا تؤجلين الأمور المهمة. انظري إلى كم الوقت الذي أخذته للتخلص من الوغد بنيامين. أنت بطيئة.

- وأنت أحمق مندفع. علينا دراسة الأمور بتمعن أولًا.

ابتسم محمود:

- لذلك نحن ثنائي مثالي؛ أنت تفكرين وأنا أنفذ.

تراخت هبة:

- ولكن.. عليك إخباري بتلك الأمور.

زفر محمود بقوة:

- يمكنني أن أقسم لك إني سأفعل المرة القادمة، ولكن كلينا يعرف أني أكذب.

اقترب ليجلس بجانبها:

- هبة، لا أعرف كيف حدث هذا.

أشار إلى بطنها وأكمل:

- ولكن أعرف أن الله أعطانا فرصة أخرى للعيش بسعادة، فيجب أن نهيئ لها الأمور، وكما ترين، لم تحدث كارثة للمنـــ...

اقتحمت هدى الغرفة:

- الكنـــ... ألبرت يريد التحدث معك!

قالت هبة صارخة:

- ألم يفارق الحياة؟

هزت هدى رأسها بالنفي، وأسرعت تخرج من الغرفة، خلفها هبة تحاول اللحاق بها.

اقتربت من جسده الممدد أمامها، ثم جثت بالقرب منه وأمسكت يده. كان كما هو؛ شابًّا أوروبيًّا وسيم الملامح، لم يتحول إلى عجوز كهل، أو وحش كاسر، فقط شاب مريض يتمدد أمامها.

- كيف تشعر؟

- وكأن مئة سكين تقطع في جسدي.
- أنا آسفة.. لـ....
- لا تشغلي بالك، أنا فقط أردت الاعتذار لك.. لم أستطع أن أحبها حقًا.
- من؟ بتول؟
- نعم، كنت أعرف أنها مخلصة لي، واستغللت ذلك، ولكني أعتذر لك ولها.

قال تلك الكلمات ثم حدق ناحية الباب وكأنه يرى شيئًا في الفراغ. رفعت هبة رأسها لتتفحص المكان:

- لا بأس، فقط استرح الآن.

مرر أصابعه على خدها، ثم سقطت يده. تسللت الدموع من عينيها. ربما يلومها البعض، ولكن حتى هذه اللحظة لم تعرف إن كان شخصًا سيئًا أم مغلوبًا على أمره، كل ما تعرفه أن بعض قراراته خاطئة. ربما هذا ما يصنع الإنسان، فلا يوجد شر أو خير، فقط مجموعة من القرارات التي نتخذها في حياتنا وتصنع ماهيتنا.

***

«مرت ثلاثة أشهر منذ رحيل ألبرت، والحياة استمرت في المنزل وكأن شيئًا لم يكن. كل بضعة أسابيع يقرر ضيف قديم الصعود إلى الآلة والرحيل، والحياة تستمر بعده. أما من بقي، فقد قرر أن تلك هي الحياة التي يريدها. أنا ومحمود لا نمانع حقًا، الحفلات ما تزال تزين ليالينا. محمود يتفنن في إسعاد الضيوف؛ العمل كمرفه عن الغير يناسبه، ويبرز شخصيته المرحة. ما زال يدفعني إلى الجنون، وما زال الطفل بداخلي يركل كل عشر دقائق. ولكن لسبب ما أشعر أن هذا الهدوء الذي تليه العاصفة. ما زلت أتوجس من الزوايا المظلمة، والغرف التي لا تفتح، وكأن وحشًا آخر ينتظرني خلف كل باب. بعض الأشياء تأتي لتهون علينا؛ مثل فرصتي الثانية مع أبي، وقرار أمي المكوث معنا، الذي غير كل شيء حقًا. لكن ما زال شيء ما ينقصني، ربما هذا الشيء هو أنت، فكم أشتاق إليك يا جدتي! لم لا يمكنك قطع الطريق إلينا؟ فأنت تعرفين أنني لا أستطيع الخروج من المنزل. أشتاق لحديثك اللاذع، وأفكارك الداهية، وحكمتك التي لم أرها في أحد من قبل. أشتاق لسماع أرائك،

ورائحتك، وكل شيء بك. كم أتمنى لو تفكري في زيارتنا حتى ليوم واحد، فأبي يحتاج إلى رؤيتك، حتى وإن كنت لا تصدقين هذا».

حفيدتك

هبة سليم

طوت هبة الخطاب، ثم ناولته للعم زغلول، الذي قال:

- أول شيء سأفعله صباحًا هو توصيل تلك الرسالة.

- كيف حالها؟

- بخير، لا تقلقي يا ابنتي. جدك يعاملها بطريقة جيدة.

- جـ... جد من؟

- جدك، كامل بيه!

مكتبة
t.me/soramnqraa

وقفت هبة مشدوهة:

- عم زغلول، ركز معي، جدي حي يرزق؟

- ألم يخبرك أحد يا صغيرتي؟ جدك حي يرزق، ولكن منذ تركته جدتك وهو يعيش في الإسكندرية، بعيدًا عن المنزل وكل تلك الأمور.

- ولم لم يحاول أن يقـ...؟

جلس العم زغلول:

- ربما ليس مقامي أن أخبرك بتلك القصة، ولكن كامل بيه رجل طيب القلب، ذو كبرياء، لم يتحمل اختيار زوجته البعد عنه، فقامت هي بمعاقبته.

- معاقبته! كيف؟ بألا أعرف عنه أي شيء؟

- ربما من الأفضل أن تتحدثي مع سليم بيه.

هزت رأسها، وخرج زغلول مسرعًا. كيف لا تعرف شيئًا كهذا؟ جدها حي يرزق، وهي من كانت تتوسل إلى أي أحد كي تمكث معه! فكرت كيف ستكون حياتها مختلفة لو فعلت. لذلك جدتها قطعت عليها الطريق، فهل عرفت أن هذا سيحدث؟

***

طرق زغلول الباب، فهزت رأسها مبتسمة، فأخرج لها باقة من الورود الصفراء وقال مبتسمًا:

- أعتذر لك يا صغيرتي لو ضايقتك بحديثي السابق، ولكن أردت طمأنتك. لقد بعثت بالرسالة إلى جدتك.

ابتسمت هبة وأخذت الباقة منه. لقد أصبح مختلفًا منذ أخبرته بتفاصيل وفاة طفله. جثا فجأة ليقبل يد محمود، ففي نظره هو انتقم لطفله من هذا الوحش.

ظلت صامتة طوال الليل وهي تراقب عائلتها أثناء العشاء. تحدثت مع والدها عن أبيه، وأخبرها بكل شيء أرادت معرفته. راقبت مزاح محمود المتواصل، وتعاركه الدائم مع أمها حول اسم الطفل، وضحكات سليم الدافئة. كل شيء يوحي لها أن تلك هي النهاية السعيدة التي تستحقها، ولكن شعور الخوف يسيطر عليها. ما تحتاج إليه حقًّا هو جدتها، هي الوحيدة التي مرت بكل هذا، هي الوحيدة التي ستعرف عن أي شيء هي تتحدث.

- هل أنت بخير؟

قالها محمود وهو يتمدد بجانبها على الفراش.

ابتسمت هبة:

- أنا بخير، لا تقلق.

- ربما أحضر لك طبيبًا من الخارج ليفحـ...

- لا تقلق، أبي يهتم بي.

- حسنًا، تصبحين على خير.

ربتت على رأسه، ثم أخذت تراقب السقف حتى سقط رأسها في نوم عميق، لتستيقظ على صوت ارتطام الباب. صرخت خوفًا، وأسرع محمود ليضيء المصباح.

- سوسن هانم!

قالها محمود وهو ينظر ناحية الباب. ارتعش جسده عندما وقعت عيناه على تلك البندقية الضخمة التي تمسك بها، فرفع يده وهم بالإمساك بها، ولكنها أسرعت لتوجه فوهة البندقية إلى أحد أركان الغرفة. فتحت بابًا قد ظهر توًّا من المجهول، ثم دون أي مقدمات أطلقت النار على الفراغ المظلم،

لتظهر جثة شاب على أعتاب الباب. رفع الشاب رأسه، ثم نظر إلى هبة وهم بإطلاق النار، ولكن جدتها أطلقت عليه مرة أخرى ليسقط قتيلًا. اقترب محمود من الشاب وأبعد المسدس عن يده، ثم جثا بجانب الجثة يتفحصها.

- اللعنة، إنه أحمد!

قالها وهو ينظر إلى هبة، التي جلست كالمشلولة على الفراش واضعة يديها على بطنها لتحمي طفلها.

- ادفعه إلى الداخل.

قالتها سوسن وهي تنظر إلى محمود، فأسرع ينفذ طلبها، ثم أغلقت الباب بقوة. بضع لحظات مرت حتى اختفى الباب، وعاد الحائط ذو الألوان الباهتة كما كان.

- أريد فنجانًا من القهوة.

رمت سوسن تلك الكلمات، ثم أسرعت بالخروج من الغرفة وهي ترمي البندقية الضخمة على الأرض. تراخت قدم محمود، فجلس على الفراش وهو يقول:

- اللعنة، ما الذي حدث توًّا؟

***

أسرعت الخادمة تضع فنجان القهوة أمام سوسن هانم وهي ترتعد خوفًا. همت بقول شيء ما، ولكن جدتها أشاحت بيدها، فابتعدت الخادمة مرتعشة.

- كيف حالك يا جدتي؟ لقد اشتقتـــ..

- بخير، ولا أحتاج إلى أحد.

تأملت هبة وجه جدتها الذي تحول إلى عجوز. شعرها اصطبغ باللون الرمادي، وجسدها تضاءل، ورغم ذلك بدت بقوتها السابقة.

- ماذا حدث توًّا؟ ما الذي تعرفينه عن أحمد؟ هل يجب أن آخذ حذري منه؟ أم...

- اخرسي!

انتفضت هبة وحدقت إلى جدتها.

- ألم تتعلمي بعد أصول الحديث؟ سؤال خلف آخر وكأني آلة، اخرسي قليلًا صوتك المزعج هذا!

قاومت هبة دموعها وهي تتذكر أيامها الأولى مع جدتها في هذا المنزل.

- هلا بقيت!

- سأفكر في الأمر، فأنا لا أطيق وجهك هذا.

لم تعلق هبة، بل ظلت تنظر إليها مبتسمة وكأنها تراها لأول مرة.

- حسنًا، ربما حتى تضعي طفلك هذا، وأرجو أن يشبه سليم، وليس وجهك الدميم هذا. آه.. تذكرت، لينزل محمود ويسمح للسائق بالمكوث في إحدى الغرف.

- السائق؟ أم جدي كامل؟

- عليك اللعنة! من أخبرك؟

- عرفت بالصدفة. جدتي، أنا أسامحك.

- اخرسي!

احتضنتها بقوة، وقبلت رأسها، فنزعتها سوسن بيدها الواهية:

- أنت تخنقينني، اذهبي إلى زوجك، فأنا أريد النوم.

اتجهت هبة إلى الباب، ثم التفتت:

- أبي سيفرح كثيرًا برؤيتك.

هزت سوسن رأسها وارتشفت ما تبقى من قهوتها. أغلقت هبة الباب خلفها، وتوجهت إلى غرفتها وهي تفكر فيما حدث توًّا. وما إن دخلت حتى رأت محمود عند الحائط، يضغط عليه وكأنه سيزيحه إلى مكان ما.

- لن يتحرك!

تأملها محمود في صمت:

- كيف عرفت جدتك بهذا الشيء؟ كيف؟

- حاول ألا تبحث عن إجابة، وإلا سينفجر رأسك من كثرة التفكير.

- كيف تكونين هادئة كـ...

- الأمر ليس له علاقة بالهدوء، لقد استسلمت لفكرة ألا أعرف كل شيء، بعض الأمور ستظل غامضة.

- ولكن سوسن هانم عرفت بها.

- لأنها سوسن هانم.

قال محمود غاضبًا:

- حقًا؟

ضحكت هبة واتجهت إلى الفراش لتتمدد:

- أنا فقط سعيدة لأنها هنا.

- ولكن أحمد.. مات.

- كلا، هو لم يمت. لو اتصلت به الآن لوجدته يتمنى لك ليلة سوداء.

- إنها سوداء بالفعل.

- ما أقصده أن أحمد سيموت في المستقبل القريب إن لم يتخلَّ عن أفكاره الخاصة بالمنزل.

- ولكن أليس علينا تحذيره؟

- كلا، ربما نحاول التحدث معه، ولكن هو من سيسطر مستقبله الخاص.

- جدتك، إنها...

- مريبة.

هز محمود رأسه وهو يتمدد بجانبها، فأكملت هبة:

- نعم، جدتي مريبة، وإني لسعيدة بذلك.

النهاية

تمت بحمد الله

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

جدتي المريبة

في منزل جدتي المريبة عليك اتّباع القواعد دومًا..
القاعدة الأولى: أبقِ الأضواء خافتةً.
القاعدة الثانية: ابتعد عن الأصوات الصاخبة، فلدينا كائن له أذن حساسة.
القاعدة الثالثة: لو أردت ممارسة شعائرك الدينية، فافعلها في غرفتك الخاصة.
القاعدة الرابعة: اخدم نفسك بنفسك، فالخادمات للضيوف فقط.
القاعدة الخامسة: ابتعد عن سكان الغرف المظلمة فأرواحهم خبيثة.
القاعدة السادسة: تذكّر دومًا أن تستأذن قبل دخول المنزل، فأنت لا تعرف كلفة غضبته.
ملاحظة:
لو أعجبك المنزل وقررت يومًا أن تصبح مِن ضيوفه، تذكّر أن الدفع بالذهب فقط.
وغير ذلك، أنت مُرحّب بك!

غلاف: إسلام مجاهد

9 789776 902961

عصير الكتب

aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb